مِنَ البَذرةِ إلى الثَّمرةِ

تَرْبِيَةُ الأبناءِ وبِناءُ شَخصيّةٍ مُتكامِلةٍ

من البَذرة إلى الثمرة

تربية الأبناء وبناء شخصية متكاملة

Copyright©2015 Dar Al-Nile

الطبعة الثالثة

جميع الحقوق محفوظة، ولا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-6183-85-8

رقم الإيداع

2015/8382

رقم النشر

1028

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 ج- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 25379391

Mobile: 002 01023201001

E-mail: info@daralnile.com

www.daralnile.com

القاهرة - 2015م

مِن البَذرة إلى الثَّمرة

تَربِيَةُ الأبنَاءِ وبِنَاءُ شَخصِيّةٍ مُتكامِلَةٍ

تأليف

محمد فتح الله كولن

ترجمة

د. عبد الله محمد عنتر

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

تقديم ٩
مدخل..... ٢١
١- مفهومنا الأخلاقي ٢١
٢- أسباب انهيار الأمم ٢٢
٣- تقليد الأمم الأخرى ٢٤
٤- المخلوق المكرّم ٢٥
٥- الرهبانيّة وسيادة الكنيسة في الغرب..... ٢٦
٦- العلاقة بين الدين والدولة في الإسلام ٢٧
٧- المبادئ الأخلاقية ٢٨
٨- الحياة وفقًا للمبادئ والتخطيط..... ٢٩
٩- الأخلاق العالية ٣١
١٠- زينة الحياة الدنيا ٣٢
١١- الرحمة ٣٣
١٢- الإنسانية في أعلى مراتبها..... ٣٤

الفصل الأول

الزواج

الزواج ٣٧
١- تربية الأسرة..... ٣٧
٢- أهمية المنزل..... ٤٠
٣- الغاية من الزواج..... ٤١

٤- شروط الزواج ٤٢
٥- مبادئ الفطرة في الزواج ٤٨
٦- الفضيلة العليا للأم ٥٦

الفصل الثاني

الأسرة

الأسرة ٥٩
١- كيفية بناء الأسرة ٥٩
٢- الأبوة والأمومة ٦٣
٣- مهام ربّ العائلة ٦٤
٤- مسؤولية الأُبوّة والأُمومة ٧٣

الفصل الثالث

الدقّة في التربية

الدقة في التربية ٨٥
١- علّة الوَهْن ٨٦
٢- وظيفة المرأة ٨٧
٣- الأسبقية للكيفية ٨٨
٤- واجبنا نحو الطفل ٨٩
٥- التخّلق بأخلاق الله ٩٩

الفصل الرابع

التربية الدينية للطفل

التربية الدينية للطفل ١٠٩
١- تربية الطفل من وجوه متعدّدة ١١١
٢- تعويد الطفل على المسجد منذ الصغر ١١٢

٣- الردّ على الأسئلة وإزالة الشبهات منذ البداية ١١٤
٤- الدعاء وأداء العبادة في مكانٍ يتمكّن الطفل من رؤيتنا فيه ١١٥
٥- احترام القرآن الكريم ١١٨

الفصل الخامس

كيفيّة الشرح والتوضيح

كيفيّة الشرح والتوضيح ١٣٧
١- كيفية التطبيق ١٣٨
٢- معنى القراءة ١٤٣
٢- التعريف بعصر السعادة النبوي والرسول الأكرم ﷺ ١٥٠
٤- التعريف بالقرآن الكريم ١٥٤
٥- الحديث عن الحشر ١٥٥

الفصل السادس

أبعاد التربية

أبعاد التربية ١٦١
١- الاستعانة بذكر الصالحين في التعريف بالعمل الصالح ١٦١
٢- الإفادة من العلوم التجريبية في التربية الدينية ١٦٤
٣- إعداد البيئة الصالحة ١٦٥
٤- مواصلة الدقّة في التربية ١٧٥

الفصل السابع

مقارنة بين التربية القرآنية والتربية غير القرآنية

مقارنة بين التربية القرآنية والتربية غير القرآنية ١٨١
١- التربية غير القرآنية ١٨٢
٢- التربية القرآنيّة ١٨٨

الخاتمة

الخاتمة ١٩٧
الطفل..... ١٩٧
الزواج ١٩٨
الأسرة..... ٢٠٠
الوالدان..... ٢٠٠
التربية والشباب ٢٠٢
الصديق الصالح..... ٢٠٤
مصادر ٢٠٦

تقديم

"نحن حصادُ زرعِ السابقين، وستصبح الأجيال اللاحقة حصاد زرعنا وثمرة جهدنا وسعينا".

(فتح الله كولن)

مساهمة في مستقبل الأمة الكبرى

تبوّأَ الأستاذ محمد فتح الله كولن مكانةً متميّزة في الحياة العلمية والفكرية؛ بما أنتجه من مؤلّفاتٍ بعيدة الأغوار تأثرت بها المشاعر وتفاعلت معها العقول، فغدا أصحابها يُنشئون مؤسّسات تعليميّة لا حصر لها على مستوى العالم، ولـمّا عُهِدَ إليّ بإعداد مقدّمةٍ لهذا الكتاب؛ قمتُ بقراءته مرّةً واحدةً من أوّله إلى آخره، فأدركتُ أن هذا الأمر ليس بالسهل اليسير؛ لأن موضوع التربية غزير المواد والمفردات، ولقد تناول الكتابُ إجمالًا معظم المسائل المتعلّقة به، وأُدرجت بعضُ الأفكار القيّمة في إطار الآيات والأحاديث، وليس بالإمكان لفتُ انتباه القارئ إلى المحتوى بأكمله عبرَ مقدّمةٍ صغيرة، ويصعب أيضًا ترجيح موضوعٍ من موضوعات هذا المحتوى على الآخر؛ حيث إنّ جميعها مهمّة، ورغم هذا فقد رأيت من المناسب لفت الأنظار إلى عددٍ من المسائل التي ركّز عليها المؤلّف وكررها بوعيٍ وانتظامٍ، وإلى بعض النقاط التي شعرتُ بأهمّيّتها والحاجة إلى الإشارة إليها؛ بما يتناسب مع أسلوب المؤلّف.

أما الأمر الذي أؤكّد عليه بدايةً فهو أن اسمَ "مِن البذرة إلى الثمرة" الذي عُنونَ به هذا الكتاب الرائع الزاخر بالموضوعات والمسائل الدقيقة لهو اسمٌ متواضعٌ جدًّا، ولذا أريد في مستهلّ الكلام أن أستشير القرّاء في اسمٍ قد خطر على بالي -دون تكلّفٍ واستشرافٍ منّي- عند مطالعتي لهذا الكتاب ورأيت أنه أنسب، وإن لم يُكتب على الغلاف الخارجي؛ ألا وهو "مساهمة في مستقبل الأمة الكبرى"، وإذا ما نظرنا إلى هذا الكتاب على اعتبار أنه مؤلَّفٌ لرجلٍ حركيّ عمليّ يقوم بمشروعاتٍ بعيدة الأجل لخدمة مصلحة الأمّة ومستقبلها؛ عندها نفهم أنّ الاسم المقترح أنسب من اسمه الحالي.

وفي هذا الإطار ليس من الإفراط والمبالغةِ اعتبارُ هذا الكتاب بدايةَ حركةِ تجديدٍ نشِطةٍ على مستوى تركيا على الأقل، ويدعم هذا الاعتبارَ الجملُ التالية التي نصادفها بين عبارات المؤلّف:

> "الأسرة هي أهمّ ركنٍ في المجتمع، وسلامة هذا الركن تعني سلامة الأمّة والدولة، وبناءً على ذلك فلا ينبغي أن نترك هذا الركن الركين للأمة والدولة دون خطّةٍ أو نظام".

وأريد أن أؤكّد مكرّرًا على وجود بونٍ شاسعٍ وفرقٍ واسعٍ بين هذا الكتاب وكتب التربية الأخرى التي لا تنسجم في كثيرٍ من فقراتها مع عالمنا وظروفنا الاجتماعية، وذلك لاكتفاء أصحابها بالاقتباس عن الكتّاب الغربيّين، ولم يستطع أغلبهم استيعابَ مسألة التربية بقدر الكفاية.

والسبب الرئيس في توقُّفنا عند اسم الكتاب في البداية هو محتواه، إذ إنه ينطوي على كثيرٍ من الأفكار القيّمة التي يسهُل على القارئ فهمها واستيعابها، وتدخل ضمن حدود إمكانياته وقدراته.

وأنبّه هنا أن مسألة التربية قد وُضعت بالكتاب في محتوى يتناسب مع ظروفنا وبالصورة التي لا بدّ أن نفهمها، والغاية من التربية كما سيلمس القارئ ليست مقيّدةً بالوصول إلى أشخاص مثاليّين على المستوى الفرديّ والأسريّ، بل إن الغاية الرئيسة كما أوضح الأستاذ فتح الله بعبارته البديعة:

> "ينبغي لكل فردٍ من أفراد الأمّة أن يكون الإسهامُ في إقامة مستقبل أمّته المثالي أحدَ أهدافه المنشودة، وهذا منوطٌ بوجود الفرد المثالي والأسرة المثالية".

وبناءً على هذه الفكرة تصدّر هذا الكتاب بموضوع "الزواج والأسرة"، ثم تبِعَتْه المسائل المتعلّقة بالتربية.

التصنيف

وتصنيف الكتاب أيضًا ملفتٌ للنظر، فمسألة التربية لا تعني تربيةَ الأطفال الذين وصلوا إلى سنٍّ معيّنةٍ فقط، ولا يجب أن ننظر إليها على أنها حادثةٌ منفصلةٌ عن كلّ مناحي الحياة، بل إنها كما ورد في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مسيرة طويلةٌ يتخلّلها كثيرٌ من المراحل بدءًا من الأوصاف التي ينشدها الشخصُ في المرأة التي ستكون أمًّا لأبنائه وحتى الوفاة، هذا ما يقتضيه مفهوم التربية.

وقد تعرض الكاتب في مدخل الكتاب لبعض المسائل العامّة حتى يُقنع القارئ بأهمّيّة وشموليّة مسألة التربية، فعلى سبيل المثال تضمّن هذا القسم الذي يبدأ بـ"مفهومنا الأخلاقيّ" بعضَ العناوين الجانبيّة التي تبدو وكأنّها بعيدةٌ عن بعضها مثل: أسباب انهيار الأمم، والأخلاق العالية، وزينة الحياة الدنيا، والإنسانيّة في أعلى مراتبها... إلخ، أعقبتها سلسلةٌ من المعلومات المكمِّلة لبعضها حول أهمّيّة التربية؛ مدعَّمة بأدلّة من الكتاب والسنة.

ثـم تلا ذلـك فصولٌ تنـدرج ضمن قضايـا التربية ومراحلهـا؛ بعضها أهمّ من الآخر، تجذب الانتباه على قدر أهمّيّتها، مثل: الزواج، والأسـرة، والدقـة فـي التربيـة، والتربيـة الدينيّة للطفـل، وكيفية الشـرح والتوضيح؟ وأبعاد التربية، ومقارنة بين التربية القرآنيّة والتربية غير القرآنيّة.

وبعد هذا الإيضاح اليسير أريد أن أنوّه بمسائل تشكّل أهمّيّةً كبيرةً في هذا العمل.

أهمّيّة الأسرة

يرى الأستاذ الفاضل محمد فتح الله كولن أن الأسرةَ هي أوّل ما يدور بخلـد الإنسـان عنـد الحديث عن التربية؛ لأن الأسـرة "هـي أول محضنٍ وأول مدرسـةٍ فـي التربية والتعليم، فعلى الأبويـن أن يرجِّحا الوقت الذي يخصصانـه لتربيـة طفلهما وتعليمه على أورادهمـا وأذكارهما ووظائفهما الشـخصية"، و"لا بـدّ للتربيـة أن تبـدأ مـن المنزل حتـى يُكتب لهـا البقاء والاستمرارية؛ فلا يُتصوّر مجتمعٌ فاضل دون أن يقوم المنزل على أسسٍ تربوية"، أما إذا كان الأمر متعلّقًا بالجيل الذي يؤسّـس المسـتقبل فليسـت كلُّ أسـرة جديرةً بالقيـام بهذه العملية، لأن "الأجيال المثاليّة تحتاجُ عشًّـا مثاليًّـا فـي البداية"، "والأسـرة هي أهـمُّ ركنٍ في المجتمـع، وسـلامةُ هذا الركن تعني سلامةَ الأمّة والدولة".

ومن هنا تحتلّ المرأة أهمّ مكانةٍ في الأسرة الجديرة بالاهتمام بها، ولذا:

كانـت أولى المسـؤوليات الملقاة على عاتق ربّ الأسـرة هي اختيار رفيقة حياته من "المسلمات، المؤمنات، القانتات، الصادقات، الصابرات، الخاشـعات، المتصدّقات، الصائمات، الحافظات فروجَهن، الذاكرات اللهَ

كثيـرًا"، كمـا يجـب أن يكون الأبـوان ماهرين في التربية، ولديهما شـعورٌ بالمسـؤوليّة الملقـاة علـى عاتقهما عنـد تربيتهما لأولادهمـا، وأن يتزوّدا بمـا يحتاجانـه من معلومـاتٍ تخدم هذه الغاية، فعلـى كل من يبغي الأبوّة أو الأمومـة أن يعـرف أو تعـرف قدرًا ما مِن علم النفـس والتربية، أو على الأقلّ المبادئ التي أوردها القرآنُ الكريم إجمالًا في هذا الصدد...

إذن: يجـب علـى الإنسـان أن يتعرّف إلى سـبل تربية النـشء المثالي المستقيم.

وهذه رسالةٌ للمسؤولين أيضًا في بلادنا، فللدولة أن تسنّ نُظُمًا قانونيّةً تشـترط على المقبلين على الزواج أن يجتـازوا دوراتٍ تدريبيّةً لتزويدهما حـول التربيـة والصحّـة وتدبيـر المنـزل؛ كمـا يحـدث في بعـض الدول الأوروبيّـة، ومـع انتظارنا لهذا مـن الدولة فعلى الأفـراد أن يقوموا بتربية أنفسهم بأنفسهم حتى يتحقّق هذا الأمر، ونعتقد أن هذه التوصيات الواردة بهذا الكتاب ستجد لها صدًى واسعًا يتزايدُ بمرور الوقت.

عددُ الأطفال

ورغـم أنّ الغايـة الأولـى مـن تكويـن الأسـرة هـي دوام النسـل؛ أي إنجـاب الأولاد فـإن الكتاب يذكر أن الأهمّ مـن ذلك هو التعمّق الروحيّ والرقيّ المعنويّ والشـموليّة، وفي هذا ترويجٌ للنسـل الجيّد حتى يترعرعَ على أسـسٍ ومبادئ سـليمة، ومن ذلك قوله: "على المسـلمين أن يهتمّوا بالرقيّ المعنوي والتعمّق الروحيّ وتوثيق العلاقة بالله تعالى"، وهنا يوصي المؤلّف الجميـع بإنجاب أطفال بقدرٍ يسمح لهم بتربيتهم تربيةً مثاليّةً دون الوقوع في ورطة الأرقام والحسابات.

التفكير قبل التربية

ثمّـةَ مسـألةٌ أخـرى تجعل الكتابَ أكثـر إقناعًا وهـو أنّ الكتاب يوجّه القارئ إلى التفكّر الدائم، والمحاكمات العقليّة، والبحث في المسألة عن الأسباب والدوافـع.

والتفكير قبل التربية يعني: التفكير في الجوانب السلبيّة والإيجابيّة في تربية الطفل، وكيف ننظرُ إلى تربية أطفالنا؟ وكيف نُقيّم قضاء الأطفال جلّ أوقاتهم هنا وهنالك حتى سـاعاتٍ متأخّرةٍ من الليل، وهل سـنفتح أبوابنا وصدورنا لهم لو عادوا في أيّ ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ؟

إن مثل هذا التفكير يعدّ بالنسبة للشخص بمثابة محاسبة النفس، فهل حدّثنا أنفسنا بهذه الأسئلة! ونحن الذين لا تكفّ ألسِنَتُنا عن الحديث عن التربيـة، ونبـذل كثيرًا من التضحيات من أجل تعليم أبنائنا؟ وهل هناك قِيَمٌ عُليا نريد أن نلقّنها لأطفالنا، هل تبنّينا ذلك وعملنا عليه؟ هل سألنا أنفسنا هذه الأسـئلة، وهل أعددنا لها أجوبةً؟ فإن لم نكن على اسـتعدادٍ للردّ عند السؤال ألا يُعتبر هذا نقصًا فينا؟

ومما يَلفت النظرَ التنبيهُ إلى هذا الخلل:

"الطبيعة الإنسانية لا تحبّ الفراغ، فإن لم تملأ قلبَ ولدك الفارغ امتلأ قلبه بالآخرين، وعندئذٍ ربما تصبح أبًا أو أمًّا لإنسانٍ ملحد دون أن تشعر".

التربية الدينية

تتبوّأ التربية الدينيّة مكانَ الصدارة في تربية الطفل، ولذا شـغلت حيّزًا كبيرًا في هذا الكتاب الذي ركّز أيضًا على منهج هذه التربية ومحتواها.

فلا بدّ من تعلّم الطفل للقرآن، ولكن دراسة القرآن ليست عبارةً عن ترديد الآيات بألفاظها وعباراتها فقط، بل ينبغي أن يصاحب ذلك الحركيّةُ والتطبيق، كما أنه لا بدّ أن تسوق الطفلَ رغبةٌ داخليّةٌ لتعلّم القرآن وحفظه لا التهديدُ والترويعُ، ويجب ألا يكون تعليم القرآن عبارة عن حفظٍ مجرّد عن الفهم والتفكّر، وإنما يجب أن يقترن الحفظُ ببيان المقاصد الإلهيّة في الآيات، كما "يجب أن يُثار في الطفل حبُّ التطلُّع لتعلّم كتاب الله ﷻ"، وفي هذا يقول الأستاذ كولن: "إنني على قناعة بأن قراءة القرآن بلا خشوع تجعل الإنسان بلا وعي".

وفي هذا السياق جاء التنويه بالأسلوب والمنهج الذي يجب أن يتبعه المعلِّم، فمثلًا جاءت الإشارة إلى ضرورةِ التفرقةِ بين الأعمار عند تلقين المعلومات الدينيّة؛ فالصبيّ في الخامسة عشرة يختلف عن شابٍّ في الخامسة والعشرين، كما تطرّق الكتاب إلى معاملة بعض كبار السن غِلاظِ الطباع في المساجد للأطفال؛ ممّا يجعل الأطفال يرونهم كالزبانية.

أما عن أهمّ رسالةٍ في فصل التربية الدينيّة للطفل فهي تأكيدُ المؤلِّف على ضرورة الاستفادةِ من العلوم الطبيعيّة، ناهيك عن العلوم الشرعيّة التي تُدرّس في المدارس عند التعريف بالله ﷻ، والتفسيراتُ المقنعة التي أوردها في هذا الخصوص.

ويحضّ الكتاب مَنْ يكتبون عن تربية الطفل على اتّخاذ هدفٍ حيويٍّ وإستراتيجيٍّ عظيمٍ لا سيّما في ذلك الوقت الذي باتت فيه الهيمنة لأعداء المقدّسات الذين بغوا وتطاولوا لدرجة أنهم أعربوا على شاشات التلفزة عن استيائهم حتى من ذكر اسم الله في قصص الأطفال، وإننا لنأمل أن يتحرّك أولو الحماسة وفقًا لما تقتضيه هذه الرسالة.

تربية الكبار

ثمّة جانبٌ يتوافق مع غاية المؤلَّف وإن كان لا يتوافق مع اسمه ألا وهو التركيز على تربية الكبار لا الصغار، يعني تربية المربّين؛ وهم الآباء والأمهات، ولو أن الكتاب عُنوِنَ بـ"تربية الآباء والأمهات" لكان هذا أيضًا لائقًا بالمحتوى ومناسبًا له، لكن من يقدر على فهم واستيعاب هذا الاسم؟ فمن يرَون أنّ ما يفعلونه كافٍ لتربية أطفالهم -ومعظمنا من هؤلاء- أو من لا يفكّرون ألبتّةَ في هذا الأمر فقد يعارضون هذه التسمية؛ فيظلّ تأثير المؤلَّف محدودًا، ولكن هذا لم يحدث؛ حيث أقنع المؤلِّف بدايةً الآباء والأمّهات بالمثاليّات التي يجب أن يلقنوها لأبنائهم، ثم أكّد على أنّ القدوة هي أهمّ شرطٍ لتزويد الطفل بهذه المثاليات، وقد شدّد المؤلّف في كلّ فصل تقريبًا على المسؤوليّة التربويّة وترتُّب نجاح التربية على التزام المربي القدوة بتلك التعاليم، وبتعبيرٍ آخر: عالج الكتاب بشكلٍ مجملٍ بعض الموضوعات مثل: كيفيّة تأسيس الأسرة الإسلاميّة في ضوء النصوص الواردة في الكتاب والسنة، وكيف ينبغي أن تكون العلاقة في الأسرة الإسلاميّة بين الأب والأمّ، وبينهما والأولاد، وكيف ينبغي أن تكون الحياة الدينيّة في الأسرة.

أجل، إننا أيضًا نوافق على كلّ ما سبق، فتعليم الكبار يمكن أن يتمّ بشكلٍ نظريّ، أما الصغار فلا بدّ لهم من التطبيق العمليّ، فالنافع لهم هو توجيههم إلى كلّ ما نريد أن نعلّمه لهم من خلال معايشتهم لذلك في ثنايا حياتنا الشخصيّة، وكما هو معلومٌ لدى جميع المربّين؛ التقليد هو الأساس في حياة الطفل، فالتقليد لدى الأطفال يفوق أضعاف أضعاف ما لدى الكبار، فالأطفال يرَون الحسن والقبيح حولهم ويقلدونه، ويدمجونه في حياتهم حتى يصير مَلَكَةً عندهم.

ومن ثمّ نبّه الكتاب على ضرورة أن يكون الآباء والأمّهات الذين يربّون جيل المستقبل؛ قدوةً لأبنائهم في الأوامر الإلهيّة وجميع الجماليات التي أمر بها الدين والتي لا بدّ من تعليمها للطفل مثل: العبادة، والمعاملات الإنسانية، والفضائل الأخلاقية، فضلًا عن ضرورة انتقال الدرس من لسان المقال إلى لسان الحال، وقد كُرّرَت هذه الأمور، وبُيِّنَت بأمثلةٍ من التاريخ.

وقد شبّه المؤلّف مَن لا يستطيع أن يفعّل أقواله في حياته بمن لا تسقط دمعةٌ من عينه ثم نراه يقول: "كلّما ذكرتك يا ربي فاضت عيناي بالدموع الغزيرة"، فهذا "كذبٌ على الله، ومحضُ رياءٍ".

وثمة عبارةٌ للأستاذ فتح الله كولن تُعيننا على كشف سرّ تلك النجاحات التي حققها ونالت تقدير العالم كله وهي:

> "أجل، إن كانت هذه الكلمات ترجمانًا لعالم الإنسان الداخليّ ولَدُنِّه وسلوكيّاته فإن ما نشعر به ونفكّر فيه ونرغب في توصيله للآخرين سيجد له صدًى في نفوس المخاطبين، وإلا...".

وما ينبغي أن ننبّه عليه في هذا الصدد هو: "كما ينبغي أن نكون قدوةً في الإيجابيات، ينبغي كذلك أن نكون قدوةً في الحذر من الوقوع في السلبيات والمحرمات".

المراقبة

ويشدّد الكِتاب على المراقبة باعتبار أنّها من أهمّ المسائل التربويّة الملقاة على عاتق الأبوين، ويوصي العائلةَ بألا تترك الطفل حبلُه على غاربه، بل لا بدّ من مراقبته عن قربٍ وتوجيهه إلى الغايات المثلى التي تنشد تعليمها له، فلا تكفي معرفة الكتب التي يقرؤها أو التعرّف على أصدقائه الذين يرافقهم، بل وحتى تحديدهم له مسبقًا، وإنما ينبغي أن تخيّم روح الدين على كلّ مكانٍ يتردّد عليه الطفل مثل: المكتبة التي

يشتري منها دفتره وقلمه، والخيّاط الذي يخيط له ملابسه، والحلّاق الذي يهذّب له شعره، فينبغي أن يتوفّر في كلّ هذه الأماكن عنصر التذكرة بالله، فضلًا عن إحكام السيطرة على استخدام الأطفال للتلفاز والإنترنت.

علاوةً على ذلك يجب على الأبوين أن يتحرّيا الدقّة في الحوارات التي تجري بينهما أمام الطفل، فيجب أن تدور هذه الحوارات حول المبادئ التي تهمّ الطفل وننشد تعليمها له، وأن تتمحور حول موضوعات متعلقة بالله ﷻ.

إننا في هذه المرحلة التي بات فيها الإنسان بحاجةٍ إلى مزيدٍ من التربية، وفي هذا العهد الذي تُحاك فيه المؤامرات للمشرّدين، ونسمع بين الفينَة والأخرى دعواتٍ تنادي بعدم التدخّل في شؤون الأطفال والشباب، وإطلاق حرّيّتهم حتى غدا الآباء والأمّهات في حيرةٍ من أمرهم؛ تُسعفنا توجيهاتُ هذا الرجل الفاضل الموثوق بإخلاصه وعلمه، وهي توجيهاتٌ تُعدّ بمثابة ماء الحياة بالنسبة لنا وبَوْصَلَة توضِّح الطريق لمن ضلّ في الصحراء.

وإنني على ثقةٍ بأن كثيرًا من المحبّين المخلِصين الذين يحدوهم الأمل إلى تنشئة جيلٍ مثاليّ؛ سيسعون سعيًا حثيثًا لتصحيح مسار حياتهم أوّلًا، لنصل بعد ذلك إلى الهدف النبيل والثمرة المرجوّة.

الوصايا التي تمنح الثقة الكاملة

وثمّة خاصّيّةٌ أخرى جعلت هذا الكتاب متميّزًا عن الكتب التربويّة العاديّة، وهي استخدام المؤلِّف لأسلوب الجزم والقطع فيما يذكره من أفكار وما يوصي به من مبادئ وما يوضّحه من أهدافٍ وما ينصّ عليه من تطبيقات.

أجـل، العبـارات جازمـةٌ لاسـتنادها إلى الآيـات والأحاديـث، وهذه المسألة دعت الأستاذ الفاضل كولن إلى توضيحها في الكتاب حيث قال: "إننـا إن كنّـا قد حتّمنا القول في الحديث عن القيم والمبادئ واسـتخدمنا الجمل القاطعة فهذا يرجـع إلى اعتقادنا بأننا ننظر إلى المسـألة من منظور الكتاب والسنة، وهذا على الأقل يقوّي ظنّنا في هذا الاتّجاه".

وهذه مسـألةٌ مهمّةٌ جدًّا بالنسـبة إلينا، فمن المهمّ بالنسـبة للمؤمن أن يكـون مصدرُ المبادئ والتوجيهات التي سـيثق بها ويطمئنّ إليها مقدَّسًـا، بمعنى أن تكون مسـتنبطةً من القرآن الكريم والسـنة النبوية الشريفة، وإنّنا إذا أخذنـا فـي الاعتبار كثرةَ عدد المحبّين للأسـتاذ فتح الله كولن الواثقين فيه، وأن أغلبهم شـبابٌ يتمتّـع بوعيٍ كبيرٍ ومسـتوًى ثقافيٍّ عالٍ إذا ما عزم علـى شـيءٍ أتمّـه؛ جاز لنا أن نقـول: إن عهدًا جديدًا أكثر تركيـزًا وتنظيمًا سيبدأ في عمليّة التنشئة لجيلٍ مثاليّ.

وإن نشـر هـذا الكتـاب مـع بداية الألفيّـة الثالثة لهو توافـقٌ ذو مغزًى عميق وفألُ خيرٍ إن شاء الله، وإنني شخصيًّا لأشعر بأن صياغة هذه الأفكار الوعظيّـة على شـكل كتابٍ في بدايـة الألفيّة الجديدة بعـد أن كانت تُلقى علـى زمرةٍ محدودةٍ من المسـتمعين في فترة ما قبـل الثمانينات من القرن المنصرم ليحمل لنا رسالةً فحواها:

> "يـا مجانيـن ليلـى؛ أحبّـوا غايتكم المثلـى كحـبِّ المجنون لليلـى، غير أن سـبيل الوصـال بليلى هذه سـبيلٌ مختلـفٌ تمامًا، فدعـوا الجنون وأفيقوا من غفلتكم وأجمِعوا أمركم، وارجعوا إلى المنطق السـليم وإرشاد العلم، مـع الاستفادة والاعتبار بالحوادث التـي وقعت فـي الماضـي القريب، لقـد وثقنا كثيرًا فـي الماضي ببعـض المؤسّسـات والسياسـات واستسـلمنا للدّعـة والخمول، وانخدعنا بالمظهر وأغفلنا المخْبَر، فالآن علينا أن ندرك مسؤوليّتنا

وأن نحقّـق مزيـدًا مـن الاهتمام بتربيـة أطفالنا دينيًّـا وعلميًّا، وأن نجعل من كل بيتٍ مدرسةً".

وإننـي لعلـى ثقةٍ بـأن جموعًا غفيرةً ستسـتوعب هذه الرسـالة، ويبدأ المحبّون المخلصون مرحلةً جديدةً في فعاليّاتٍ ونشـاطاتٍ غايتها القلب والروح.

هل سينجحون؟

لا شكّ في ذلك بإذن الله وعنايته.

إن هؤلاء الأبطال قد بلّغوا صوتَ أمتهم، وحملوا رايتَها التي جعلوها علَمًا من أعلام إعلاء كلمة الله، ومن ثمّ فإنهم سيبلغون أهدافهم بإذن الله، وما أُنجِز دليلٌ على ما سيتمّ إنجازه.

أجـل، إن قدر الحبّ الذي يكنّه عشّـاق هـذا العصر تجاه فكرة إعلاء كلمـة الله ليفـوق أضعافًا مضاعفَةً ذلك العشـق الـذي كان يحمله مجنون ليلى لمحبوبته، إنهم أبطالٌ اكتشفوا شيئًا يُنتج الطاقة ويضبطها ويحدّ منها في الوقت ذاته، ألا وهو قوّة الإرادة.

وإنـي لأرجـو أن يُقـرأ هذا الكتـاب بدقّةٍ بالغةٍ، فلا جـرم أننا إن فعلنا ذلك سندرك أن هذا الكتاب من المقوّمات الرئيسة التي تبني مستقبلنا.

إسطنبول، ٧ يناير/كانون الثاني (٢٠٠٠م)

أ. د. إبراهيم جَانَانْ[١]

---

(١) **أ. د. إبراهيم جَانَانْ** (*Canan*) (١٩٤٠ - ٢٠٠٩م)، كاتب وأستاذ أكاديمي بكليات الإلهيات قسم الحديث في تركيا، ألّف العديد من المؤلفات القيمة خلال حياته العلمية، حصل الأستاذ الدكتور "إبراهيم جانان" على جائزة "الوقف الثقافي الوطني التركي" عام (١٩٧٩م) عن كتابه: "**تربية الطفل في الأسرة والمدرسة وفقًا لنهج الرسول ﷺ**"، تخرّج على يديه الكثير من الطلاب في كليات الإلهيات في مرحلة الليسانس والماجستير والدكتوراه، توفي ﷺ بينما هو في طريق عودته من إحدى المؤتمرات عن عُمر يناهز التاسعة والستين عامًا جرّاء حادثٍ مروريّ مُروّعٍ تعرض له في الرابع عشر من أكتوبر/تشرين الأول عام (٢٠٠٩م)، رحمه الله رحمة واسعة. (المترجم)

مدخل

١- مفهومنا الأخلاقي

إنّ ممّا تدعونا إليه الضرورةُ بدايةً أن نتّفِقَ مع قرّائنا الأعزّاء على بعض الأمور؛ لأنني على قناعةٍ بأن الاستفادة تتعذّر من هذا الكتاب دون الاتّفاق على بعض المسائل الرئيسة.

أجل، هل من الممكن -عند تناول الموضوعات المتعلّقة بالتربية في الأسرة- الاتّفاقُ على المفهوم الأخلاقيّ مع مَن لا يتضجّرون من كثرة المساوئ في وطننا ومدينتنا وقريتنا وبيتنا؟ وماذا عسانا أن نقول إن رضينا بحالنا رغم كلّ شيءٍ، ولم تؤثّر فينا المساوئ المحيطة بنا؟ وهل من الممكن أن نتصوّر فائدةً تُرجى من مدارسة المسائل الأخلاقيّة إن لم ترتجِف قلوبنا، وننفر من الانحطاط الأخلاقيّ الذي نرى فيه أولادنا وأحفادنا وأبناء إخواننا، ومَن نحن لهم بمثابة الخال والعمّ والجار الجنب.

لم يُكتب البقاء لأيّ مجتمعٍ ظهر فيه الفساد على مدى التاريخ، ولا أعلم إن كان في هذا استثناءٌ أم لا، ولكن لا جرم أن الأمم التي حافظت على وجودها مدّةً طويلةً دون أن يجافيها التاريخ كانت تحترم القيم الأخلاقيّة.

٢- أسباب انهيار الأمم

وإذا ما ألقينا نظرةً على الحضارات السابقة نجد أنّ معظم الانهيارات ترجع إلى قارضٍ أخلاقي كالقارض الذي تسلّط على سدّ "إِرَم"، وأحيانًا لا نشعرُ بالمساوئ الأخلاقية وهي تنخر بهدوءٍ في قيم المجتمع، وإذا ما شعرنا بها يكون الزمن قد ولّى، مَثلُها مثلُ السرطان، فكما لا نستطيع غالبًا أن نفطِن إلى وجود السرطان إلا بعد غزوِه المناطِقَ شديدة الحساسيّة في البنية، وبعد أن تبدأ الرحلة إلى الآخرة، فكذلك هذه المساوئ.

نعم، كيفما يفعل السرطان في بنية الإنسان تفعل المساوئُ الأخلاقية في حياة الأمم، فإنْ تغافل رؤساءُ الدول ثم أرباب الأُسَر والمربّون والأمّة جميعًا عن مثل هذا الانحطاط الأخلاقيّ لانهارت الأمّة كلها انهيارًا مدوّيًا، وربما لا يتنبّه البعضُ من الغفلة حتى لو انهارت أركان الأمّة كافّة، ولعل البعض الآخر يرى الأمر طبيعيًّا كالأحياء التي تعيش تحت الأنقاض بحجّة أن هذه هي الحياة.

أجل، إذا ما تطرّقنا إلى الأسباب الرئيسة وراء انهيار الأمم لرأينا بشكلٍ عام:

طَيْش الشباب واستهتارهم، والرغبة في إحياء المشاعر البهيميّة لدى أصحاب نزعات التحرُّر، والانغماس في الشهوات، وابتغاء المجتمع الدنيا ونسيانه الآخرة، والبعد عن الله والإعراض عن القرآن، وانسلاخ القلوب من مشاعر الخوف والمهابة، وانجرار كلّ شيءٍ إلى المادّة.

ومعظمُ هذه العوامل هي السببُ في انهيار العديد من الدول التي من جملتها الدولة العثمانية، وفي حين أننا كنّا نريد التخلّص من الأزمات التي أحدثتها الفراغات المعنويّة إذا بنا نستعين بأمورٍ دنيويّةٍ تزيد من حدّتها، وندخل في دائرةٍ فاسدةٍ، بيد أن المشكلة تنبع من فقدان الأمم لمعنويّاتها

وابتعادها عن القرآن ومبادئ الإسلام ونسيانها لربّها عزّ وجلّ، فأصبح مصدرُ الداء دواءً لمن يبحثون عن دواءٍ لجرحهم العميق.

هذا وإنّ نقطةَ الانحراف معروفةٌ واضحة؛ إذ كان كلّ شيءٍ ينشأ عن الانغماس في المادّة وإهمال المعنى، بيد أن الحياة المادّيّة تُشكّل جانبًا من حياة الإنسان، والحياةُ المعنويّة تُشكّل الجانب الآخر منها، بل جوهرَها، ومثل هذا القصور المعنويّ لا يمكن سدّه بالمادة.

في الواقع أنه يمكن لكلّ شيءٍ أن يحقّق التوازنَ إذا ما تمّ الأخذ بالمادة والمعنى على السواء وفق قدر ومقدار كلٍّ منهما؛ يعني يتحقّق التوازن والنجاح إن وفّينا حقّ الله بما يليق بعظمته سبحانه، وقدرنا القرآن حقّ قدره، ووجّهنا اهتمامَنا وتقديرَنا للدنيا على حسب قيمتها وللآخرة كما يليق بها.

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾ (سُورَةُ القَصَصِ: ٧٧/٢٨)؛ أجل، يجب أن نستغلّ ما أنعم الله علينا به من صحّةٍ وعافيةٍ وثروةٍ وعقلٍ وأن نستعدّ بذلك للآخرة، ولا ننسى في الوقت ذاته نصيبَنا من الدنيا، هذا هو مقياس القرآن الكريم، فلو تحقّق التوازن بين الدنيا والعقبى حسب هذا المبدإ القرآنيّ ما أصابنا هذا القدر من البؤس والتعاسة.

ومن ثمّ أقول إن الضرورةَ تقتضي عند تناول مسألة التربية في الأسرة أن نبحث فيما يمكن الاتّفاق فيه على المبادئ الأخلاقيّة، خاصةً في هذا العصر الذي تَمنع فيه الملذّاتُ الدنيويّة الفردَ من ذكر الله.

تتعرّض كلّ أمّةٍ لفتراتٍ من الازدهار وأخرى من الانحطاط، وإنّما ترتقي بالمبادئ التي ترفع من شأنها، وتتدهور بالعوامل التي تحطّ من

قدرها؛ لأن قوانين الكون تجري في أُطُرٍ جبريّةٍ مشروطةٍ، وبما أن الطبيعة جزءٌ من الكون فقد خلقها الله في الظاهر تابعةً لهذه القوانين الجبريّة، ولذا لا بدّ من مراعاة قوانين الطبيعة والآيات التكوينية، فإن اعتمدتم على غفران هذه القوانين لكم أو على تسامحها وتجاوزها عن أخطائكم، ثمّ قصّرتم في بعض وظائفكم لنبَذْتُكم وقضتْ عليكم. أجل، فلا غفران لدى الآيات التكوينية التي هي قوانين الشريعة الفطريّة، إنها لا تُسامح أو تغفر ألبتّة، فإذا ما أحسنّا اختيار المنهج حسب هذه القوانين رفعَنا الله إلى مرتبةِ أعلى علّيّين، وإن قصّرنا في مراعاة الأسباب تردَّينا إلى أسفل سافلين إلا بفضلٍ من الله ومنّةٍ.

وإن كنّا سنرجع مرّةً أخرى إلى المشكلة الرئيسة فعلينا أن نجيب على الأسئلة التالية: هل أنتم على قناعةٍ بأن هناك عوامل خطيرة وأسبابًا موضوعيّةً وراء فساد الأخلاق؟ وهل تصدّقون حقيقةً بوجود أزمةٍ أخلاقيّةٍ؟ وهل تنظرون إلى حياتكم الفوضويّة الحالية على أنها فسادٌ أخلاقي أم أنها مظهرٌ لوضعٍ عادي؟

٣- تقليد الأمم الأخرى

يقول رسول الله ﷺ **"لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ"**(٢).

إن السبب في انهيار المجتمعات التي ساد فيها الانحطاط الأخلاقيّ يرجع إلى الانخداع بالدنيا، وعدمِ القدرة على تحقيق التوازن بين الجسد والروح، والعجزِ عن كبح جماح النفس؛ ومع الأسف بدأت هذه

(٢) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، ٥٠؛ صحيح مسلم، العلم، ٦.

المشكلة منذ فجر التاريخ، وانتقلت من جيلٍ إلى آخر عبر العصور، ثم ورِثَ الغربيّون هذه المساوئ، فزيّنوها بشيءٍ من فنتازيا الحضارة ونقلوها إلى مقلّديهم، وعلى ذلك يُعدّ هذا الحديث الشريف معجزًا للبيان. أجل، لقد أُوحيَ إلى الرسول ﷺ هذا المعنى وحيًا غير متلوٍّ، ثم صاغه في قالبٍ من الكلمات.

وهنا لا يمكنني أن أنتقل إلى مسألةٍ أخرى دون التطرّق إلى النقطة التالية: عندما ننظر إلى بعض الدول والشعوب نرى أنها مرفّهةً سعيدةً بإمكانياتها المادّيّة، ونحسب أنها قد تجاوزت كلَّ مشاكلها، بيد أن الإنسان الغربي يعيش دائمًا في ضيقٍ واضطرابٍ، ينشد السعادة لكنه لا يجدها، ونسبة الانتحار في الغرب مرتفعة مقارنةً بالأماكن الأخرى، ولا يمكن أن نتصوّر أن هناك أمّةً تعيشُ سعيدةً بينما تشيع وترتفعُ نسبة الانتحار بين أفرادها رجالًا كانوا أم نساءً.

وقد كشف مؤتمرٌ عُقد بـ"الرباطِ" عاصمةِ المغربِ تحت عنوان "تنظيم الأسرة" أن نسبة الطلاق في أمريكا تبلغ ٤٠٪، وربما زاد هذا الرقم في الوقت الحالي، هذه هي أمريكا التي يراها الجميع بأنها أكثر الدول توازنًا بين الأمم المتدنّية أخلاقيًا، قد لا تكون تأثّرت بأراجيف الغرب لحساسيّتها في بعض المسائل، ورغم هذا توجد المشكلة نفسها هناك أيضًا.

٤- المخلوق المكرّم

لا بدّ أن يوجَّه كلُّ شيء ويُسخَّر لسعادة الإنسان، فالإنسان هو خليفة الله في أرضه، سخّر الله له الكون؛ فكان لا بدّ أن تقوم الحضارات من أجله وبغيةَ سعادته، فهو أكرم مخلوق؛ يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ

﴿عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ١٧/٧٠)، ويؤكد "الشيخ غالب"[٣] هذه الحقيقة القرآنيّة فيقول:

أحسِن النظر إلى نفسك فأنت زبدةُ العالم
وقرّةُ عين الأكوان فأنت ابن آدم

أجل، الإنسانُ مخلوقٌ مكرّم في نظر الله تعالى، وكلّ الحضارات وكلّ الأنظمة السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة على الأرض ليست إلا فعاليات للاعتراف بقدره وقيمته؛ فلا قيمةَ ألبتّة للأنظمة إن كانت لا تنشد سعادة الإنسان؛ ولا تعِد البشريّة بأيّ شيءٍ.

٥- الرهبانيّة وسيادة الكنيسة في الغرب

ثمّة بونٌ شاسعٌ بين العالم الإسلاميّ والعالم الغربيّ في هذا الموضوع، فلقد انهارت سلطنة الرهبنة والمسيحية في الغرب بتفوّق العلم، أما الوضع في العالم الإسلاميّ فكان على النقيض من ذلك؛ حيث ازداد التوجّه إلى الدين بالتزامن مع تقدّم العلم.

قبل حركات النهضة والإصلاح في أوروبا فُرضت الضرائب الباهظة على الشعوب التي تقع تحت سيادة الكنيسة، حتى غدا الجميع مضطربًا خائفًا قلقًا على مستقبله بسبب قوانين الكنيسة المتغيّرة على الدوام.

وكان الزعماء الروحانيّون يُضمرون عداوةً شديدةً للعلم، ولا يرحّبون أبدًا بالاختراعات العلميّة التي كان مصير معظمها الرفض دون النظر حتى إلى ماهيّتها؛ وليس بقليلٍ مَن حكمت عليهم محاكم التفتيش بالأشغال الشاقّة المؤبّدة بسبب هذه الاختراعات والابتكارات المختلفة!

---

(٣) **غالب محمد أسعد دَدَه** (١٧٥٧-١٧٩٨م): أحد كبار الشعراء الأتراك الذين عاشوا في الحقبة الأخيرة من عهد الشعرِ الكلاسيكي، نظمَ أشعارًا صوفيّةً مستخدمًا لقب "أسد" أو "غالب"، وله دواوين ومؤلّفاتٌ عديدةٌ، منها "الديوان" و"الحُسن والعشق" و"شرح جزيرة المثنوي" و"الصحبة الشافية". (المترجم)

ولم يكن للناس القدرة على الاعتراض على هذا المفهوم القمعيّ، بل لم يكن بوسع معظمهم -باستثناء قلّةٍ من الأرستقراطيّين- الحديثُ عن قمع الفقراء وحقوق المرأة التي كانوا يعتبرونها في محالّ العمل نصفَ إنسانٍ فلا تأخذ من الأجر إلا نصفه، وبناءً على هذا حصلَ لدى معظم شرائح المجتمع امتعاضٌ ونفورٌ من الدين.

وبسبب هذا النفور العام تهاوى بشدّةٍ كلّ ما يتعلّق بالكنيسة بمجرّد قيام الحركات الإصلاحيّة في شتّى الأماكن؛ وتبع ذلك انهيارٌ تامٌّ للقيم الأخلاقيّة.

٦- العلاقة بين الدين والدولة في الإسلام

لم يخِبْ أملُ أيّ عالِمٍ في العالم الإسلاميّ؛ فلم يكن الدين يمارس أيَّ قمعٍ على الدولة أو الشعب، فالقوّة دائمًا مع الحقّ، والأمراء في خدمة الخلقِ، حتى إن الحكّام المسلمين كانوا يُذعنون لأيّ كلمةٍ تُقال في سبيل الحقّ، بل كانوا يُبدون تلهّفهم إلى تقبّل الحقّ.

وإنّ ما جرى بين السلطان "محمد الفاتح" و"خضر شلبي" ﷺ ليُعتَبَرُ واحِدًا من النماذجِ الكثيرة التي تُبرهن على صحّة هذا الأمر(٤).

(٤) يُروى أنّ معماريًّا غير مسلم شارك في بناء "جامع الفاتح" الذي شُيّدَ في عهد السلطان "محمد الفاتح"، فقام هذا المعماري ببعض أعمال البناء وفقًا لرغبته الشخصيّة مخالفًا في ذلك تناسبَ الجسم العمرانيّ متجاهلًا أوامر المهندسين والقائمين على شؤون البناء، فلمّا علم السلطان محمد الفاتح بذلك أمر بقطع يده جزاءً له ونكالًا، وإذ بالمعماريّ يرفعُ دعوى قضائية ضد السلطان يعترض فيها على هذا الحكم السلطانيّ، فكان القاضي في هذه القضيّة "خضر شلبي"، فاستدعى كِلا المتخاصمين ليمثلا أمام عدالة المحكمة، وفعلًا حضر كِلاهما أمام "خضر شلبي" فاستمع لأقوالهما دون محاباةٍ للسلطان ولا مُطلٍ للمعماري، ثمّ أصدرَ حكمه بقطع يدِ السلطان الفاتح، فأخذتِ الحيرةُ والدهشةُ قلبَ ذلك المعماري، وتنبّه إلى مبدإ العدل والحقّ في الإسلام فكان ذلك سببًا في اعتناقه الإسلام، وقام بالعفو عن السلطان، وبعد انتهاء المحاكمة حدث أمرٌ جللٌ أذهل جميع الحاضرين؛ حيث أخرج السلطان الفاتح كرةً حديديّةً مصمتة بها نتوءات وأظهرها للقاضي "خضر شلبي"، وقال له: "لو لم تحكم بما أنزل الله لكنت ساحقًا رأسك بهذه"! فأخرج القاضي خنجرًا كان يُخفيه، وأظهره للسلطان، وقال له: "وأنت يا مولاي لو لم ترضَ بما قضيتُ لقطّعتُ جسدَك إربًا إربًا بهذا الخنجر". (المترجم)

وقد كان الخلفاء الراشدون من أمثال سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ وعلي بن أبي طالب كرّم الله وجهه يتحاكمون مع يهوديٍّ أمام القاضي، وبما أن القوّة كانت مع الحقّ دائمًا فلا مجال إذًا للجبروت أبدًا كما وقع في الغرب، ومن ثمّ لم يحدث لدى أيّ شخصٍ امتعاضٌ أو نفورٌ من الدين، فالحياة التي ينشدها الآخرون في "الطوبيا"(٥) قد صارت حالًا واقعًا في هذا العالم الإسلاميّ.

٧- المبادئ الأخلاقية

ما الذي نستحسنه وما الذي نستقبحه؟ كيف نُفكّر في تربيتنا لأطفالنا؟ وهل هناك خطّة أو هدف وضعناه للقيام بهذا الأمر؟

كيف نُفكّر في تربية أبنائنا؟ نقول: "إنني أريد أن يكون ولدي هكذا؟"؛ فماذا فعلنا من أجل تحقيق ذلك؟ كيف نرى تسكّع الأبناء هنا وهنالك إلى ساعة متأخّرةٍ من الليل؟ هل سنفتح أبوابنا وصدورنا لهم إن جاؤوا في أيّ ساعةٍ من ليلٍ؟

ما الأفعال التي نتقبّلها من أطفالنا وإلى أيّ حدٍّ؟ وأيُّ الأفعال نَصفها بالأخلاقيّة أو غير الأخلاقيّة؟ وما الأفعال التي نستحسنها فيهم ونستقبحها منهم؟ وإلى أي حدٍّ سنسمح لهم فيما يفعلون؟ وعلى أيّ قاعدةٍ نعتمد في مسألة التدخّل في أزيائهم؟

هل فكّرنا حتى الآن فيما نفعله إن لم نرتضِ شأنًا من شؤونهم؟ هل عثرنا على حلٍّ لهذا؟ كم من الأبواب طرقنا، وإلى كم من المتخصّصين لجأنا؟ وكم من الدمع سكبنا في سبيل البحث عن حلٍّ؟

(٥) الطوبيا: المدينة الخيالية المثالية، أو هي: كل فكرةٍ أو نظرية تسعى إلى المثل الأعلى ولا تتّصل بالواقع أو لا يمكن تحقيقها.

إن هـذا الموضوع يعنينا كما يعني أقاربنا وجيراننا بل وكلّ أمّتنا، لكن هل سعينا كي نصِلَ إلى حلٍّ في الحقيقة لكلّ هذه الأمور؟

فـإن لـم تكن لدينـا خطّةٌ أو هدفٌ في هـذا الموضوع فهـذا يعني أننا أصبحنا -كما ذكر النبيّ ﷺ في حديثه السالف الذكر- نتبـع سننَ مَن قبلنا شبرًا بشبرٍ وذراعًا بذراعٍ، فانسقنا إلى جهنّم وبئس المصير.

والواقـع أن كل هـذا يرجـع إلى ابتعادنـا عن الله تعالى ورسـوله ﷺ والقرآن الكريم وخضوعِنا لأهوائنا ورغباتنا.

إن كثيـرًا من الآبـاء يعانون اليوم من بعض أولادهم، فيا تُرى ما الذي فكّرنا فيه لمعالجة أخطائهم؟ لا تُقَلِّلوا من أهمّيّة التفكير في هذا الأمر.

أجل، لا بدّ لنا أن نفكّر هكذا، ونرجـع إلى أنفسنا ونطرح هذا السؤال: ماذا يمكن أن نفعل حقًّا في مثل هذا الأمر؟ فيا ترى هل نحن متسامحون أو جُفاةٌ أو غيرُ مبالين؟ هل نكتفي بمشاهدة ما يجري في بيوتنا في صمتٍ وتبلّدٍ للشعور؟ أم نبحث عن حلٍّ لكل صغيرةٍ وكبيرةٍ في البيت؟

يمكننـا أن نُطنِـبَ فـي هذا المضمـارِ فنطرحَ على أنفسـنا تسـاؤلاتٍ أخرى، نحو: هل تتبّعنا طفلنا كالحارس الأمين؟ وهل بذلنا جهدًا للتعرّف على أصدقائه؟ وهل اسـتطعنا أن نمهّد له الجوّ المناسب دائمًا؟ وما نوعيّة النـاس الذيـن عرّفنـاه بهـم حتـى الآن؟ فإن لم نفعـل هذا فمـع مَن يلهو ويلعب؟ هل يكفي أن نسـجّله بمدرسـةٍ أو نعهد به لمعلّمٍ أو نلحقه بدورةٍ لحفظ كتاب الله تعالى؟ وهل يكفي أن ندلّه على المسجد، ونسلمه للإمام؟

ولا تقـل أهمّيّة البحث عن جواب هذه الأسـئلة المتداخلة عن أهمّيّة قيام حياتنا الذاتيّة على النظام والعمق والإخلاص والمثابرة والجاذبيّة.

٨- الحياة وفقًا للمبادئ والتخطيط

من المهمّ أن نجعل لحياتنا مبادئَ نسير عليها منذ البداية. أجل، علينا أن نقول في أنفسنا: "يجب أن أخطّط لهذه السنة على هذا النحو، وللسنة القادمة على هذا الشكل، وللسنة التي بعدها على هذا المنوال"، فإن فعلنا هذا لألفينا أمامنا دائمًا ما هو معلومٌ لنا من الخطط والمشاريع، واتّخذنا القرار الصائب بسهولةٍ ويسرٍ، وما وقعنا في حيرةٍ من أمرنا، ولكن إن لم نضع لأنفسنا مبادئ وخططًا بشأن المستقبل فعلينا أن نتأهّب للانجراف -مذهولين- من الغد إلى المجهول، تخيلوا أنّ هناك أمورًا متراكمةً مجهولةً داهمت حياتكم فجأة، عند ذلك هل ستأخذون في الصراخ والعويل؟ أو أنكم ماذا ستفعلون! إذًا لا بدّ أن تُعِدّوا العُدّة حتمًا قبل وقوع كلّ هذا.

فلننظر الآن إلى حال العالم الإسلاميّ الذي يبلغ مليارًا ونصف مليار مسلم، وعندها سنرى أن الأبناء والأحفاد يحترقون في نفس الفرن الذي شُوِي فيه الآباء، وفي نفس النار التي اكتووا هم بها، وبينما يحترق أحدهم ترى الآخر ينظر إليه في غاية اللامبالاة، وفي حين أن الأمّة أو الأمم تغوص في الوحل نفسه نجد الآخرين ممّن يأتون بعدهم يسيرون على منوالهم تمامًا بلا وعيٍ فيغوصون في نفس المستنقع الوخِم، ويتجرّعون نفس البؤس المرير، ولا يَبقَون في أذهان البشر إلا كذكرياتٍ بغيضةٍ.

يقول النبي ﷺ في معرض الإخبار والإنذار كما سردنا آنفًا: "**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**"(٦).

(٦) سبق تخريجه في ص ٢٤.

يمكن أن نستنبط من هذا الحديث تحذيرًا فحواه: "خذوا حذركم، وانتبهوا، وسيروا كما لو أنكم تسيرون في حقل ألغامٍ، واحتاطوا فلربّما ينفجر فيكم لغمٌ في أيّ لحظةٍ".

وهنا نتوقّف عند هذه الأبيات الشعريّةِ المثيرة للشجون التي نظمها شاعر الإسلام المرحوم "محمد عاكف"(٧):

انسلخ الحياء وسقط، حتى دخلت الوقاحة كلَّ خاص وعام
كم من وجوهٍ قبيحةٍ كان يسترها ذلك الرقيق من اللثام

انعدم الوفاء، وضاعت حرمة العهد، وأصبح لفظ الأمانة بلا مدلول
الكذب رائج، والخيانة في كلّ مكانٍ، والحقّ مجهولٌ

والقلوب قاسيةٌ، والآمال سافلة، والمشاعر دنيّة
وتتجّه الأعين إلى عباد الله بنظراتِ استحقارٍ قويّة

الأجساد تقشعرّ يا ربّ ما أفظع هذا الانقلاب!
لم يعد دينٌ ولا إيمان، فالدين خرابٌ والإيمان تراب

تلاشت المفاخر، وخرست الضمائر
لم يعد هناك استقلال والأخلاق في اضمحلالٍ ظاهر

أجل، لم تنتشر الفوضى واضمحلال الأخلاق في مكانٍ واحدٍ، بل عمّت كلّ الأماكن، حتى إنّ مَن ينزعجون من هذا باتوا -بتأثير إشعاعاتها- متبلّدي المشاعر، وكأنهم لا درايةَ لهم بما يجري.

(٧) **محمد عاكف أَرْصُويْ** (١٨٧٣- ١٩٣٦م): هو من أساطين الشِّعرِ التركيّ، وهو كاتب نشيد الاستقلال التركي، وهو ذو خُلُقٍ رفيعٍ وسَمتٍ حسَنٍ يتخذه كثيرٌ من الأتراكِ قدوةً لهم، إنه رجلُ فكرٍ ومعرفة، وإن كتاباته وترجماته لتحفل بالفوائد الجمة والخدمات الكثيرة. (المترجم)

٩- الأخلاق العالية

يقول سيدنا رسول الله ﷺ "**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ**"(٨).

إنّ نِعَـمَ الله علينـا لا تُعدّ ولا تُحصى، ولقد زُوِّدنا بقابليات ومؤهّلاتٍ تُمكّننـا مـن اتّخـاذ موقعنا بين سـاكني الملإ الأعلـى، وإن تقدير الألطاف الإلهيّـة التـي وَهبها لنا ربُّنا ﷻ لهو مـن مقتضى تعظيم الله تعالى، واحترامِ ذاتنا المزوّدة بالعديد من الطاقات الكامنة.

إن الكتب الإلهيّة هي صدى هذه الرسالة ونَفَسُها، والأنبياء هم أصدق ممثّليـن لهذه الحقيقـة، أما الحلقة الأخيرة في هذه السلسـلة الذهبيّة فهي النبي محمد ﷺ، وهو أسطـعُ برهانٍ لهذه الحقيقة، وأعظمُ سلطانٍ للأخلاق العالية؛ يقول الله تعالى في سورة القلم مشيرًا إلى عمق أخلاقه ﷺ وسعتها: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ (سُورَةُ القَلَمِ: ٤/٦٨).

١٠- زينة الحياة الدنيا

يقـول الله تعالى في سـورة الكهف: ﴿**اَلْمَـالُ وَالْبَنُونَ زِينَـةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَـاتُ الصَّالِحَـاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًـا وَخَيْرٌ أَمَلا**﴾ (سُـورَةُ الْكَهْفِ: ٤٦/١٨)، تشدّد الآية الكريمة عامّةً على أن المال والبنين زينةُ الحياة الدنيا وزهاؤها، وأن لها موقعًا لا يسـتهان به. أجل، إنها تابعة للوجه القبيح الفاني للدنيا، وهذا الوجه ينظر إلى الدنيا نفسها، وهو وجهٌ ذابلٌ متراخٍ فاسدٌ يبعث على الضيق والإزعاج(٩).

وهذا يعني أن المال في حدّ ذاته ليس بشـيء يُفتخر به، والولد كذلك ليـس ممـا يُفتخـر به في نفسـه، غير أنهمـا إن وُجّها إلـى الله وإلى الآخرة

(٨) مسند البزار، ٣٦٤/١٥؛ البيهقي: السنن الكبرى، ٣٢٣/١٠.

(٩) وللدنيا وجهان آخران ينظر أحدهما إلى أسماء الله الحسنى باعتبار الدنيا مَظهَرًا للأسماء الحسنى، والوجه الآخر ينظر إلى الآخرة من حيث إن "الدنيا مزرعةُ الآخرة"، وكلا هذين الوجهين حسن.

وصلا إلى قيمةٍ تفوق كلَّ القيم، ودخلا في صنف الباقيات الصالحات، فإن حدث هذا صارا في الآخرة أشجارًا باسقة تعلن عن نفسها بثمارها، رغم أنهما كانا بذرةً في الدنيا.

إن هذه الأمور التي حاولتُ أن أنوّه بها ما هي إلا مبادئ وضعها لنا القرآن الكريم؛ تحدّد لنا المنهج الأقوم، وتهب الحياة لأرواحنا، وهي كامنةٌ في صيدليّة القرآن الكبرى، وفي النظام الذي نسجه الرسول ﷺ بيديه الميمونتين المباركتين وهو السنة النبويّة، وإن استمداد الحياة من القرآن والسنة والإنصاتَ لصداهما العلويّ لهو محض اختصاصٍ من الرحيم ﷻ.

١١- الرحمة

يشير القرآن الكريم إلى ضرورة أن يستعين الناس برحيميّة الله عندما تعترضهم أيّ مشكلةٍ كما ورد في قصة أيّوب عليه السلام: ﴿**وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ٢١/٨٣). أجل، فالاستعانة برحمانية الله ورحيميّته هي بمثابة طلب العون منه لأنفسنا وعائلاتنا وأولادنا -الذين أطلقناهم في الشوارع- وأقاربنا، وإعلانٌ كذلك عن عجزنا وضعفنا، واعترافٌ وتسليمٌ بأنه ﷻ بيده مقاليد كلّ شيء، فضلًا عن ذلك فالمرحمة في الوقت ذاته وسيلةٌ لجلب الرحمة، فالراحمون يرحمهم الله، فإن كنّا على وعيٍ تامّ وحساسيّةٍ بالغة إزاء التفسّخ والتفلُّتِ وفساد الأخلاق صان الله وحمى كلَّ ما يمكن أن يتعرّض فينا للفساد.

يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**اَلرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، اِرْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**"(١٠).

(١٠) سنن أبي داود، الأدب، ٥٨؛ سنن الترمذي، البر والصلة، ١٦.

ليس الموت الحقيقيّ الموت الذي نعرفه ولا المصيبة الكبرى هي المصائب التي يمكن أن تقع كحوادث الطرق وغيرها، إنما هما غفلةُ الإنسان عن نفسه، وتبلّد شعوره، وموته في عالم القلب والمعنى.

نعم، إن أعظم البلاء ألّا يستطيع المرء أن يفطن إلى الحريق داخل بيته، وأن يظلّ بلا حسٍّ أو شعورٍ إزاء ما أصاب ولده من فسادٍ وعفنٍ.

فإذا كان الوالدان لا دراية لهما بالحريق المعنويّ في بيتهما فما أعظمها من تعاسةٍ، وما أشدّها من غفلةٍ، وما أكبرها من ضلالةٍ، فمهما بكى مثل هؤلاء على حالهم فلا يكفي، لأنّ البكاءَ أيضًا يحتاج إلى قلب يشعر.

١٢- الإنسانية في أعلى مراتبها

الانحطاط الأخلاقيّ هو أفظع المصائب، من أجل ذلك نرى أن المبادئ الأخلاقيّة للقرآن الكريم هي أنجعُ علاجٍ لأناسي اليوم الذين تتغلّب عليهم الأزمات النفسية.

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۞ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ (سُورَةُ التِّينِ: ٩٥/٤-٦).

ويمكن أن نستنبط من هذه الآيات المعنى التالي: إنّا جعلنا الإنسانَ في صراعٍ مع نفسه على الدوام، فإن تردّى أحيانًا أو وقع سرعان ما ينهض ويحلّق بجناحي الإيمان والعمل الصالح، ويرتقي إلى الإنسانيّة في أعلى مراتبها.

إنّ هذه الآيات تسعفنا، وتشدّ من أزرنا، وترقى بنا إلى أعلى مراتب الإنسانيّة. أجل، إنها تخلّصنا من العجز والوهن، ومن السقوط والانحطاط والتردّي إلى أسفل سافلين، وترقى بنا إلى أعلى علّيّين.

وسـنحاول في الفصول التالية عرض الرسائل النورانيّة للقرآن الكريم حول هذه المسائل.

الفصل الأول

الزواج

الزواج

١- تربية الأسرة

تناولنا في المدخل بعضَ القضايا التي كان لا بدّ أن نتفق عليها ونمعن التفكير فيها، وقد حاولنا لفت الأنظار إلى هذه القضايا التي ينبغي للجميع التوقف عندها، والتفكير فيها بطرح بعض الأسئلة مثل: ما رأيكم في الحال العام؟ كيف تحللون الأحداث التي تجري حولكم؟ ما موقفكم من السلوكيات غير الأخلاقية التي لا ترضونها؟ هل فكرتم في إيجاد حلّ للمشاكل الأخلاقية؟

فإن كنا لا نستسيغ هذا الوضع الراهن في دنيانا، أو كانت بعضُ المفاسد تخترق صدورنا كالرمح، أو كنّا مستائين ممّن يقوم بهذه الأعمال غير الأخلاقية، فما الرأي وما العلاج الأمثل لهذه المشاكل في ظنّنا؟ أجل، لا بدّ من الإجابة على كلّ هذه الأسئلة.

إن تركَ الصلاة والاستهانة بها، والإعراض عن الصيام واستصعابه، والتسكّع في الشوارع والتجوال هنا وهناك كلّ ذلك يُناقضُ أخلاقَ المؤمنين، وإن كان البعض قد يرى أنها من مستلزمات الحرية، ومن ثمّ فإننا سنحاول كشف اللثام عن مفهوم كلٍّ من: الأخلاق، وعدم الأخلاق، والتربية؛ مستنيرين في كل ذلك بضوء القرآن الكريم، ومبادئه القويمة.

إنّ الركيـزة الأهـمّ فـي بنـاء الأخـلاق هي الإيمـان والعقيـدة، ولكن ليـس الأمر اعتقادًا فحسـب، فالعقيدة إن لم تُدعّـم بالتطبيق العملي، ولم يسـلك الإنسان طريقًا يقتضيه إيمانه فستظل العقيدة مجرّد قناعة ليس إلا؛ وهذا أمرٌ يجعل العقيدةَ غير موجِّهة للفرد ولا مؤثِّرة في حياته الشـخصيّة والأسريّة والاجتماعيّة.

والحـقّ أن الإيمـان مصـدرٌ للقـوة والنـور، والكفر مصـدرٌ للضحالة والخواء، لكن الإيمان الحقيقي لا تظهر قوته إلا بالعمل، ويتعسـر لمن لا إيمـان له أن يكـون نافعًا لمجتمعه، والنافعون منهم قلّـة قليلة جدًّا، فمثلًا هنـاك مَـن لا يؤمـن لكنه عفيـف، وإذا مـا نظرنا إلى هذا الأمـر من حيث معاييرنا الأساسية، فلا أدري هل يعد هذا الشخص من الفضلاء أو لا؟ لأن الفضيلة الحقّة هي التي تعتمد أصلًا على الإيمان والشعور بالمحاسبة.

أجـل، إن الإيمـان بالله والملائكة والرسـل والكتب السـماوية واليوم الآخر والبعث والنشـور والجنـة والنار والقَدَر؛ مـن العناصر المهمة التي تنظم حياتنا وتصل بنا إلى مستوى الملائكة، وتكفل لنا معيشةً قائمة على النظام والتوازن، ومن الأهمية بمكانٍ أداء ما يقتضيه الإيمان بهذه الأمور.

إن الآخرة مَحكَمةٌ لمحاكمة ما في الدنيا، ومكانٌ للسؤال عمّا إذا كان العبد قد أدّى شكره لربه ﷻ الذي خلقه إنسانًا في أحسن تقويم أم لا.

ففـي الدنيا حشـودٌ من الظالمين والجاحدين ومـن يصرّون على عدم إدراك حكمة الله تعالى وتجاهل آثاره المعروضة والبادية للعيان، بل هناك مَن يغمض عينيه ويتجاهل الكثرة الكاثرة من الجماليات الظاهرة؛ وهؤلاء لهم أعين لا يبصرون بها، وآذان لا يسـمعون بها، وقلوب لا يفقهون بها؛ رغـم التناغـم والوئام فيما بيـن الآلاف من الألـوان والأصوات والنقوش واللهجات.

وهؤلاء يبعثهم الله تعالى هم والمؤمنين ويعدّ لهم الجنة والنار، ويشرِّف الصالحين الفضلاء بدخول جنّته، جزاءَ ما قاموا به في الدنيا من فضيلة وكمال، حيثُ بلغوا أعلى مرتبةٍ في كمال الإنسانية، وعاشوا منفتحين على الحياة القلبية والروحية وفي شوقٍ إلى بلوغ المعالي والكمالات.

أجل، إن المؤمن يفكر هكذا، وينظّم حياته وفقًا لذلك، ولذا لا بدّ أن تكون عقيدة الفرد والمجتمع متينةً جدًّا حتى تحفظهما قوة الإيمان من شتّى الأحاسيس المضلِّلة.

فلا خير يُرجى من عائلة أو مجتمعٍ أو أمة تتشكّل من أفرادٍ مذبذبين بين الإيمان وعدمه، على الناس بداية أن يكون إيمانهم بالآخرة -وهي غد الدنيا- أشدَّ من إيمانهم بغدِ أيامهم؛ حتى يكونوا قريبين من ربهم نافعين لمجتمعهم.

أجل، كما يحمل الإنسان همّ الجوع إن لم يعمل، فعليه أيضًا أن يؤمن بأنه إن لم يحسن العمل ولم يقم بمقتضى ما يقرره إيمانه في شؤون حياته فسيحاسبه الله حسابًا عسيرًا، والفردُ الذي يعتنق مثل هذا الإيمان يتجه إلى الأعمال الصالحة بقوة الدفع المركزية التي يشكّلها إيمانُه، ويبذل وُسعه للوصول إلى ربه عفيفًا طاهرًا.

وسنتناول في فصلٍ مستقل موضوعَ الأُسر التي تتكون من أفراد كهؤلاء، وسنتناول أيضًا التوجهات المختلفة للأسرة، وكيفية تحلية الشباب والصغار داخل الأسرة بالأخلاق الإسلامية العالية، وهذا في ضوء الآيات الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة.

﴿**اَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ (سُورَةُ الْكَهْفِ: ١٨/٤٦)، فلو أحسنّا استغلالهما لكانا لنا الزاد والعتاد إلى الآخرة، فبهما يهيّئُ الله تعالى قلوبَ الناس للسعادة والسرور، ويجعل منهما زينةً للعين وغذاءً للقلب، وكلما

رأى الإنسان هذه الزينة أحسّ بسعادةٍ دنيوية في حياته، وسعادةٍ أخروية في مآله، غير أننا إذا لم نسعَ إلى تخليد هذه الزينة فإننا نكون قد فوتنا على أنفسنا السعادة، فما من سعادةٍ نشعر بها إلا وتشوبها مرارة العيش.

أجل، قد يُزعجكم أولادكم وأحفادكم ودنياكم، لكن إن سعيتم إلى تخليد هذه الزينات، وأحسنتم رعايتَها من أجل مَن منحها لكم جلّ وعلا، وطوّرتموها واستخدمتموها في سبيله تعالى وفي الطريق الذي يريد، فستجدون البداية في كل نقطةٍ تظنونَها النهاية.

إن كلَّ زينةٍ وأُبَّهَةٍ وعظمةٍ فانيةٌ زائلةٌ بزوال الحياة الدنيا، بيد أنها ستتدثر بأروع الأشكال مع بداية العالم الآخر وتستمر هنالك.

٢- أهمية المنزل

إن كمالَ أي أمة أو مجتمع يبدأ من الأسرة، ومن المنزل الذي أقامه الزوجان وتعاونا على تأسيسه، ولذا لا بدّ للتربية أن تبدأ من المنزل حتى يُكتب لها البقاء والاستمرارية؛ فلا يُتصوّر مجتمعٌ فاضل دون أن يقوم المنزل على أسسٍ تربوية. نعم، السياسة القويمة للتربية والتعليم مهمة في تنشئة إنسان نموذجي، إلا أن المنزل سيظلُّ يحافظ على أهميته وحيويته دائمًا بما يزوّد به الطفل.

فإن توفرتْ للعقول التغذيةُ السليمة في المنزل ولا سيما في طور التغذية اللاشعورية، فقد تُبدي -بشيء بسيط من النصح والتنبيه- سلوكًا يُبهرنا ما لم تتعرض لعواصف معاكسة، وذلك بفضل المكتسبات اللاشعورية التي حصلتها في صغرها.

أجل، النجاح في المنزل هو مرحلة أولية للنجاح في الحياة العامة، وهذه المرحلة مرهونة بالزواج القائم على أسس سليمة.

٣- الغاية من الزواج

الأسرة ليست كما يفهم بعض الكتّاب مصنعًا لتوليد الأطفال، وليست آلةً للتفريخ أو لإشباع الرغبات الجسمانية، إنما هي النواة الأولى للأمة وأهم جزء في المجتمع، وهي مؤسسة مقدَّسة أبرز معالمها النكاح، والنكاح ميثاقٌ له هدف وغاية؛ وهو يعني اقتران اثنين بعقدٍ مشروع في إطار مبادئ معينة، أما الاقتران الذي تنعدم فيه قواعد النكاح فهو سفاح وزِنًا في شرع الله ﷻ.

والدينُ يجعل الاقتران المشروع بالنكاح ركنًا وأساسًا وقاعدةً للأمة الصالحة، بل إن الاقترانات المشروعة مرهونةٌ بغاية معينة، فحري بالمسلم أن يكون بالغَ الدّقة في مسألة الزواج؛ لأن الزواج العشوائي الذي يخلو من المقصد والهدف يُقوِّض الضوابط المشروعة.

أجل، لا بدّ أن يهدف الزواج إلى تنشئة جيلٍ يرتضيه الله تعالى، ويسعد به الرسول الأكرم صلوات ربي وسلامه عليه.

أما إذا فقد الزواج الغاية والهدف فهو ممحوقُ البركة، شأنه كشأن الأعمال التي تخلو من النية، وأيّ اقترانٍ يشبه الزواج، ويخلو من الغاية ولا يحاط بسياج من الإيمان ولا يكترث إلا بالمظهر الخارجي فقط؛ فكثيرًا ما ينتهي بعدم التوافق وصعوبة التعايش، فضلًا عن انعدام البعد الأخروي، وخاصة إن اقترن اثنان أحدُهما مؤمن والآخر لا يؤمن بالله ولا بالقرآن ولا بالرسول ﷺ، فلا مناص من وقوع خلافات فكرية ودينية، وظهور أفكار متناقضة من حيث الإيمان وعدمه، وتناقضات لا يمكن التخلص منها.

والزواج الهادف هو الذي يقوم على العقل والمنطق إلى جانب الحسّ والعاطفة، فإن ارتبط الزواج بغاية وهدف عمّت الأسرةَ الطمأنينةُ

والسكينة، أما إن لم يراع الهدف في الزواج فلا جرم أن النتيجة هي وقوع الكثير من المشاكل، وسيادةُ القلقِ والاضطرابِ الدائمِ على أفراد الأسرة.

لقد شرع الله الزواج وحثّ عليه، وربطه في الوقت ذاته بالهدف والغاية، وفي الواقع لا بدّ أن يتّخذ الإنسانُ غايةً له في كل أموره وسلوكياته؛ حتى يصمد في أعماله ومشروعاته في سبيل الوصول إلى الهدف الذي ينشده، وإن لم يتخذ غاية لحياته لم يستطع أن ينظّم وقته، أو يصل إلى أي هدفٍ ألبتة، وإن شئتم فسمُّوا هذا منهجًا أو مبدأً أو غائيّة.

والحق أننا إن لم نتشبث بالغاية في سلوكياتنا وأفعالنا لضيّعنا قدرًا كبيرًا من حظّنا في النجاح.

٤- شروط الزواج

عُني الدين الإسلامي بمسألة الزواج عنايةً كبيرة تفوق جميع التصورات، وبناءً على ذلك فقد أولى فقهاء الإسلام هذه المسألة أهمية كبرى؛ فكتبوا حولها العديد من المجلدات، ودرسوها بدقة وعناية بالغة، وقسموا الزواج إلى واجبٍ وسُنّةٍ ومباح ومكروه وحرام؛ وربطوه بالوضع الخاص للأشخاص؛ وهذا يعني أن الإنسان لا ينبغي لهً أن يتزوّج عشوائيًّا كيفما اتّفق، بل إن الزواج قد يكون للبعض واجبًا، وللبعض الآخر حرامًا... وهكذا.

وعلى ذلك فإن مَن ينشد مِن زواجه إشباعَ رغباته الجسمانية فقط فهل يُنتظر منه أن يهبَ المجتمع ولدًا صالحًا أو أسرةً نافعة؟ هذا أمرٌ مشكوكٌ فيه!

وتتقارب آراء الفقهاء من بعضهم في هذه المسألة، ولو استعرضناها لظهر التصنيف التالي بمعالمه الرئيسة:

الـزواج الواجـب: يكـون الزواج فرضًا إن خاف الإنسـان على نفسـه الزنا، أو خطرَ الوقوع في الحرام، وكان قادرًا على دفـع المهر والنفقة على أسـرته، بـل إن البعض زاد على ذلك عدم القـدرة على الصوم؛ بمعنى أن الـزواج لا غنـى عنه، بل هو الحَلّ الأمثل لمن يخـاف الوقوع في الحرام، والإعـراضُ عـن الـزواج من خلال طرقٍ غيـر طبيعية هـو محاربةٌ للفطرة الإنسانية، ولا مناص من الهزيمة والخسران إزاء من يشن هذه الحرب.

الزواج المسنون: يكون الزواج سنةً إن كان للإنسان رغبة في الزواج، ولم يخشَ أي خطر.

الـزواج الحـرام: إن كان الـزواج سـيفضي إلى اتخاذ الشـخص طرقًا للكسـب غيرَ مشـروعة من أجل الإنفاق على بيته وأسرته أو كان سيفضي إلـى ارتكاب المحرمات مثل: الغش، والاختلاس، والرشـوة، فزواج هذا الشـخص حينذاك حرام، أو على الأقل مكروه، ومن الفقهاء من يرى هذا الحكم منطبقًا على فاقد الاتزان الذي قد يتأتَّى منه ظلم زوجته.

الـزواج المكـروه: يكون الزواج مكروهًا -وفقًـا لرأي بعض الفقهاء- إن كان هناك احتمالٌ -لا يقين- بأن الزواج قد يوقـع الإنسانَ في الحرام، أو يجرّه إلى الظلم.

الزواج المباح: يكون الزواج مباحًا -بل ومسـتحبًّا- إن كان الإنسـان يقظًـا حـذرًا يكسـب رزقه مـن حلال، ولا يخـاف على نفسـه الوقوع في الحرام، وكان قادرًا على دفـع المهر والنفقة، فمثل هذا الشـخص إن شـاء تزوّج، وإلا فلا.

ومَـن يمعـن النظرَ لا يـرى بين أقوال الفقهاء في مسـألة الـزواج بونًا شاسعًا.

أجل، رَبَطَ ديننا الزواجَ بغايات وأهداف سامية، لأنّه ليس بالأمر الهين الممكن قيامُه على الحسّ والعاطفة فقط، لأن هذا الأمر المهم إن لم يقم على أسسٍ سليمة لا تتسبب في أيّ خواء منطقيّ أو حسيّ فلا غرو أن نهايته أناسٌ على أبواب المحاكم، وأراملُ وأطفالٌ لا عائل لهم، ولذا فإن الدين قد أقام من البداية سدًّا لكلّ هذا، وحجرَ على الناس الإقدام إلى مثل هذا الزواج درءًا لما بعده من السلبيات، وأدرجه في قائمة الحرام والمكروه، وفضّل في هذه المسألة طريقَ العقل والمنطق والمحاكمة العقلية على الحسّ والعاطفة.

الأمر الذي نؤكد عليه ههنا هو أن الزواج مسألة جدُّ مهمّةٍ، وبه تتكون الأسرة التي هي أهم عنصر في المجتمع، ولذا فإنه لا ينبغي لنا عند التفكير في الزواج أن ننظر إليه على أنه أمر بسيط يتعلّق بالرغبات الجسمانية للفرد، بل على أنه مسألة عامة ووطنية ودينية ترتبطُ بسعادة الأمة بأسرها، بل والإنسانية جمعاء، أما بالنسبة للأمر الخاص بالحالة النفسية والجسدية للفرد فهي بمثابة منحة أو عطية يتفضّل الله بها على الإنسان حتى يتيسر تحقُّقُ الغاية العظمى، ويمكن القول بأنها عبارة عن سُلفة، أو مكافأة معجَّلة على الخدمة العظيمة التي سيقوم بها الفرد مثل حفظ نسل بني البشر، وتنشئة أفراد ذوي شخصية عالية ترقى بمستقبل الإنسانية.

والحق أنّ الدين الإسلامي يولي أهميةً كبرى إزاء هذا الموضوع، ويوصينا أن نتحلى بالدقة البالغة عند التفكير فيه، ونقيّم الأمر جيّدًا، وأن نحذر من ارتكاب أي خطإٍ؛ حتى لا يتأسس المنزلُ على أسس واهية تودي به إلى الانهيار.

تحليل الأدلة

إليكم بعض الأدلة التي ترغب في النكاح:

١- يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ (سُورَةُ النُّورِ: ٣٢/٢٤).

٢- ويقول سيدُنا رسول الله ﷺ في حديثٍ حسنٍ: "**تَنَاكَحُوا، تَكْثُرُوا، فَإِنِّي أُبَاهِي بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"(١١).

٣- ويقول ﷺ في حديثٍ آخر: "**تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ**"(١٢).

إن مَن لا قدرة له على النكاح؛ يعني الإنفاق ودفع المهر، أو بالأحرى من لا يستطيع أن يعول أسرةً فعليه أن يصبر حتى يغنيه الله من فضله، دون أن يفرّط في عفّته، أو يقتربَ من الحرام.

وإنّ الآية المذكورة رغمَ ما تتفرّدُ به عن الحديثين من معانٍ جليلة إلا أنّها تتلاحَمُ معهما في توكيدِ الحقائق عينِها والفِكرة الأساسية ذاتِها.

أعني أن حديث "**تَنَاكَحُوا، تَكْثُرُوا، فَإِنِّي أُبَاهِي بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**" مضمونُه صريح إلا أنه قد يشير إلى مفهومٍ مخالف وهو: إن لم يستهدف المرءُ بالزواج تربيةَ نَسلٍ يَفتخر به سيدُنا رسول الله ﷺ فلا معنى قطّ من الزواج أو التكاثر، وبدهيٌّ أن الرسول الأكرم ﷺ لن يفتخر بنسلٍ وحشيٍّ صَدِئِ الفؤادِ لا تَعرف جبهتُه إلى السجود سبيلًا، ينغمس في لهو ومجون، ويجترح أعمالًا إجرامية، إن النسل الذي يريده سيّد الأنام ﷺ هو نسلٌ يرضى الله ﷻ عنه؛ نسلٌ يعيش الدينَ ويعايشه، ويتلهّف ويتعطّشُ لنيل رضا مولاه ﷻ، وأظهرُ برهانٍ على ذلك ما ورد في القرآن الكريم من

(١١) **سنن ابن ماجه**، النكاح، ١؛ عبد الرزاق: **المصنف**، ١٧٣/٦، (واللفظ لعبد الرزاق).

(١٢) **سنن أبي داود**، النكاح، ٤؛ **سنن النسائي**، النكاح، ١١.

بيانـاتٍ نورانيةٍ، يقـول ربنا ﷻ في واحدة منها: ﴿**الْمَـالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا**﴾ (سُورَةُالْكَهْفِ: ١٨/٤٦).

أجـل، إن ابتغيتم الآخرة فـي أعمالكم كنتم من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه تعالى.

والنتيجـة: أن الهـدف الرئيـس مـن الزواج هـو تربية جيـلٍ يُرضي الله ورسولَه ﷺ.

من أجل ذلك فعلى كلِّ متدينٍ، عاشـقٍ لأمته، متمسّكٍ بأسرته، يراعي الدقـة البالغـة فـي تربيته لأبنائه؛ ألا يتـردّد ألبتة في مسـألة إنجاب الأولاد بشكلٍ يتناسب مـع أصوله ومبادئه، رغمًا عن الأفكار الضالة التي تحوم في بيئته؛ لأن تكاثر نسلٍ كهذا سيرسم البسمة على وجه أمة سيدنا محمد ﷺ.

وأرى مـن الضـروري عرض هذه الوصية الجامعة التي أسـداها النبي ﷺ للشباب فيما يتعلّق بالأفكار التي أوردناها حتى الآن: "**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَـنِ اسْـتَطَاعَ مِنْكُـمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْـتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّـوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**"(١٣).

أولًا: يقوم الصوم عامةً مقام الحِمية؛ فإنه يضبط المعدة، ويسيطر على المشاعر البشرية، وييسّر استغلالها في السبيل الذي أمر به ربُّنا ﷻ.

ثانيًـا: الزواج حدثٌ خطير، وليس أمرًا بسـيطًا يمكـن أن يقرّره المرء أو يُقـدِم عليـه دون تأمـل وإعمـال فكـر، فـإنَّ أيَّ زواج تصحبـه العجلة والسـرعة دون إعمالٍ لعقل أو منطق يسـوده القلق والاضطراب، وإنْ نشأ الأطفالُ في مثل هذه الأسر المضطربة فلا مناص من أنهم لن ينالوا حظهم من التربية اللازمة، ولسـوف يَنشـؤون كاليتامى وإن كان لهم أب وأم، وقد

(١٣) صحيح البخاري، الصوم، ١٠، النكاح، ٢؛ صحيح مسلم، النكاح، ١، ٣.

يصبحون أعداءً لأبويهم بل لمجتمعهم؛ حيث لا شعور ولا حسّ لديهم.

والوضع في معظم البلدان الغربية على هذا النحو. أجل، إنهم لا يعتبرون مسألة الزواج مهمةً حيويةً، ولا يحققونها وفق ضوابطها اللازمة، بل ينظرون إليها على أنها أمرٌ عادي تمامًا كالأكل والشرب وإخراج الفضلات؛ هدفها هو تلبية بعض الرغبات الإنسانية، وليس هكذا فقط، بل ضيّقوا من دائرة الغاية، وجعلوا الزواج خاليًا من المعنى.

إن أوروبا الآن تدور على شفا جرفٍ تردّت فيه "روما" أمس، وتقترب من الموت خطوةً بعد خطوةٍ؛ لأنه لا بقاء لأمّةٍ فسدت فيها الأسرة، وانحلّت فيها أخلاقُ أفرادها.

لا أعرف كيف تفكّر الكنيسة في هذه المشكلة، وماذا يقول عنها علماء الاجتماع؟ وفيم يفكر التربويون؟ أما الذي أعرفه فهو أنه لا بقاءَ لمجتمعٍ معلولٍ بهذه البَلادة واللامنطقية.

ويُلَخِّصُ أحدُ المفكّرين الإسلاميّين انطباعه حول هذا الأمر فيقول:

> "عند دراستي لحياتهم الدينية في أمريكا صادفتُ أشياء عجيبة، وذات مرة رأيت الرجال والنساء يدخلون الكنيسة متلاحمين ليُؤدّوا شعائرهم، وبعد أن انتهى القسُّ من طقوسِه اصطحبهم إلى قاعةٍ أخرى يرقصون فيها ويلهون ويقومون بأمورٍ أخرى، ثم أطفأ الأنوار، وكان في سعادة عارمة وهم في لهوهم ولعبهم. أجل، كان سعيدًا؛ لأنه قد أتى بهم إلى الكنيسة".

بيد أنّ الغايةَ ليست هي مجرد الذّهاب إلى الكنيسة، بل ولا الذهاب إلى المسجد، ولا الطواف حول الكعبة، إنما الغاية الحقيقية هي رضا الله وأن يكون المرءُ على الطريق الذي يأمر به مولاه ﷻ ويرضاه.

ولقد سافر إلى أمريكا أحد الأصدقاء، فكان يعمل طبيبًا متخصّصًا

هناك، ولما عادَ نقل لنا انطباعاته قائلًا:

"إن معظم الغادين إلى الكنائس الموجودة في مراكز المدن الكبرى، وفي الشوارع والأسواق المزدحمة هم من الشيوخ الذين انحنت ظهورهم، ويغلب عليهم النعاس عندما يجلسون، فقلتُ في نفسي: عجبًا! هل كل شباب أمريكا قد انحلّوا وفقدوا هويتهم؟

ثم ذهبتُ إلى كنيسة خارج نيويورك، كانت تقع على أحد التلال، ولما وصلت هنالك رأيت الشباب، بل والجميع رجالًا ونساءً يتوافدون على هذه الكنيسة، فكان القسُّ في الكنيسة يقدّم لهم النصح دائمًا، ولكن لم يكن هناك من أحدٍ يكترث لهذا الأمر، كانوا جميعًا غارقين في لهوهم ولعبهم، والقسّ يغض الطرف عن أفعالهم بحجة أن وجودهم في الكنيسة -بحدّ ذاته- ربحٌ ومكسبٌ كبير، كان بعضهم يتعاطى الهيروين، والبعض يتناول المورفين، والبعض الآخر مشغولٌ بأمور أخرى".

وإنني لا أدري هل هناك فائدةٌ تُرجى من وراء الذهاب إلى الكنيسة على هذه الشاكلة؟

أجل، إن كان الذهاب إلى دور العبادة لا يقوّي الإنسانَ روحيًّا، ولا يثير مشاعره الإنسانية، ولا يسوقه إلى حياةٍ إنسانية؛ فلا معنى ولا غاية من الذهاب إليها أصلًا.

٥- مبادئ الفطرة في الزواج

أ. بسم الله: رأسُ كلّ خير

إنّ من ينجح في إقامة عشٍّ للزوجيّة وفقًا لما ذكرناه من مقاييس ومعايير فقد نجح في إحرازِ ما هو في غاية الأهمّيّة، فمثل هذا العشِّ يؤدي أحيانًا وظيفة المسجد وأحيانًا وظيفة المدرسة، وينفث روحَ الانبعاث في الأمة بأسرها، كما أن مثل هذا العش الذي يخضع للضوابط التي

وضعها الله ﷻ يُعتبر الحَمضَ النووي "*DNA*" للمجتمع بأسره.

وهنا أريد أن ألفت انتباهكم إلى مسألةٍ مهمة، وهي أننا نقول "بسم الله الرحمن الرحيم" في كل أمر نقوم به، ونعتقد حصول البركة إن تحلينا بالإخلاص في نطق هذه الكلمة، وكثيرًا ما شاهد المؤمنون المخلصون هذه البَرَكةَ عيانًا.

ونستعيذ بالله من شرّ الشيطان في كل أمورنا، ونستعينه ﷻ أن يحفظنا؛ فنراعي الضوابط التي وضعها الله لنا حتى في أخصّ أمورنا، ويكون لدينا يقينٌ بأن هذه الاستعانة والاستعاذة سيترتب عليهما صلاح أبنائنا، وأن أصابع الشيطان لن يمكنها أن تمتدّ إلى النتيجة والثمرة.

فمن لم يأخذ بهذه الاستعاذة وتلك الاستعانة مُنِيَ -نتيجةَ الإهمال الذي استصغره- بمصائب لا قِبل له بها وانسحق تحتها، ومن ثمّ يجب على الإنسان ألا يغفل عن أيّ نقطة في هذا الصدد، وأن يؤدي ما عليه صغيرًا كان أو كبيرًا، ويأتي بكلِّ أسباب النجاح في الامتحان الذي يخضع له، ويراعي الدقة البالغة عند أداء التكاليف المناطة به؛ ولا يقع في الغفلة مطلقًا.

وإنّ الفتور اللحظي ليُطابِقُ الغفلةَ الصغيرةَ التي تنتاب السائقَ الجالس على عجلة القيادة، فتؤدي به إلى عاقبة وخيمة.

أجل، على المؤمن أن يتوكل على الله ﷻ ويلوذ به في كلّ وقت وحين، وأن يكون هذا الشعورُ منطلقَه في مسألة النكاح أيضًا، هذه المسألة التي قد تبدو أمرًا بسيطًا، لكن غايتها لا بد أن تكون رضا الله لا غير، ولا يُتصوّر نكاح لا يُبتغى فيه وجهُ الله أن تتحقق فيه البركة أو يرُجى منه الخير.

أجل، إن النكاح رابطةٌ معنوية، وكرامته تكمن في ارتباطه بالله تعالى،

وعلى ذلك لا بدّ وأن يكون المقصد من النكاح مرضاة الله حتى تحفّ به البركة، ولا بد أن يصاحبه الدعاء، وألا يخرج عن إطار الضوابط التي وضعها الله سبحانه، وأن يُسمّى الصداق؛ وما ذاك إلا ليكتب للزواج الاستمرارية، فأيّما نكاح ذُكِرَ فيه اسم الله غشيه اليمن والبركة، وكان سبيلًا للتوافق بين الزوجين، وكان ذلك الزواج محفوفًا بعناية الله ﷻ، وعسى الله أن يكتبَ له البقاءَ.

إن حوادث الطلاق كثيرة في أيامنا الراهنة، وكثيرًا ما يبدو الزواج ممحوقَ البركة، سيّئَ الطالع، لا خير يُرجى منه.

أجل، إن لم نبتغِ وجهَ الله في أعمالنا، ولم نراع القيم الإنسانية، بل كان أداؤنا للأعمال عاريًا عن الهدف، موصوفًا بالعشوائية، مرتبطًا بإشباع الغرائز فحسب، فإنَّ من المتحتم أن يتزلزل نظامنا الأسري كما اهتز وتزلزل نظام الأسرة في الغرب من الأساس، والواقع خيرُ دليلٍ على ذلك، نسأل الله السلامة.

ب. اختيار شريك الحياة

أما عن أول مسألة لا بدّ أن يفكر فيها مَن يُقدم على الزواج فهي البحث عن شريك حياة يتناسب معه في مشاعره وأفكاره، فكثيرٌ من الشباب الآن يقيّم هذا الأمر الحيوي بعواطفه ليس إلا، ويسعى إلى تأسيس عش للزوجية فور تعرفه على فتاة التقى بها في الشارع أو السوق، ولا يحاول أن يسأل نفسه: من هي؟ وما محاسنها، وما مساوئُها؟ وما المنطق الذي يُعتمد عليه في الزواج وتأسيس عشّ الزوجية؟... بل يتغاضى عن كل ذلك، وبدهي أن مثل هذه الزيجات تكون عاقبتها وخيمةً، ولو أنهم استعانوا برأيِ غيرهم ممن يقيّمون المسألة تقييمًا أفضل وبمعايير أدقّ لكان أنفع.

إن الزواج الذي يعتمد على العاطفة قد يتحوّل من عشٍّ يُرجى منه

أن يكون روضةً من رياض الجنة إلى عشٍّ يؤول إلى حفرة من نار جهنم، وهناك الكثير ممّن نعرف ثباتهم وحماسهم وعشقهم لِدينهم يعيشون في أزمة عميقة وفوضى كبيرة منشؤها عدم الحيطة في هذه المسألة وعدم التوافق بين الزوجين.

فالمشاكل والنزاعات لا تنتهي في مثل هذه الأسر، بل تتوالى تباعًا، فالرجل يريد أن يلتزم بدينه، والمرأة لا تريد، والعكس صحيح، ومن ثَمَّ فإن مثل هذا الرجل وتلك المرأة لن يتوافقا في أسرة واحدة ولا يمكنهما أن يتشاركا في عشٍّ واحد، بل على العكس يعيشان كالقطبين المختلفين دائمًا، ففي مثل هذه الأسرة يُقرأ نوعان مختلفان متضادان من الكتب، ونوعان من الجرائد، ونوعان من القصص، ويُعقد نوعان من الاجتماعات الأسرية، فالمرأة تريد شيئًا والرجل يرفض، والمرأة تتكلّم عن الدين والإيمان والأخلاق، والرجل يتّخذ هذا ذريعةً للنزاع والشجار، ففي مثل هذه الأُسَر طِرازان من الحياة، إن جاز لنا أن نسمّيها حياةً.

وأحيانًا ما ينحاز الأطفال في هذا التضارب والصراع إلى طرفٍ دون آخر، وأحيانًا يفقدون مشاعرهم وأحاسيسهم بين هاتين الجبهتين ويقفون موقف العداء للمجتمع والأسرة.

بناءً على ذلك فإن من الواجب على الرجل والمرأة حين الإقدام على الزواج أن يُمعنا التفكير في الأمر، ويستشيرا ذوي الخبرة، ويحدّدا جيّدًا أسباب الأفضلية.

وفي هذا الصدد يقول رسول الله ﷺ: "**تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ**"(١٤).

(١٤) صحيح البخاري، النكاح، ١٦؛ صحيح مسلم، الرضاع، ٥٣.

والدين هو أهم أسباب التفضيل، فلو أن هناك اثنتين: إحداهما ذات جمال، والأخرى متوسطة الجمال لكنها كاملة التدين، وأتيح لك الخيار بينهما فلا بدّ من تفضيل ذات الدين والأخلاق.

أجل، إن الحياة الأسرية ليست مقصورة على الدنيا، بل لها امتداد في الآخرة أيضًا.

ورغم أن البيت السعيد يُرجى منه أن يكون روضةً من رياض الجنة فقد يتحول من جراء بعض الأخطاء إلى قبرٍ موحش، يدمِّر كلّ السبل التي توصِّل إلى السعادة في الآخرة.

ومن ثمّ لا بدّ من مراعاة مسألة الدين في اختيار شريك الحياة، لا سيما الأمور المتعلقة بالعقيدة، فأيُّ أبٍ يزوّج ابنته لشخصٍ منحرفٍ فاسد العقيدة يُعدّ مسؤولًا عن جميع المشاكل والمثالب التي ستقع، وينطبق الأمر على الرجل أيضًا، فإن كان هناك فسادٌ في العقيدة لدى الرجل فهذا يعني فسادَ الأمر من الأساس؛ لأن الإيمان ركنٌ أساس في صحة النكاح، فمن لم يؤمن بالله واستخف بأوامر الدين فلا يصح نكاحه بمؤمن ولا مؤمنة.

وبدهيّ أن الزواج الذي يُبنى على المقام والمنصب والشهرة والوظيفة فيه استخفافٌ بالدين، وأمثال هؤلاء يخسرون في وقتٍ هو أدعى ما يكون للكسب.

إن التدين هو أهم مطلب لا بدّ أن ينشده كل من الزوجين إزاء الآخر قبل إقدامهما على الزواج، فأصول الدين هي العقيدة، والارتباط بإنسان فاسد العقيدة ليس زواجًا بالمعنى الحقيقي بحال من الأحوال، وإنما هو مجرَّد ارتباط.

وما أوردناه من أفكار هنا لا يهمّ سوى المتدينين الذين يذعنون لمعايير الدين وضوابطه، وأقول مرة أخرى: إن الزواج هو دعامةٌ مهمة جدًّا للسعادة في الدنيا والآخرة، فمَن أخطأ في مسألةٍ مهمة كهذه فقد أظلم دنياه وآخرته.

إن لم تعملوا بدايةً على تغذية مَن يحيط بكم من أبناء وأقرباء بالمشاعر الدينية تعذّر عليكم فيما بعد أن تتدخلوا في أمر زواجهم إلا أن تسعفكم عناية الله الخارقة وتقوّم الاعوجاج الناشئ عن إهمالكم وخطئكم، وعندها نقول "هذه عناية الله"، ونتمنى دوامها، غير أنها قد لا تتأتى دائمًا.

ج. تربية الولد الصالح

يجب على الأب والأم أن يتفقا أوّلًا على تنشئة الولد الصالح، فالأمُّ إذا لم يكن لديها استعداد أو قابلية لتربية الطفل، أو كانت على استعداد وقابلية لكنها امتنعت عن تحمل المسؤولية، وكان الأبُ لا يكترث بمشاكل أولاده أبدًا؛ فإن مصير أولادهما الذين يقعون تحت وصايتهما هو اليُتْم، وإن كان الوالدان على قيد الحياة.

لقد زوّد الله ﷻ الأمّ بالشفقة والرحمة، والرقّة والحساسية، وجعلَ تربية الأطفالِ جزءًا من طبيعتها؛ ومن ثمّ فإن عليها أن تستثمر هذه الطاقة الكامنة في روحها في سبيل الارتقاء بأطفالها إلى الإنسانية الحقيقية؛ لأنها بمقتضى هذه الفطرة معلّمة ومربية ومرشدة، وأعظم مهامّها تربيتها لأولادها، يقول رسول الله ﷺ: "**مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**"(١٥)، وهذا الحديث يبرز بشكلٍ جلي الدور الرائع الذي تضطلع به الأم في تربيتها لطفلها.

(١٥) سنن الترمذي، البيوع، ٥٢.

وإذا كان على الأم أن تؤدي ما تقتضيه الخصال التي زُوّدت بها فعلى الأب أن يكون حذرًا دقيقًا كيّسًا واعيًا على الدوام وفقًا لما تقتضيه فطرته ومكانته، فيشتغل بالتجارة والزراعة وغير ذلك من الأعمال، ويملأ الفراغَ الآخرَ في الأسرة وفقًا لما تستلزمه طبيعته وفطرته.

أجل، إن الرجل بما أوتيه من بنيةٍ مختلفةٍ وقوّةٍ وتحمُّلٍ مهيَّأٌ للقيام بأعمال أخرى، وفي الواقع فإن الرجل لم يزل هو ذاك الذي تناط به المسؤوليات الخاصة، بدءًا من تقطيع الأشجار في الغابة، وحرث الأرض وزرعها بالشعير والقمح وحصادها، حتى الاشتغال بأشقّ الأعمال في التشييد والبناء أو المصانع، وفي رأيي أن الرجل الذي يستطيع أن يتحمّل مثل هذه الأعمال الشاقّة بجسده وإرادته، عليه أن يحافظ على مكانته، وألا يشتغل بأعمال النساء، ولا يجعل امرأته تشتغل بأعمالٍ تتجاوز طاقتها.

فضلًا عن ذلك فإن الرجل هو مثالُ التحمّل، ولكنه ليس بطلَ الشفقة، فالشفقة هي أهم خصال المرأة إذ هي التي حملت ولدها في بطنها تسعة أشهر، وهي التي تحمّلت الكثير من المعاناة عند ولادتها لطفلها، وتجشّمت الصعاب في تربيته، فإذا أنَّ ليلًا نهضت على الفور لإسعافه، وإن بكى ضمّته إلى صدرها؛ إنها تعيش ليحيا الطفلُ انطلاقًا من انسياق وشوق نابعين من فطرتها، وهكذا فمن الممكن للرجل والمرأة أن يقيما بترابطهما الأسري عشَّ زوجيةٍ يحاكي قصور الجنة، ويشاهدان من خلاله جماليات الآخرة.

وفي الغرب يعمل كلٌّ من الزوج والزوجة، وحينذاك يعهدان بالطفل لغيرهما أو للحضانة، وإنّ المرأةَ حينما تقوم بالعمل إلى جانب الرجل فإن أولادهما سيتعرّضون للوحدة وعدم الرعاية، وسيتلمّسُ الأبوان لأنفسِهما أعذارًا وحججًا قائلين: إنّ مَن أودعْنا عندهم أولادَنا أولو خِبرةٍ ورحمة،

وسيُحسِنون رعايةَ أبنائنا أكثر منا... إلخ، والحقُّ أنّ متطلّباتٍ أخرى يحتاجها الطفل ولا يجدها في غير أبويه.

قد يغسلون ملابسَ الطفل، ويراعون الدقّةَ في موعد تناوله لطعامه، فإن أراد أن يلهوَ خرجوا به إلى الملاهي ليلعب فيها، لكن مَن يفعل هذا لا يمكنهم أن يكونوا أمًّا أو أبًا ألبتة، ولا يقدرون على أن يمنحوه الحنان الذي يحتاج إليه، فالحنان هو رابطةٌ فطرية يقرؤها الطفل في وجه أمه، ويجدها على صدرها، ويشعر بها في حِجْر أبيه، وليس هناك شيء يُشبع الطفل سوى هذا الشعور.

ولنضع الآن جانبًا الأطفالَ الذين يَعهد بهم ذووهم إلى الحضانات ولنتناول الأطفال الذين أسلمتْهم أُسَرُهم في سنّ الصغر لحرفيٍّ في ورشةٍ ما، فإن كان هذا الحرفيّ قاسيًا غليظَ القلب انعكس ذلك على الأطفال الذين يُعانُون من قسوته باستمرار، فيَنشؤون على القسوة من غير أن يشعروا بذلك، لا يتورّعون عن التعامل بغلظة مع آبائهم وأمهاتهم، فضلًا عن الأجانب، فإذا كان فعل هؤلاء الناس غلاظ القلوب سيؤثّر سلبًا على الأرواح الرقيقة لهؤلاء الأطفال الأبرياء، ويولّد هذا القدر من النتائج السيئة في مرحلة الصبا فليس من العسير أن نجزم بالحالة التي سيكون عليها هؤلاء الأطفال الذين أسلمناهم إلى الآخرين منذ نعومة أظفارهم.

إن الأمهات مَظهرٌ من مظاهر رحمة الله الذي عرّف نفسه لنا بالرحمن الرحيم، ولقد وردت كلمةُ "بسم الله الرحمن الرحيم" في القرآن مائة وأربع عشرة مرة. أجل، يمكننا أن نلحظ تجلّيَ ربّنا ﷻ على البيت برحمانيته ورحيميته من خلال اهتمام الأم بأولادها ورعايتها لهم، ولا جرم أن هذا الحظّ العلوي لا يمكن أن يضاهيه شيءٌ أو يُستبدَل بشيءٍ في الدنيا.

في فترة ما كان هناك شبابٌ درسوا في الجامعة، بل تزوّدوا بالماجستير والدكتوراه إلا أنهم وقعوا في براثن البُؤَرِ الإجرامية؛ فنشأ جيلٌ قاسٍ بلا رحمة أو شعور، أبكى أبويه، وأحرق فؤادهما، غير أن هذا لا يمكن أن يتخذ ذريعةً لعدم تعليمهم وتشجيعهم على العلم؛ إذ إن أولئك كانوا على خلاف القاعدة؛ فلا أحد يربّي ابنه لكي تتلقّفه رصاصة فتقتله، أو يزعزع من أمن المجتمع، ولكن قد لا يمكنه أن يحول دون انجرافه إلى التيارات غير المتوقعة، ولذا يجب على الأبوين أن يجعلا البيت حصنًا منيعًا ضدّ المساوئ المفاجئة والمخاطر المحتملة، وألا يسمحا بضياع أولادهما، وطريق هذا هو اتخاذُهما من التربية الأخلاقية هدفًا لتربية أبنائهما.

والحاصل أن على الوالدين أن يبذلا وسعهما من أجل تنشئة جيلٍ حساس واعٍ، وَفِيّ لوطنه وأمته ودينه، وألا يسمحا بأن يتعرض هذا الطفل لفراغ عقلي وقلبي وشعوري ومنطقي، فلو أن الأبوين متدينان متصلان بالقرآن، ويعرفان قواعد الإسلام فسينشأ الأطفالُ بإذن الله تعالى واعين يسطع بهم نجمُ مستقبلِ أمتهم.

٦- الفضيلة العليا للأم

الأم هي أهمّ عنصرٍ في الأسرة، وهي التي تنشئ الأمّة، ولها في نظر الإسلام منزلة عالية؛ حتى إن رسول الله ﷺ يقول: "**اَلْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ**"(١٦).

ذلك لأن الأم يدٌ مباركة تصوغ أمة، ومؤسّسةٌ لعشٍّ يشكّل الخلية الأولى في المجتمع؛ ذلك العشّ الذي يغمر الأطفال وما حولهم بالنشاط والسعادة والسرور والحيوية...

(١٦) سنن النسائي، الجهاد، ٦؛ سنن ابن ماجه، الجهاد، ١٢؛ القضاعي: مسند الشهاب، ١٠٢/١ (واللفظ للقضاعي).

أجل، لقد منح الإسلامُ الأمَّ منزلةً عالية جدًّا، حتى إنّ محاولةَ منحِها منـازلَ جديـدة -مقارنـةً مـع منزِلَتِها في الإسـلام- تهوينٌ من شـأن هذا الكائـن المقدّس، وهو تمامًا كَمَنْ أراد أن يلبسـها طُرْطُورًا[١٧] مزينًا بقطـع مـن الزجـاج كبديلٍ عـن تاجِها المرصّـع بالزبرجد، وقد خلـق الله الذكر والأنثى وزوّدهما بما زودهما وفقًا لأدوارهما، ووهبهما ما وهب حسـب اسـتعداداتهما، فالمرأة مخلوقٌ ضعيف نحيف جسـمانيًا، تتأثر بالأحداث أسـرع مـن الرجـل، ومـن الإجحـاف أن نبعدهـا عـن الأعمـال الملائمة لطبيعتها، ونستخدمها في أمور لا تتوافق مـع رقتها وملاحتها ووقارها.

لقـد زوِّدت المرأة -ذلك المخلـوق الرقيق- بخصائص تفوق الرجل فيها بمسـافات بعيدة، فهي بطل الشفقة، ترعى أولادها أعظم رعاية، حتى إن الأب لا يمكـن أن يجاريهـا في ذلك، وهـذا الأمر لا يقتصر على عالم الإنسـان فحسـب؛ فالدجاجـة رغـم أن رأسـمالها هي حياتها فقـط، فإنها تضحي بها لإنقاذ وليدها من فم الكلب، وهكذا وضـع الله ﷻ هذا الشعور العميق بالشفقة لدى كلّ الأحياء تجاه أولادهم، وهو شعور سام، فانزعوا مـا تنزعون منهـا، وامنحوا ما تمنحون، فسـيظل كلّ هذا ضحلًا مضمحلًّا أمام ما يهبه ربّ العزة ﷻ.

لقـد حاولنـا في هـذا الفصل -الذي عرضنا فيه كلّ مـا عرضناه بنظرة إجمالية- أن نقدّم النصح حول كيفية تأسـيس عشّ الزوجية، وتوقفنا عند الجانـب العقـدي والجانـب العملي في الإسـلام، وعند تديـن الزوجين، وتقسـيم المسـاعي، والتعاون بين الزوجين، وتربية الأطفال تربيةً صالحة، وشـدّدنا علـى بعض الأمـور المهمة كتكوين أمّة سـتكون مَفخرةً لسـيدنا رسول الله ﷺ، وفي الفصل التالي سنتوقف عند ضوابط الأسرة.

---

(١٧) **الطرطور**: القلنسوة الطويلة الدقيقة الرأس

الفصل الثاني
الأسرة

الأسرة

١- كيفية بناء الأسرة

ذكرنا في الفصل السابقِ أنّ الأسرة هي أهمّ ركنٍ في المجتمع، وشددنا على أهمّيّة التزام عشّ الزوجية بالمبادئ الدينيّة، وأَرْجَعْنا إمكانيّة تحقيق الكمال في أيّ شيءٍ إلى الخطّة المتكاملة، ونوّهنا إلى ضرورة أخذ هذا الأمر الخطير على محمل الجِدّ وهو لا يزال في طور الفكرة.

أجل، إن تخلينا عن الجِدّ في مرحلة الإعداد لأيّ أمرٍ ولم نستند إلى المنطِق السليم، أفضى ذلك في المستقبل إلى مشاكلَ يصعب التغلّب عليها، فإن لم تكن خطّتنا في بناء البيت متماشيةً مع الحاجة ومساهمةً في تجميل البيت فسنظلّ نهدم ونبني في دوران دؤوب.

إن الأسرة هي أهمّ ركنٍ في المجتمع، وسلامة هذا الركن تعني سلامة الأمّة والدولة، وعلى ذلك علينا ألا ندع هذا الركن الأساس في الأمة والمجتمع بلا خطّةٍ أو برنامج ألبتّة؛ لأن الإهمال في هذا الركن بمثابة إهمالٍ للأمّة بأسرها، فمن الضروري إذًا التزامُ الجِدّية عند إقامة الأسرة وتنشئتها، فهذا أمرٌ في غاية الأهمّيّة، خصوصًا وأنّ مجتمعنا اليوم تُثْخِنُهُ الجروح بسبب العلاقات غير المشروعة.

أجـل، إن بيتًا بُني على الأهـواء والرغبات والأطماع والأحقاد لا يعِدُ بمسـتقبلٍ زاهر، وسـيظلّ هذا البيت عنصرًا سـلبيًّا أصيلًا في جسـد الأمة، وقد يُخرِّج لنا أبناءً مشـرّدين في الشـوارع؛ لأن هذا البيت لم يعتمد على حسـاباتٍ دقيقـة وخطّـةٍ متكاملة عند تأسيسـه، وهذه الخطّـة نطلق عليها اسـمَ "النـكاح"، وإننـا لنرى ضـرورة أن ينطلق هـذا الطريق المـؤدّي إلى النكاح من المنطق والفكر والقلب لا من الرغبات والشـهوات، فمثل هذا الشعور والفكر الديني سيكون نافعًا جدًّا في الحياة الزوجية، فإن انعدمت الصلة بين الأبوين وبين الله فمن المتعذّر أن يَحمل أولادُهما شعورًا واعيًا متوازنًـا منتظمًـا، بلهَ أيّ شـعورٍ بالمسـؤولية، فلو جاءت النتيجـة إيجابيّةً -رغم صعوبة ذلك- فعلينا أن نعتبر هذا فضلًا وتلطّفًا كبيرًا من الله تعالى، وأن ننكّس رؤوسنا وننحني امتنانًا له.

إن كلّ ما في الكون متوقّفٌ على الأسباب، وبمراعاة الأسباب نحصُل علـى ما نرمـي إليه -بفضل مـن الله وتوفيقه- بنفس الشـكل الـذي أمّلناه وأجهدنـا فكرَنـا فيـه، ولا نصِل إلى الثمـرة المرجوة غالبًـا إذا ما غضضنا الطرف عن الأخذ بالأسباب في أعمالنا وتصرّفاتنا، فإن كنّا لا نريد الوقوع فـي الخيبـة والخسـران فعلينـا أن نتنـاول كلّ مسـألةٍ بأسـبابها ومقدّماتها ونراعـي الدقّة البالغة فـي هذا الأمر، ثمّ ننتظر النتيجة الرابحة منه ﷻ دون سواه؛ ثقةً في فضله وعنايته تعالى.

أجـل، علينـا أن نثـق ثقـةً كاملةً فـي ربّنـا ﷻ، وألا نقصّر فـي الأخذ بالأسباب في كلّ أفعالنا التي هي بمثابة الدعاء الفعليّ، ويشرح هذا الأمرَ قولُ القائل: "مراعاةُ الأسباب لا تُنافي التوكّل"، هذا مبدأٌ إسلاميٌّ، ونحن نعتقد بضرورة مراعاة هذه المبادئ عند تشكيل مؤسّسةٍ حيويّة مثل الأسرة.

فإذا ما سلّمنا بضرورة تأسيس الأسرة على هذا المنوال أَجْدَت هذه المبادئ في الحصول على أجيال كاملة، ولكن إن كان هناك عطبٌ في أساس المسألة قلّ بنفس القدر تأثير العلاج، وإن أسرة يحفّها اليمن والبركة، في بيتٍ يتكون من أبوين مستقيمين مسلمين مؤمنين يقومان بمسؤولياتهما على أتمّ وجه، فلا بدّ أن يكون كل شيء فيها في نصابه، ويُصبح هذا البيت روضةً من رياض الجنة، وأحسب أن الصيحات المفعمة بالنشاط والحيوية التي يطلقها الصغار في هذا البيت ستكون عند الله بمثابة الدعاء؛ مقدسة وكأنها تسبيحات للملائكة.

وعند حديث القرآن الكريم عن المجتمع السعيد بنسائه ورجاله يقول: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٣٥/٣٣).

إن هؤلاء الرجال والنساء مؤمنون مسلمون، تجمعهما الأسرة التي هي أصغر خليّة في الأمة، وثقوا في الله، واتجهوا إليه بإخلاص، ووصلوا إلى معيته، وقضوا حياتهم في عبادةٍ وطاعةٍ له ﷻ.

أجل، إن الصادق في كلامه وتصرّفاته -ذكرًا كان أو أنثى- هو الذي لا يكذّب كلامُه أفعَاله ولا أفعالُه كلامَه، حتى إنه من المتعذّر مصادفة خلاف الواقع في هذا البيت الذي يشكّله هذا الرجل وهذه المرأة، فكلّ شيء في هذا البيت صحيحٌ ويبدو في صورته الحقيقية، وكما يُصلح الإنسانُ من هندامه أمام المرآة فكذلك الطفل سيُصلح من نفسه أمام لوحات الصدق في هذا البيت، ولن يضطلع بأيّ فعلٍ خاطئٍ أو أيّ بيانٍ يخالف الواقع، إذ كلّ ما يحدث في هذا البيت صحيحٌ وسليم؛ لأن هذا

البيت يجمع الصادقين والصادقات.

أجل، فإن كان الزوجان من الصابرين والصابرات؛ من الذين يتحمّلون مشقّة العبادة والطاعة وقسوة المصائب التي يُبتلون بها، ويصمدون أمام الذنوب، ويحفظون فروجهم، ويكرهون أن يرتكبوا المعاصي كما يكرهون أن يُقذفوا في النار؛ فهم -بلسان حالهم- يؤثّرون في أولادهم كما يؤثرون في مجتمعاتهم كلّها؛ حتى إنني أعتقد أن كل ما تتفوّه به ألسنتهم سيصغر أمام لسان حالهم.

فلا جرم أن الجدّية والوقار والحساسية والدقّة البالغة هي ما سيراه الطفل دائمًا لدى هذين الأبوين؛ اللذين تفيض أعماقهما بتوقير خالقِهما، وتهتزّ جنباتهما دائمًا من خشيته، ويسعيان إلى أداء ما أُنيط بهما من تكاليف على أكمل وجه؛ مخافةَ ما ينتظرهما في الآخرة من حساب وجزاء، ويترقّبان في كلّ لحظةٍ بلوغَ نهاية الطريق ودعوتهم إلى القبر، سيرى الأطفال في مثل هذه الأُسَرِ قلقًا لطيفًا يعلو الوجوهَ، تتبعه عذوبةٌ ثم نشوةٌ أنشأتها مهابة الله والرجاء في الجنة، وعند ذلك ينشؤون في رفاهيةٍ ولكن مع الحذر، في سعادة ولكن مع سعة الأفق، في لذةٍ وهناءٍ ولكنهم أشبال المستقبل.

ولا بدّ أن يكون الزوجان في البيت من المتصدّقين والمتصدّقات، مهيَّأَين لعمل الخير، وإن يستمرا على هذا المنوال حتى ترتقي وتربو روح الكرم لدى أطفالهما. أجل، علينا أن نكون كرماء أوّلًا حتى يكونوا هم كذلك، ولقد شهدتُ حادثةً مثل هذه: كان الرجل يتصدّق فيُخفي عن زوجته، والزوجة تتصدّق فتُخفي عن زوجها، غير أنني لا أدري ماذا كانا يقولان لبعضهما، ولكن الذي أعلم يقينًا هو أنه من المتصدّقين، وأنها من المتصدقات، وإن الأولاد الذين يَنشؤون في كنفِ هذه الأسرة وأمثالها

مهيّؤون لأن يكونوا كذلك، إن أي مجتمع أو أمة تتشكل من أُسَرٍ مثل هذه مهيَّأةٌ لتشكيلِ بُعدٍ متميّزٍ من أبعاد الأمن والسكينة، إن هؤلاء الناس يراعون الدقة البالغة في مسألة الحفاظ على أعراضهم وعدم المساس بها؛ فهم يعيشون ما يعيشون من أجل دينهم وأعراضهم، وهؤلاء هم السعداء في الدنيا والآخرة، لقد تناول القرآن الكريم في خطابه الرجلَ والمرأةَ على السواء ونظّم من كليهما بنيةً أُسَرِيَّةً، فإن حقّقت هذه البنيةُ النتيجةَ المرجوّة منها عُدّت أقدس البِنى.

فإذا ما هبّت نسائم الروح الدينية على هذه الأسرة التي تقوم على هذين الركنين نال أولادهما وأحفادهما أيضًا قسطًا من هذه النسائم نفسها، والصلاح الاجتماعي مقدّرٌ ومرهونٌ بدوام هذا الجوّ بين أفراد الأسرة؛ أي خلايا المجتمع، وإلّا تلاشت كلُّ الآمال.

ولنحاول الآن تلخيص قضايا المجتمع والزواج والأسرة والعش السعيد من زاوية مختلفة.

٢- الأبوة والأمومة

عند النظر إلى المسألة في ضوء النصوص القرآنية والأحاديث النبوية يتبين لنا أن القرآن الكريم يوصي بكثرة الذرية التي يحبها الله ويرضى عنها، والحق أن جميع الأنبياء والصالحين وغيرهم ممن يحظون بالقبول عند الله كانوا يرغبون في تكثير ذراريهم الطيبة.

والقرآن الكريم يعبّر عن أصدق المشاعر التي كانت تهيمن على سيدنا زكريا عليه السلام في دعائه وتضرّعه لربه فيقول: ﴿**هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾ (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٣/٣٨).

ولو لاحظنا سنجد أن سيدنا زكريا عليه السلام لم يطلب الذرية على

إطلاقها، بل قيّدها بقوله: "ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً"، وكأنه يقول: "ربّ هب لي ذرية طيبة ترضيك، وتقرّ عين نبيك، وتكون ركنًا ركينًا في الأمة".

كما كان إبراهيم وابنه إسماعيل على نبينا وعليهما الصلاة والسلام يتضرعان إلى الله وهما يرفعان القواعد من الكعبة قائلَين: ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ١٢٨/٢).

ولنا أن نقول إن انحدار مئات الأنبياء من تلك السلالة الصالحة وفي مقدّمتهم مفخرة الأنبياء سيدنا محمد ﷺ لهو إشارةٌ على قبول الله تعالى لهذا الدعاء المبارك، فضلًا عن ذلك كان جميع الصالحين في الأمة يتضرّعون إلى ربهم أن يهبهم الذرية الصالحة: ﴿**رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾ (سُورَةُ الفُرْقَانِ: ٧٤/٢٥).

ويمكننا أن نرى في نصوص أخرى مثل هذه الأماني والتضرّعات التي تعبّر عن الرغبة في الذرية الطيبة. أجل، إن معظم هذه الأدعية تكتنفها الإشارة إلى الذرية المسلمة المؤمنة البريئة النقية التي لا ترتكب جرمًا ولا تكسب إثمًا، وعلى ذلك فالعبرة ليست بالكمّ وإنّما بالكيف والارتباط بالجذور المعنوية، والقبول عند الله، وربما هناك مناهج وسبل معيّنة لبلوغ مثل هذا القبول.

وأريد الآن أن أفرّج الباب قليلًا عن عددٍ من هذه السبل والمناهج:

٣- مهام ربّ العائلة

أ. تدابير ما قبل الولادة

بعضها مسائل متعلقة بالمادّيات كالمسكن والمأكل والمشرب والملبس.

ب. التربية والتعليم

وهذا يشمل حسن تسمية الطفل، والرضاعة، والنفقة، وإعداد الخطط التربوية وفقًا للمراحل العمريّة.

ج. الشعور بالمسؤولية في التربية

بمعنى أن يتخلّقَ كبار الأفراد في الأسرة بأخلاق الإسلام العالية ويجعلوا من أنفسهم قدوةً حسنةً للأجيال الجديدة.

والآن لنفصل هذه الأمور واحدًا تلوَ آخر:

أ. تدابير ما قبل الولادة:

نقاء البذرة

لا بد لسلامة تربية الجيل المنشود من إلقاء البذرة في تربة صالحة، ثم تعريضها للهواء النقي والأشعة النافعة، ورَيّها بالماء النقي، وتعهّدها بالرعاية، ويؤيد هذا ما ذكره سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ اعتمادًا على حديثٍ لرسول الله ﷺ: "**الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَالسَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ**"(١٨).

أجل، لا بدّ من أخذ كافّة التدابير اللازمة والطفلُ لا يزال في بطن أمّه، فإن غذاء الصغير بعد التقاء مَنيّ الرجل ببويضة المرأة، وتصرّفات أمّه، وسلوكيّات أبويه قبل الولادة وبعدها... لكل هذه الأمور أثر كبيرٌ في سعادة الطفل أو شقاوته.

ويجب أن نعلم جيّدًا أنه لا جدال أن القَدَر يُراعى فيه إرادتُنا وتصرفاتُنا؛ فكلّ تصرُّفٍ نتصرّفه وكل خطوةٍ نخطوها وما يتولّد عنها من نتائج، كل هذا وأكثر يعلمه الله ﷻ، وقد قدّر سبحانه الأشياء تقديرًا راعى فيه إرادتنا،

(١٨) الطبراني: **المعجم الأوسط**، ١٠٧/٣، وانظر: **سنن ابن ماجه**، المقدمة، ٧.

فرُبَّ طفلٍ ساء حظُّه من حيث الوسط الذي نشأ فيه والأسباب التي تحيط به، لكن الله بفضل منه ومنّة حوَّل حالَه إلى أحسن حالٍ.

أجل، كلّ شيءٍ يبدأ من اللحظة التي تُلقى فيها البذرة، فلا نستهين بأثر اللقمة الحرام وفسق الأبوين في شقاوة الطفل وهو ما يزال بويضةً في بطن أمه، فإن أُلقيت البذرة دون تسمية الله، فأمرُ نشوء الثمرة مباركةً موكولٌ إلى لطف الله وإحسانه، فمن الصعب -إن لم يكن محالًا- أن نحصل على نتيجةٍ سليمةٍ من عملٍ معوجّ، ولا نقول محالًا، لأنه قد يخرج من أصلاب غير الموحّدين -أحيانًا- مَن يعبد الله، كما خرج سيدنا "عكرمة" من ظهر "أبي جهل".

ويقول الحقّ ﷻ: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٨٩/٧)، فبينما تكشف هذه الآية الكريمة عن بعض الرغبات التي يمكن أن تكون لدى الوالدين قبل ولادة طفلهما فإنها ترشد في الوقت ذاته إلى ضرورة أن يتوجّها إلى الله رغبةً في الولد الصالح.

الكسب الحلال

من المهامّ التي تقع على عاتق الأبوين أيضًا ضرورة أن يتحرّيا الحلال عند كسب الرزق، وأن يطعما أبناءهما رزقًا حلالًا طيّبًا، وكما ذكرنا سلفًا -وإن كان هناك بعض الاعتراضات- أن الزواج يحرم على المسلم أو يكره إن كان الرزق الذي سيسوقه إلى أهله حرامًا أو فيه شبهة الحرمة.

ومن ثمّ فلزامٌ علينا أن نُطعم أبناءَنا والمنوط بنا رعايتُهم والعنايةُ بهم الرزقَ الحلال الطيّب، ولا نطعمهم حرامًا أو ما تشوبه الشبهة على اعتبار أنها بلوى عامّة؛ حتى وإن تغيّر الزمان وتبدّلت العصور وسلك الجميع

في تحصيل الرزق سبلًا غير مشروعة، وإذا حصّلنا المال من الطرق غير المشروعة ثمّ غذّينا أبناءنا بهذا المال؛ سيُصبحون ذاتَ يومٍ مثل زقّومِ جهنم، يُصدّعون رؤوسنا ويسوموننا سوء العذاب.

فإذا ما أدّينا المهام التي سردناها آنفًا؛ فمن المتوقّع أن يكون وليدُنا سعيدًا، بابُه مغلقٌ بقدرٍ ما دون التعاسة والشقاء، ولكن إن كان مأكلنا حرامًا ومشربنا حرامًا وملبسنا حرامًا وتسلل الحرام إلى كلّ جوانب حياتنا فربما يعني هذا أننا قد قضينا على احتمالية السعادة لوليدنا.

أجل، إن طعِمنا حرامًا وشربنا حرامًا وغذّينا بالحرام فقد يتسلّط الشيطان على حياتنا الروحية، وفي الحديث: "**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ**"(١٩). أجل، إن الشيطان يجري في الأوردة الدموية للإنسان، ينفذ إلى كرياته الحمراء وكرياته البيضاء، حتى يسري بشروره إلى النسل والأنساب.

ومن هنا جاءت العناية بمأكل الطفل ومشربه وملبسه، وضرورة أن يتمّ كلُّ هذا في الدائرة التي شرعها الدين، مع تجنب الحرام في المأكل والمشرب والملبس.

يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**مَنْ أَمَّ هَذَا الْبَيْتَ مِنَ الْكَسْبِ الْحَرَامِ شَخَصَ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ، فَإِذَا أَهَلَّ وَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ** (أَي الرِّكَابِ) **وَانْبَعَثَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، وَقَالَ: لَبَّيْكَ اللهمَّ لَبَّيْكَ، نَادَاهُ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: "لَا لَبَّيْكَ وَلَا سَعْدَيْكَ، كَسْبُكَ حَرَامٌ، وَزَادُكَ حَرَامٌ، وَرَاحِلَتُكَ حَرَامٌ، فَارْجِعْ مَأْزُورًا غَيْرَ مَأْجُورٍ، وَأَبْشِرْ بِمَا يَسُوءُكَ"، وَإِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ حَاجًّا بِمَالٍ حَلَالٍ، وَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ، وَانْبَعَثَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، وَقَالَ: لَبَّيْكَ**

(١٩) صحيح البخاري، الاعتكاف، ١١، الأحكام، ٢١، الأدب، ١٢١؛ صحيح مسلم، السلام، ٢٣، ٢٤.

اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، نَادَاهُ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: "لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ قَدْ أَجَبْتُكَ، رَاحِلَتُكَ حَلَالٌ، وَثِيَابُكَ حَلَالٌ، وَزَادُكَ حَلَالٌ، فَارْجِعْ مَأْجُورًا غَيْرَ مَأْزُورٍ، وَأَبْشِرْ بِمَا يَسُرُّكَ"(٢٠).

ولذا علينا أن نتحرّى الدقةَ البالغة حتى في مخيطِ ملبسنا بألا يكون حرامًا أو به شبهة، وأن نستعيذ بالله ممّا لا نعلم، وأن تقشعر قلوبنا من الحرام في كل لحظةٍ وآن، وعلينا أن نعلم بالتأكيد أنّ كلّ بذرة نزرعها إما أن تكون زقّومًا يسمّم الآخرين، أو شجرة مباركةً أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء، تُظلّل الإنسانية بثمارها وظلالها وأغصانها، وتَظلّ تخدم الأجيال المتلاحقة، وتُسهِم في سعادة الإنسان وإعمار الأرض.

ب. التربية والتعليم

من الوظائف الأولية للأبوين تسميةُ الطفل باسمٍ حسنٍ محبّبٍ إليهِ، وذلك في إطار وصايا الرسول الكريم صلوات ربي وسلامه عليه، حيث أولى ﷺ أهمّيّةً خاصّةً لتسمية الطفل فقال: **"تَسَمَّوْا بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَّامٌ، وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّة"**(٢١)، وغيَّر رسول الله ﷺ اسم "عاصية" وقال: **"أَنْتِ جَمِيلَة"**(٢٢).

وبعد ذلك يأتي حقّ الرضاعة، ثم التكفّل بنفقة الطفل عند الفطام، والتعهد بتربيته.

قال ﷺ: **"مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ"**(٢٣). أجل، إنه كورقة بيضاء فارغة، لك أن تدوّنَ فيها كلّ شيءٍ، ولكن احرص على أن يكون ما تدونه في سبيل مرضاة الله تعالى؛ حتى يصبح نقوشًا تكبُرها الملائكة

(٢٠) مسند البزار، ٢٢١/١٥؛ الطبراني: المعجم الأوسط، ٢٥١/٥.

(٢١) سنن أبي داود، الأدب، ٦٩؛ سنن النسائي، الحيل، ٣؛ مسند الإمام أحمد، ٣٤٥/٤.

(٢٢) صحيح مسلم، الآداب، ١٤؛ سنن أبي داود، الأدب، ٦٢.

(٢٣) صحيح البخاري، الجنائز، ٧٩؛ صحيح مسلم، القدر، ٢٢.

ويُعمل بها يوم المحشر، وترجُحُ بها كفة الميزان... نقوشًا في سبيل مرضاة الله، وعلى نهج سيدنا رسول الله ﷺ.

فما يجب على الأبوين هو أن ينقشا في أرواح أبنائهما هذه النقوش في موعدها وعلى نحو لا يندثر أو ينمحي. أجل، إن كلّ من يعول طفلًا عليه أن يخصّص جزءًا من حياته اليوميّة لتربية طفله وتعليمه، وسنتناول إن شاء الله المراحل الأخرى للتربية والتعليم في الفصول التالية.

إن الأسرة هي أول محضنٍ وأول مدرسةٍ في التربية والتعليم، فعلى الأبوين أن يرجّحا الوقت الذي يخصصانه لتربية طفلهما وتعليمه على أورادهما وأذكارهما ووظائفهما الشخصية، فتربية الطفل تفضُل العديدَ من الوظائف الشخصية، بل إن تعريف الطفل بالله، وغرسَ فكرة الإيمان في قلبه حسبَ عمره ومستوى ثقافته يفضل الفيوضات المادية والمعنوية، ولذلك فإذا ما سافرتم لزيارة بيت الله الحرام، وأهملتم أطفالكم وتركتموهم في البيت للتعاسة والشقاء فستنادي عليكم الوظيفة من خلفكم قائلة لكم: إلى أين أنتم ذاهبون وتتركون الوظيفة الأهم والأخطر في حياتكم؟!

ويجب على الأب أن يعلّم طفله الدين والتديّن والقراءة والكتابة وتلاوة القرآن، حتى السباحة والرماية وركوب الخيل، كما عليه أن يعلّمه كلّ الرياضات المهمّة في مجالها، لا التي تقوّي من ساعديه وعضلاته فقط، بل النافعة لصحّته وحياته، والتي يعمّر بها مستقبله.

ج. الشعور بالمسؤولية في التربية

روي عن زين العابدين علي بن الحسين ﷺ في بعض نصائحه:

"وأما حق ولدك: فتعلم أنه منك، ومضافٌ إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره، وإنك مسؤول عما وَلِيتَه من حسن الأدب،

والدلالـة على ربه، والمعونة على طاعته فيك وفي نفسـه، فمثاب على ذلك ومعاقب، فاعمل في أمره عمل المتزين بحسن أثره عليه في عاجل الدنيا، المُعْذَرِ إلى ربه فيما بينه وبينه بحسن القيام عليه، والأخذ له منه، ولا قوة إلا بالله".

ولما أحسّ سيدنا رسول الله ﷺ بدنوّ أجله قال للصحابة ﷺ يومًا: "**إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ**"، فبكى أبو بكر ﷺ وقال: "فديناك بآبائنا وأمهاتنا"[٢٤]. أجل، لم يتوان الصديق ﷺ في إدراك أن العبد هو سيدنا رسول الله ﷺ.

وفي حجة الوداع سأل النبيُّ ﷺ الصحابةَ ﷺ قائلًا: "**أَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟**"، لقد قام ﷺ بمهمّة جليلةٍ، ومع ذلك فلقد كان يساوره القلق هل أدّاها بحقّها أو لا؛ بيد أن تلك المهمة كانت تصرخ وتقول: لا داعي لمثل هذا القلق يا رسول الله.

وعندئذٍ صاحت كلّ القلوب المؤمنة معترفةً بفضله؛ حتى تردّدت أصداؤها في كلّ جنبات ذلك الوادي الفسيح قائلةً: "نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ، وَأَدَّيْتَ، وَنَصَحْتَ، ثُمَّ قَالَ: بِأُصْبُعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُبُهَا إِلَى النَّاسِ: "**اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ**"[٢٥].

حقًّا، بهذا القلق البالغ تحدّث النبيّ ﷺ عن تلك المهمّة التي تسع دائرة الأمّة كلّها، وأشهدَ أصحابَه ﷺ على ذلك، فيا ترى لو سُئلنا نحن أيضًا عن أولادنا الذين تكفلنا بمسؤوليتهم ورعايتهم، فهل نحن في وضعٍ يسمح بأن يُقال لنا: ستُسألون عنا، فبِمَ ستجيبون؟ أو هل نتوقع منهم جوابًا أن قد أدّيتم؟ وإلا فالويل لنا، من أجل ذلك يقول زين العابدين ﷺ: "إنك

(٢٤) صحيح البخاري، المناقب، ٤٥؛ صحيح مسلم، فضائل الصحابة، ٢.

(٢٥) صحيح مسلم، الحج، ١٤٧؛ سنن أبي داود، المناسك، ٥٦.

مسؤول عما وليته من حسن الأدب، والدلالة على ربه، والمعونة على طاعته فيك وفي نفسه، فمثاب على ذلك ومعاقب"؛ لأن الأهمّ بالنسبة للإنسان هو الارتقاء بأفراد أسرته إلى أعلى مراتب الكمالات الإنسانية، وإشعارهم بمتعة الوجود الأبدي في الآخرة.

أحيانًا نشتري لأولادنا الهدايا في محاولةٍ لإدخال السرور عليهم، بل إننا نفتقدهم حتى عند زيارة بيت الله الحرام أو مسجد سيدنا رسول الله ﷺ، إن الأعمال المباركة والخدمات الجليلة لا تمنعنا من تذكّرهم، غير أن أعظم هدية لا بدّ أن نقدّمها لأبنائنا هي تلقينهم الآداب الإسلامية والآداب المحمديّة، فلا شيءَ يُعادل مثل هذه الهدية التي تكون سببًا في سعادتهم الأبدية في الآخرة.

يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**أَكْرِمُوا أَوْلَادَكُمْ وَأَحْسِنُوا أَدَبَهُمْ**"(٢٦).

د. الأسوة الحسنة

لا شكّ أن كلّ أبوين مؤمنَين يبتغيان تربية أولادهما تربيةً صحيحةً ليكونوا جزءًا من المنظومة السليمة في ذلك المجتمع المثالي الذي نحاول أن نرسم حدوده ونضعه في إطار يتوافق مع ما جاء في القرآن الكريم، غير أن مشاعر هذين الأبوين إن لم تنعكس على حياتهما العملية، ولم تتعمّق بالعبادات كالصلاة والصوم والحجّ والزكاة... إلخ، والأحرى إن لم تتأكّد الأقوال الحسنة التي تردّدها ألسنتهما بالأفعال الحسنة، أو إن لم تكن أفعالهما أصدق من أقوالهما؛ فلا تأثير حينذاك لكلامهما في أولادهما، بل قد يؤدّي هذا الأمر إلى ظهور ردّ فعلٍ معاكس، ولذا يجب على كلّ الآباء والأمهات الذين يطمحون إلى بسط سيطرتهم على

(٢٦) سنن ابن ماجه، الأدب، ٣؛ القضاعي: مسند الشهاب، ٣٨٩/١.

أولادهم أن يُفعّلوا ويُطبّقوا بأنفسهم بدايةً ما يريدون قوله، ويتحرّوا الدقة البالغة في هذا الأمر، وبعد ذلك يطلبون من أولادهم تنفيذَ ما يقولون.

ولعلّ الحادثة المنسوبة للإمام الأعظم ﷺ تفيدنا في تسليط الضوء على هذا الموضوع:

أُتي الإمامُ ﷺ بصبيٍّ يضره العسل إلا أنه يعاند ويصرّ على أكله رغم نصح أبويه الدائم بعدم تناوله، فقال والدُه: يا إمام، إن هذا يأكل العسل، ورغم نصحنا له بعدم تناوله فإنه لا يزال يُصرّ على أكله، فقال الإمام ﷺ: ائتياني به بعد أربعين يومًا، ولما انقضت المدّة جاءا به مرّةً أخرى إلى الإمام الذي أقعدَ الصبيَّ أمامه وأوصاه بالإعراض عن تناول العسل، فلما نهض الصبيُّ لثمَ يد أبيه، وقال: أبتاه، لن آكل العسل مرّة أخرى، فاندهش الحاضرون وقالوا: لِمَ لَمْ تنصحه عندما جيء به أوّل مرّة، وأنظرْتَهم أربعين يومًا، فقال لهم الإمام:

> "حينها كنتُ آكل العسل، فلو أنني حاولت أن أُثْنِيَه عن فعل شيءٍ أفعله لما وجدَتْ نصيحتي صداها في نفسه، ثم إنني أردت أن أطرح عن جسمي أثر العسل خلال الأربعين يومًا، ثم أنصحه".

أجل، لا بدّ من صدق القول والعمل معًا؛ لأنه إن وقع تضادٌّ بين أقوالنا وأفعالنا اهتزّت ثقة الأولاد بنا، فإن لاحظوا كذبنا أو مغايرة أقوالنا مع أفعالنا ولو مرّةً واحدةً فقدوا ثقتهم بنا طالما احتفظت أذهانُهم بهذه الذكرى، وقد تتسبب هذه الذكرى السيئة في شيءٍ من الاستياء منا في المستقبل إبان صدور ما يثير غضبهم منا، فلا تجد أقوالُكم صدًى في أنفسهم ألبتة، من أجل ذلك لا بدّ أن نضبط سلوكيّاتنا حتى يعتبرنا أولادُنا في البيت كالملائكة لا مجرّدَ والدَيْن لهم، يجب أن يروا فينا الجدّية

والوقـار والدقـة، وأن يثقوا بنـا ثقةً كاملة، فإن نجح الأبـوان في نقل هذه المشاعر والأفكار وتمثيلها تمثيلًا صحيحًا فقد يُعدّان من أعظم المعلمين.

٤- مسؤولية الأُبوّة والأُمومة

إنّ كلّ شـخص مسـؤولٌ عن رعيّته؛ مسـؤولٌ عن كلِّ مَن يقـع تحت رعايته، وكلُّ نجاحٍ يحقّقه بخصوص العناية والرعاية سـيُكتب له في دفتر حسناته، وكل قصور سيُكتب له في دفتر سيّئاته.

يقول سـيد بني البشـر محمد ﷺ في حديث أخرجه البخاري ومسلم: "**كُلُّكُـمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْـؤُولٌ عَـنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْـؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُـلُ رَاعٍ فِـي أَهْلِـهِ وَهُوَ مَسْـؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِـهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَـةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْـؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَـيِّدِهِ وَمَسْـؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِـهِ**، (قال راوي الحديث: وحسـبتُ أن قد قـال:) **وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**"(٢٧).

ولمّـا كان الموضـوع متعلقًا باعتبار الأبناء أمانـةً رأينا الحديث التالي متعلقًـا بموضوعنـا: "**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَـى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**"(٢٨).

أجـل، إن كلّ مولـودٍ يولَد على فطـرةٍ نقيّةٍ مهيّأةٍ لتقبّل كلّ شـيء، ثم يُعهد إليكم بالعمل على رُقيّ قابليّاته واستعداداته؛ أي تربيته، ثم قد يغدو هـذا الطفل يهوديًّا أو نصرانيًّا أو مجوسـيًّا تبعًا لعقيـدة أبويه أو للبيئة التي يعيـش فيهـا، وقد يصبح مارقًا أو مُلحدًا -نسـأل الله السـلامة-، ولذا كان التديّن من الأهمّيّة بمكان في مسألة تنشئة الجيل وتربيته.

(٢٧) صحيح البخاري، الجمعة، ١١؛ صحيح مسلم، الإمارة، ٢٠.

(٢٨) صحيح البخاري: الجنائز، ٨٠؛ صحيح مسلم، القدر، ٢٢.

والحـقّ أننـا إن لم نعمـل على صياغـة أبنائنا وفقًا لجذورنـا الروحيّة والمعنويّـة وهـم الذين جاؤوا مهيّئين لتقبّل كلّ شـيء فلا مناص من أنهم سينشـؤون مصطبغيـن بقوالـب أخـرى، تودي بهـم فـي دركات الضلال والضيـاع، ومـن يدري فقـد تجدون أنفسـكم يومًا ما آبـاءً لأبناء ملحدين -نسأل الله السلامة- ولذلك لا بدّ أن نؤصّل في هؤلاء الأبناء عصارةَ ولبّ أرواحنا في حينها، وأن نحول بينهم وبين اغترابهم، فإذا كنا نلقّح الأشجار فـي حدائقنا وبسـاتيننا، ونسـتخدم حقّنا في التدخّل فـي هذه الموجودات وفقًـا لمـا يقتضيه العلم والتِقَنِيَة في محاولـةٍ للحصول على أفضل الثمار، ألا يجـدر بنـا أن نوجّه العناية والرعاية -في إطار مبادئنا- لأبنائنا الذين لا يقلّـون فـي المرتبة عن الحطب والحجر والشـجر والتـراب؟ فإذا كان من المحتمل تعرّضهم لخطرين اثنين في حياتهم: توقُّف النمو الروحيّ بسبب عدم الرعاية، والطغيان بسـبب محاولات الإفسـاد؛ فإنهـم يتفردون بميّزة وحيدةٍ وهي التربية الحسنة التي يقوم عليها أباؤهم وأمهاتهم.

أجـل، قـد يتعفّن أولادُنا أو يتعرّضون للفسـاد على أيدي الآخرين إن لـم نسـعفهم بالتدخّـل الإيجابي، وفي كلتـا الحالتين يتبعـون منهجًا على خلاف رغبتِنا.

ولقد أَهمل الآباء أولادهم في وقتنا الحاضر بسـبب انشـغالهم الكلّي بالأمور الدنيوية، بل إنه من المتعذّر أن نجد عصرًا شـاع فيه إهمال الأبناء مثل عصرنا هذا.

روي في الأثر عن النبي ﷺ قال:

- "**وَيْلٌ لِأَبْنَاءِ آخِرِ الزَّمَانِ مِنْ آبَائِهِمْ**".

- قالوا: يا رسول الله مِن آبائهم المشركين؟

- "**مِنْ آبَائِهِمُ الْمُسْلِمِينَ**".

- كيف هذا يا رسول الله؟

- "**لَا يُعَلِّمُونَهُمُ الْفَرَائِضَ، وَإِذَا تَعَلَّمَ أَبْنَاؤُهُمْ مَنَعُوهُمْ، وَرَضُوا مِنْهُمْ بِعَرَضٍ يَسِيرٍ مِنَ الدُّنْيَا، فَأَنَا مِنْهُمْ بَرِيءٌ وَهُمْ مِنِّي بُرَآءُ**".

نعم، أُهملت الفرائض الدينية في سبيل الحياة الدنيا القصيرة، لقد أهمل المسؤولون كليةً التعليم والتربية الدينية، ووجّهوا أنظارهم إلى الحياة المادّيّة ليس إلّا، وركّزوا هممهم وجهودهم عليها، ولم يُعنَوا بالحياة الروحية والقلبيّة للأجيال، بل لم يأبهوا بتدريسهم القرآن وإبراز ما فيه من أبعاد روحيّة ومعنويّة، وبتعليمهم الدين والتديّنَ والعلومَ الشرعية بحجّة أن ذلك يشغل حيّزًا كبيرًا من أوقاتهم.

وهذا يتوافق تمامًا مع الآية الكريمة: ﴿**كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ**﴾ (سُورَةُ القِيامَةِ: ٧٥/٢٠-٢١).

فقوله: "**فَأَنَا مِنْهُمْ بَرِيءٌ وَهُمْ مِنِّي بُرَآءُ**" يعني أن الأبوين اللذين يُهملان أولادهما ويغضّان الطرف عن ضياعهما؛ بل ولا يصيبهم الاضطراب والرجفة من جرّاء هلاك النسل، فرسول الله ﷺ بريءٌ منهم، وهم بُرآء منه.

وأحسب أنه ينبغي لكلِّ الآباء الذين لم تمُتْ مشاعرهم أن تأخذهم الرجفة والقشعريرة إزاء هذا التنبيه والإنذار الشديد، بل لا بدّ من ذلك.

ولما أُثيرت أمامَ الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ﷺ مسألةٌ تتناول مثلَ هذه المسؤوليّة الحياتيّة المهمّة وقع مغشيًّا عليه، ولم يفق لمدة أربعٍ وعشرين ساعة، حتى إنهم اعتقدوا أنه سيموت، وأخذوا يقرؤون القرآن بجواره، فلما أفاق من غشيته أخذ يشهق بالبكاء، ولمّا سألوه؛ أخبرهم بأنّ ما أصابه إنما هو من خشيته لله تعالى.

أجل، لقد شعر بقدر المسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه رعيته، وكان يرتجف خوفًا من أن يكون قد اعتدى على حقوقها.

ولكن ما بالنا نحن اليوم؟ إننا أناسٌ غلاظ القلوب؛ كيف يمكن لأبوين أن يُؤسّسا بيتًا لإشباع ملذّاتهما الشخصية فقط، ويُهملا قلوب وأرواح أولادهما اللذين تسبّبا في وجودهم؟!... فيا تُرى كم مرّةً يجب أن نقع مغشيًّا علينا، أو تصيبنا الرعشة والرجفة؟

والحقّ أن كل الأحاديث الواردة في هذا الموضوع قد جاءت من باب الترغيب والترهيب، ولذا سنتناول نحن أيضًا الموضوع من هذه الزاوية، ولكن هذا الموضع تكتنفه مهامّ ومسؤولياتٌ ينيطها بنا الإسلام والقرآن في قضية تربية الأبناء وصياغتهم صياغةً صحيحةً، وهناك مبدأٌ أساسٌ سردناه سابقًا ووعدنا بشرحه لاحقًا، وهو: مسألة أن يكون الأولاد أصحاب شعورٍ وفكرٍ عميقٍ وأخلاقٍ ودينٍ، يروننا في هذا البيت آباءً أعزّاء أو أمّهات كريمات ويحترموننا، بل يروننا حكماء في كل أحوالنا، فهذه الأمور من مسؤولياتنا التي تحتلّ قدرًا كبيرًا من الأهمّيّة.

ولنفصّل هذه المسؤوليّات على النحو التالي:

أ. العدل بين الأبناء

يأتي على رأس هذه الأمور مبدأ عدم تفضيل أحد الأبناء على الآخر. أجل، إن أيّ تقصير في هذا الأمر كفيلٌ بأن يُفقِدَنا السيطرة على أبنائنا، وتوجيهات النبي ﷺ في هذا الموضوع لها مغزًى كبير وعميق:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه -له ولأبيه صحبة وأبوه من أصحاب بدر- قال: "أعطاني أبي عطيّةً، فقالت عمرة بنت رواحة (وهي أمُّ النعمان وزوجة بشير): لا أرضى حتى تُشهِد رسولَ الله ﷺ، فأتى رسولَ الله ﷺ، فقال: إني

أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطيةً، فأمرتني أن أُشهِدك يا رسول الله، قال: "**أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا؟**"، قال: لا، قال: "**فَاتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ**"(٢٩).

أي راعِ كلّ أبنائك، وليس واحدًا منهم فقط، فإن وجّهتَ عنايتك واهتمامك بواحدٍ منهم فقط وأجزلتَ له في الهبة والعطيّة؛ ضعُف شعور البِرّ لدى باقي الأولاد تجاهك، وتزعزَعت ثقتهم بك.

حقًّا، لقد وضع النبي صلوات ربي وسلامه عليه حلًّا جذريًّا لهذه المسألة، وحلّ المشكلة المحتملة من الأساس، إن تفضيل أحد الأبناء على الآخرين من شأنه أن يثير مشاعر الآخرين نحوه، بل ويجعلهم أعداءً له، لا تعتقدوا أننا نشرح هذه المسائل اعتمادًا على المبادئ الضيّقة لعلم النفس، وإنما نحنُ نركّز هنا على عالمية الحقائق التي يريد القرآن أن يرسّخها في أرواحنا، وعلى موافقتها لطبيعة الإنسان ومعقوليّتها ومنطقيّتها وإنسانيتها.

وكما هو معلومٌ أن نبي الله يوسف بن يعقوب ﷺ رأى في منامه أن النجوم والشمس والقمر يخرّون له ساجدين، فما كان من أبيه الذي كان من المفترض أن يسعد ويفتخر بهذا الأمر إلا أن ﴿**قَالَ: يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾ (سُورَةُ يُوسُفَ: ٥/١٢)، لأن هذا النبي العظيم كان يدرك بنبوته كنهَ الطبيعة البشرية؛ فأحسّ أن هذا الأمر سيثير غيرةَ إخوته نحوه، فقصُّ مثلِ هذه الرؤيا لا بدّ وأنه سيفضي إلى غيرة الذين لمّا يبلغوا بعدُ مرتبةَ تزكية النفس، ومع الأسف تحقق في النهاية ما كان يخشاه عليه السلام؛ حيث ألقوا أخاهم يوسف عليه السلام في غيابة الجُبّ، وقد كشفوا بصنيعهم هذا أثر الغيرة في الإنسان

(٢٩) صحيح البخاري، الهبة،١٢؛ صحيح مسلم، الهبات، ١٨.

حتى وإن كان في بيت النبوّة. أجل، بدهيّ أن تفضيل أحد الأبناء على إخوته سيثير لديهم شعور الغيرة والحسد وكرهًا لا شعوريًّا بسبب اختلاف المعاملة.

ويمكننا أن نستوعب هذه الأفكار بشكلٍ أفضل من خلال العوامل النفسيّة الشعورية واللاشعورية التي ينتج عنها حبّنا وكرهنا وصداقتنا وعداوتنا:

فعلى فَرَضِ أن لكم صديقًا صدوقًا حميمًا، لكنه ذات مرّةٍ لم يتعامل معكم بروح الإيثار، وتغلب عليه شُحُّه، فقام بتصرّفٍ غير متوقّع ألبتة، فلا شك أن هذا التصرّف سيظلّ محفورًا في ذاكرتكم إن شئتم أو أبيتم، لأن كلّ حادثة تمضي بعد أن تترك أثرًا في حفيظة الإنسان، فإذا ما أعقبتها حادثة أخرى سرعان ما تنبعث وتحيا من جديد، وهكذا أنتم؛ إن قابلَتْكم حادثة أثارت هذه المشاعر البغيضة -التي تنام في سكون ضمن دائرة اللاشعور عندكم- وألهبتها؛ ثارت ثائرتُكم على الفور، وإن تراكمت هذه الحوادث السلبية فوق بعضها وانبعث عددٌ منها من جديد؛ فإنكم سرعان ما تقومون بتوبيخ هذا الشخص وتجتهدون في الدفاع عن أنفسكم.

هكذا الأطفال! فأي موقف سلبيّ بينكم وبينهم يستدعي أفكارًا مترسّخة في عقولهم أو في منطقة اللاوعي عندهم، ومن ثمّ يتسبب هذا الموقف في حَنَقِ الطفل عليكم وعدم إطاعته لكم بالكلية.

إنّ ما ذكرناه يشكّل جانبًا واحدًا فقط للمسألة، فإذا ما فكّرنا في المسألة على أنها شاملةٌ لكلّ مراحل حياة الطفل بات الأمر أكثرَ تعقيدًا، وخاصّة إذا ما اعتبرتموه طفلًا لا غير، ولم تقدّروا الوضع الذي سيكون عليه في المستقبل، فسيأتي يوم تتضررون فيه أنتم وأبناؤكم بسبب خطئكم هذا.

الذي يشهده الطفل في البيت من أقوال وأفعال متناقضة قد لا تظنون أنه يدركها، إلا أنها تثبت في ذاكرته وكأنها مقيّدة في دفترٍ، فإذا ما آنَ أوانها برزت كلُّها إلى الوجود على الفور. أجل، إنها تَظهَر لدرجة أنها تجرف العائلة والأبوين وتنحدِرُ بهم.

ومن ثَمّ فعلى كل مَن يبغي أن يكون أبًا أو أمًّا أن يأخذ قسطًا من علوم النفس والتربية، أو يتعلّم مبادئ القرآن الأساسية في هذا الشأن إجمالًا على الأقل، ثم يشرع في حياته الجديدة؛ لأن تربية الأبناء ليست أمرًا بسيطًا.

لقد تطلعتُ إلى تعلّم النحالة ذات يوم، وبالفعل ذهبتُ وأخذتُ دورة في هذا الموضوع، فأدركتُ مدى صعوبة الاشتغال بالنحل، فينبغي للإنسان أن يتعرّف على سبيل تربية الأجيال الصالحة؛ حتى يزوّد المجتمع بمواطنين صالحين، فالإنسان كائنٌ عظيم لديه استعداداتٌ كبيرة وطاقات عظيمة تؤهله لأن يرتقي إلى "أعلى علّيين" أو ينحدر إلى "أسفل سافلين"، وعلى ذلك لا بدّ لكلِّ شخصٍ أن يعلم مدى أهمية تربية ذلك الكائن العظيم والارتقاء به إلى مستوى الإنسانية الحقيقية.

ب. إنزال الأطفال منزلة الكبار

كان الرسول الأكرم ﷺ يحتفي حفاوةً كبيرة بالأطفال، وكان إذا ما قابلهم جاملهم ولاطفهم وكأنهم رجالٌ كبار؛ ويضع بعضهم على ظهره، ويأخذ الآخرين في حضنه، ويعاملهم بالتساوي وبأسلوبٍ يُرضي الجميع، وإذا ما مرّ عليهم في الشارع وهم يلعبون نظر إليهم بإكبار وعاملهم بوقارٍ وبادرهم بالسلام، فكانوا يردّون عليه بدورهم قائلين: "وعليكم السلام يا رسول الله".

وكان رسـول الله صلوات ربي وسـلامه عليه يقدّرهم ويبجّلهم كثيرًا، فـإذا مـا وعد أحدَهم وعدًا كان يفي به في حينه وأوانه وكأنه عاهد إنسـانًا كبيرًا.

ج. إشعارهم بالثقة

من الأمور التي تعدّ وصمة عار على جبين الإنسانية فقدانُ الناس ثقتهم ببعضهـم، فقد كان سـيدنا رسـول الله ﷺ يشـدِّد دائمًا علـى الثقة والأمانة، وكان ﷺ رمزًا لذلك عند الصغار كما الكبار، كان الجميـع يدعوه "الصادق الأمين"، ولا شكّ أنّ الأمة التي يشكلها مثل هؤلاء ستغدو أمينةً أيضًا.

فضـلًا عـن ذلك يقـول رسـول الله ﷺ: "**إِنَّ الله لا يَرْحَمُ مَـنْ لا يَرْحَمُ وَلَـدَهُ**"[٣٠]، يدعو أمّته أن يكونوا رجال قلب، فيوصيهم بوصايا عدة معناها الإجمالي: أحِبُّوا أولادكم، وأوفوا بعهودكم معهم مهما آلت إليه الظروف، فلا يروا منكم تناقضًا بين أقوالكم وأفعالكم... والرسول ﷺ بهذه الوصايا يشير إلى أسمى النقاط المثالية في التربية.

وهنا نشير إلى حديثٍ مهمّ في هذا الباب:

عن عبد الله بن عامر ﷺ أنه قال: دَعَتْنِي أُمِّي يَوْمًا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَاعِدٌ فِي بَيْتِنَا، فَقَالَتْ: هَا تَعَالَ أُعْطِيكَ، فَقَالَ لَهَا رَسُـولُ اللهِ ﷺ: "**وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيـهِ؟**" قَالَـتْ: أُعْطِيهِ تَمْرًا، فَقَالَ لَهَا رَسُـولُ اللهِ ﷺ: "**أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطِهِ شَـيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَةٌ**"[٣١]، وهذا التصريح يبيّن مدى الخطإ الذي نقترفه عندما نقول: "لا ضير في الكذب على الطفل أو خداعه، فهو مجرد طفل".

أجـل، إن كلّ خـداعٍ أو قولٍ يناقض الواقـع يترسّـخ كالبذرة في ذهن الطفل، ثم يغدو يومًا ما -اليوم أو غدًا- كشجرة الزقوم؛ ومن ثمّ لا يجدي

(٣٠) مسند البزار، ١٤/١٢.

(٣١) سنن أبي داود، الأدب، ٨٠.

كل ما بذلتموه من جهودٍ تربوية، فلا بدّ أن يتحرّى الأبَوان الاستقامة على الدوام، ولا بدّ أن تكون من مبادئ أرباب الصراط المستقيم انسيابيّة الصدق من بين أفعالهم.

أجل، عليكم ألا تسمحوا بأن ينظر الطفل إليكم على أنّكم كاذبون، تنقضون العهود، وتطمعون في عرض الدنيا الزائف، بل يجب أن يلمس فيكم ويتعرّف من خلالكم على الدوام على خصال الإيثار والتصدّق والإيمان والإسلام والصبر والخشوع والعفة.

د. التدرّج في التربية

يجب علينا أن نعلّم أطفالَنا ما يجب أن يعرفوه، وأن نجنّبهم من المعلومات ما يجب أن يجتنبوه، لا بدّ أن يتعرّفوا على المسائل التي تعينهم في حياتهم القلبية والروحية، ويتشبّعوا بالعلوم النافعة حسب سنّهم ومستواهم، وهذا الموضوع سنتناوله بالتفصيل في الفصول القادمة إن شاء الله تعالى.

وكما تلجؤون إلى طبيب الأطفال في مسألة تغذية الطفل؛ ليضع لكم نظامًا تسترشدون به في تغذيته الأسبوعية والشهرية، فكذلك عليكم أن تلجؤوا إلى أهل العلم والاختصاص في تربيته وتعليمه وتعرضوا عليهم حالة ولدكم وتستعينوا بآرائهم؛ كأن تقولوا: لديّ طفلٌ في الخامسة من عمره فماذا عليّ أن أفعل تجاهه، أو لدي ابن في العاشرة أو الخامسة عشرة من عمره، فماذا يمكنني أن أفعل معه؟ وهكذا يجب أن يكون كلّ موضوع مقيّدًا بأفكارهم وآرائهم.

أجل، على كلّ الآباء والأمّهاتِ أن يلجؤوا إلى أهل الاختصاص ويأخذوا الوصفة منهم، ويجتهدوا في تربية أبنائهم وفقًا لهذه الوصفة

والمبادئ التي تحتويها، فإن تحديثكم أبناءكم عن الله تعالى بلا سندٍ أو دليلٍ وقد بلغوا سنَّ الثانوية قد لا يُنتِجُ سوى كفرهم وإلحادهم والعياذ بالله، ولربما يجب في هذه المرحلة العمريّة أن تتداخل العلوم الدينية مع قدرٍ من العلوم الطبيعية حتى يجدي حديثكم التأثير المرجوّ في أنفسهم، ولكن إن حاولتم تلقينهم بعض العلوم الفلسفية وهم لا يزالون في المرحلة الابتدائية فلا ريب أنكم ستشوّهون أفكارهم كليّةً، ومن ثمّ عليكم أن تكونوا كالأطباء الحاذقين في معاملتهم مع مرضاهم؛ وتقدّروا مستوى أولادكم وظروف عصرهم ومحيطهم الثقافي، ثم تزوّدوهم بالمعلومات اللازمة وفقًا لهذه الأمور.

الفصل الثالث
الدقّة في التربية

الدقة في التربية

لا شكّ أن البيت الذي أسّستموه أو تفكّرون في تأسيسه سيعِدُ بمستقبلٍ مشرقٍ إن كان في إطارٍ يرضي الله تعالى ورسوله ﷺ، وبتعبيرٍ آخر: إن أنشأتم ذريةً تنشدون من ورائها أن تكون أمة للرسول الأكرم ﷺ بحقّ، فما أسعدكم وأشرق مستقبل ذريتكم! وإن أنشأتم ذريةً على خلافِ ذلك -بأن تركتموها للشوارع ولم تبالوا بدينها وتديّنها حتى أصبحت عدوًّا للمسجد والمجتمع- فما أتعسها، وأنتم مَن يتحمّل مسؤوليّة ذلك.

وهذا أولًا ظلمٌ للأولاد ثمّ للمجتمع، وليس لأحدٍ الحقّ في ارتكاب مثل هذا الظلم، ولا ريب أننا سنُحاسب على أن هذه الذرية نشأت تُضمر العداوة للإسلام، وتتغذّى بالحرام وتنتهك القواعد العامة بسبب أفعالها غير المشروعة، وإن من أوائل المهام التي تقع على عاتقنا هي تنشئة جيلٍ صاحب غايات مثلى، مرتبطٍ بجذوره المعنويّة، عميقِ الفكر، واسع الأفق، رحيم، يحترم الناس ويوقّرهم... وهذه الوظيفة المهمة تبدأ بتأسيس البيت على نحوٍ واعٍ، ويُكتب لهذا البيت البقاء بعناية الله إن اقترن بالعقل والمنطق.

وعلى ذلك لا بدّ من تناول الأسرة كمؤسّسةٍ تعتمد على روح الدين، وتدور في فلك العقل والشعور، وجعلِ رضا الله تعالى أساسًا للحفاظ على بقائها، لقد أشار النبي ﷺ كما ورد آنفًا إلى أنه سيفتخر بتكاثر أمته، فإن كانت الأجيالُ لا تعرف الله ورسوله، أي لا تستحق أن توصف بأنها

مـن "أمـة محمد عليه الصلاة والسـلام" فلن تحـوز أيَّ قيمة عند الله، ولن تكون لها أيّة قيمة عند رسول الله ﷺ مهما بلغت كثرة عددها.

من أجل ذلك ينبغي أن نتوجه إلى الله ﷻ باسـتئصال شـأفة النزعة إلى الشـر عن طريق الاسـتغفار والإنابة إلى الله، وبتعزيز نزعة الخير عن طريق العبادة والقيام بالأعمال الخيّرة، كما تجب المحافظة على الانتظار النشط بمواصلة القيام بالأعمال التي لا بدّ من تأديتها قولًا وفعلًا وقلبًا.

يقـول ربنـا تبـارك وتعالى في كتابـه الكريم: ﴿**قُـلْ لَا يَسْـتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٥/١٠٠).

أجـل، قد يُدهشـكم كثـرة الخبث والخبثـاء، ولكن يجـب أن تعلموا أنـه لا يسـتوي الخبيث والطيـب مطلقًا عند الله تبارك وتعالـى، إذًا عليكم أن تهتمّـوا بتربيـة الذرية التي قـد تذكّركم بالجنة بروائحهـا المعنوية التي تنشـرها، وأن ترعـوا هذه الذرية الطيبـة، وأن تعملوا علـى أن تكونوا آباءً معلمين ومربين لها.

١- علّة الوَهْن

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**" (يعني ستتداعى عليكم لسلب أموالكم ومصادرة ممتلكاتم)، فَقَـالَ قَائِـلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: "**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّـيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُـدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِـي قُلُوبِكُـمُ الْوَهْنَ**"، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُـولَ اللهِ، وَمَـا "الْوَهْنُ"؟ قَالَ: "**حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**"(٣٢).

(٣٢) سنن أبي داود، الملاحم، ٥؛ مسند الإمام أحمد، ٣٧/٨٢.

أجل، إن أيَّ مجتمعٍ يعتبر الجوانبَ الجسمانيةَ للدنيا مقصودةً لذاتها، ويتّجه بقلبه وروحه إليها، ويغضّ الطرف عن مرضاة الله ﷻ؛ بمعنى أنه يفضّل الدنيا وما فيها على الله تعالى؛ فلا قبل لنا أن نقول إنه مستقيمٌ قلبيًّا وروحيًّا حتى وإن كان يشهد أن لا إله إلا الله.

إن رسول الله ﷺ يقول: "**لَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ**"، وفي حديثٍ آخر ينبّه صلوات ربي وسلامه عليه إلى إهمالٍ مهمّ آخر يُفضي إلى نزع المهابة من القلوب، وهو: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإغفال الحديث عن القرآن والبعث والنشر، يقول ﷺ: "**كَيْفَ بِكُمْ إِذَا فَسَقَ فِتْيَانُكُمْ، وَطَغَى نِسَاؤُكُمْ؟**" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّ ذَلِكَ لَكَائِنٌ؟ قَالَ: "**نَعَمْ، وَأَشَدُّ مِنْهُ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا لَمْ تَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ؟**" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّ ذَلِكَ لَكَائِنٌ؟ قَالَ: "**نَعَمْ، وَأَشَدُّ مِنْهُ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا، وَالْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا؟**"(٣٣).

إذًا لا بدّ أن تكون أعظم غاياتنا هي تربية نشءٍ قويّ الإيمان، قويٍّ إلى أقصى درجة من الناحية الماديّة والمعنويّة، ذي إرادةٍ يستطيع بها أن يشقّ الجبال، ذي بصيرةٍ يستحقر بها الدنيا بوجوهها الجسمانية والنفسانية، ربانيّ لا يسمح بسريان الوهن إلى قلبه، مفعمٍ بالحيوية والفتوّة والمهابة من رأسه حتى أخمص قدميه أمام الأعداء.

٢- وظيفة المرأة

لا بدّ أن يساور الجميعَ القلقُ والخوفُ من غيرة الله ﷻ إذا ما أُهمل الأولاد وأُغوي الشباب وصاروا متاعًا للشهوة والرغبات، ولم تؤدّ المرأة مهمتَها.

(٣٣) عبد الله بن مبارك: **الزهد والرقائق**، ٤٨٤؛ أبو يعلى: **المسند**، ١١/٣٠٤.

أجل، إن النسل الذي يطلق عِنان نفسه للذنوب والآثام بمحض إرادته وينساق وراء شهواته لهو نسلٌ بائسٌ تعيسٌ، معرّضٌ في كلّ آنٍ لنزول غضب الله عليه.

من أجل ذلك كانت أوّل مهمّة تُلقى على عاتق كلّ عائلٍ أن يُحسن اختيار رفيقة حياته من الْمُسْلِمَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْقَانِتَاتِ الصَّادِقَاتِ الصَّابِرَاتِ الْخَاشِعَاتِ الْمُتَصَدِّقَاتِ الصَّائِمَاتِ الْحَافِظَاتِ فروجَهنّ الذَّاكِرَاتِ اللهَ كثيرًا، فمن أهمّ أركان السعادة الدنيوية والأخرويّة أن تكون رفيقة الحياة معلّمةً فاضلةً ومربّيةً كريمةً؛ يشاطرها الرجل كلَّ شؤون حياته. أجل، لا بدّ أن تكون ذات عقل وقلب؛ حتى تفهم مشاعر زوجها الدنيوية والأخروية إذا ما حدّثها عنها، فإن كلّ طفلٍ ينشأ في هذا البيت سينمو ويترعرع تحت رعاية هذه المربية والمعلّمة الفاضلة.

٣- الأسبقية للكيفية

يبين القرآن الكريم في آيات عدة أن كثرة العدد ليس لها الأسبقية، فأهميتها محدودة، فمن هذه الآيات: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ**﴾ (سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٢٥/٩).

إن غزوة "حنين" هي الغزوة التي قام بها الرسول ﷺ عقب فتح مكة، لم يتصرّف الصحابة ﷺ فيها بدايةً بمقتضى ماهيتهم؛ حيث اعتقدوا أن الجيش الإسلامي لا يمكن أن يقهره أحد؛ ثقةً في دوام عناية الله وفضله؛ حتى قال بعضهم: "لن نُغلب اليوم من قلّة"، ولكن لمّا انهالت عليهم سهامُ "ثقيف" أُصيبوا بدهشة مُرْبِكة مؤقّتة فتراجعوا متبعثرين، وهذا يعني أنه حتى من بين "الرِّبِّيّين" أيضًا مَن يفكّر على هذا النحو، وأن كثرةَ العدد ليست أهمّ شيء، إنما المهم هو العمق والكيفية وسعة الأفق.

إن الصحابة ﷺ كانوا من المقرّبين، فإنّ رجّتهم المؤقّتة وتراجعَهم قد يُعدّ ذنبًا بالنسبة لهم وليس لنا، إذ "حسناتُ الأبرار سيّئاتُ المقرَّبين"، نعم، إن الكثرة ليست أهمّ شيء؛ وهذا هو ما وضّحه القرآن الكريم كما سلف، فعلى المسلمين أن يربطوا كلّ أمرٍ بعلاقتهم بالله ﷻ، وبالكيف والعمق الداخليّ لا بالكمّ، فإنكم أمة محمد ﷺ مهما كنتم قليلي العدد إن توجَّهتم إلى ربكم وكان الأملُ والشوق إلى تبليغ كلمته يحدوكم، فلا جرم أنّ التوفيق سيحالفكم بفضلٍ من الله وعنايته، ولكن إن خلدتم إلى السكون والراحة في بيوتكم، ونسيتم علاقتَكم بربّكم فلا قيمةَ لكم ألبتّة مهما كثُر عددكم.

٤- واجبنا نحو الطفل

أ. تهيئة المناخ التربوي

حتى نتمكّن من تربية أبنائنا تربيةً نموذجية لا بدّ من تهيئة الجوّ المناسب للقيام بذلك، فكلّ إنسان يتشكل وفقًا للوسط الذي ينشأ فيه، بمعنى أن الإنسان ابن بيئته، ويأتي البيتُ أوّلًا في صدر العناصر التي تشكِّل هذه البيئة، فالمدرسة ثانيًا، فالأصدقاء ثالثًا، فالمذاكرة الجماعية رابعًا، إلى غير ذلك ممّا هو موجود في الحياة الاجتماعية، مثل: حانوت الخياط، وورشة النجار... إلخ، فإن لم تستطيعوا تقييد هذا الوسط الذي يتجوّل فيه الطفل، ولم توجّهوا نزعاته إليه، فلا مناص من أنه سيُصاب بفيروسٍ ما ذات يوم، ففساد البيئة يتمخّض عنه -لا محالة- فساد هذا الطفل في يوم ما، من أجل ذلك عليكم أن تهيّئوا الجوّ المناسب لتربية أبنائكم تربيةً مثاليّة؛ بداية من البيت وحتى كلِّ مناحي الحياة وكل موضعٍ في الطريق؛ لأنه من المتعذّر بعد أن يقع ما يقع أن نعود بالزمن إلى الوراء ونصحّح الموقف.

ب. اللقمة الحلال

ومن الأهمية بمكانٍ أن يتغذّى الطفل على الرزق الحلال المشروع؛ بدءًا من المرحلة الأولى لتخلّقه جنينًا في بطن أمّه، وإنّ أيّ خللٍ أو انقطاعٍ في أمرٍ ما يجب أن يُربط بربّنا ﷻ ينعكس بصورةٍ سلبيّة على الطفل، وإنْ بصورةٍ مؤقّتةٍ.

وعلى ذلك فما يجري في عروقكم من قطرة متكوّنة من حرام أو فيه شبهة الحرمة قد يكون سببًا لانحرافٍ مؤقّت أو مؤبَّد لهذا الطفل.

ج. الوقاية من النظرات السيّئة

وكما يجب علينا أن نهتمّ بغذاء الطفل وملبسه ومظهره بعد ولادته فكذلك علينا أن نقيه من النظرات السيّئة الغادرة.

فمثلًا: لا بدّ أن نضع في اعتبارنا أن الشرارات التي تطلقها الأعين المجرمة الخبيثة التي تدنّست مشاعرُها وأفكارها وسلوكيّاتها وأقوالها؛ قد تُعرِّض بعض الأحاسيس الرقيقة لدى الطفل إلى الضعف والضمور.

وكلّ هذه الأمور هي من جملة الوظائف التي ينبغي لنا القيام بها تجاه أطفالنا تعبيرًا عن ماهية العلاقة بيننا وبين ربّنا وديننا، فإن أدّينا هذه الوظائف بدقّةٍ بالغةٍ صار مجتمعُنا مجتمعًا ملائكيًّا.

د. تنظيم محيط الأسرة

جاء في حديث شريف: "**افْتَحُوا عَلَى صِبْيَانِكُمْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ بِـ"لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ"**"(٣٤).

من الطبيعي أن يكون لفظ "الأب والأم" هو أوّل ما يتلفّظ به الطفل، ولكن يجب أن تكون أوّل كلمة تخرج من فمه بشكلٍ إراديّ هي لفظ

(٣٤) البيهقي: **شعب الإيمان**، ٣٩٨/٦.

الجلالـة "الله"؛ لأن الله هـو الأول قبل كل شـيء، وهـو القديم الباقي وهو الآخِـر بعد كل شـيء، ثـم يُبنى ما عـدا ذلك على هذه القاعدة الأساسـية ويُنسـج عددٌ من المصطلحات حولها بما يتناسـب مـع عمر الطفل وأفق إدراكـه مثـل: الوطن والأرض والحرية... إلـخ. فلو أن الطفل يدرس في الابتدائية فليزوّد بمعلوماتٍ تتناسب ومستواه، وإذا كان يدرس في الثانوية ويشتغل بالعلوم الفلسفيّة والاجتماعية فلا بدّ أنْ يُدَعّم بأدواتٍ ومعلومات تتوافق مـع هذا المسـتوى، فإن كان البيتُ مفعمًا بحبّ الله وتوقيره ودوام ذكره فقد رصدنا الهدف المرجوّ وهو أننا جعلنا الطفل يتصرف كما يجب.

أجل، إن البيت الذي يُذكر فيه اسم الله، ويستضيء بالركوع والسجود لله، وتجيش فيه العواطف عند ذكر الله يتيسّر فيه أن تكون أوّلُ كلمةٍ ينطقها الطفل هي اسم الله؛ لأنّ كلّ ما في البيت يجري على ما يرام.

هـ. ضبط جرعة المحبة

علينـا ألا نغالِـي فـي تعلّقنا بأبنائنـا الذين وهبهم الله لنـا فنتوجّه إليهم بقلبٍ ومحبةٍ لا حدود لها فنجعل حبّنا لهم يتوازى مـع حبّنا لربّنا ﷻ، إنّ هـذا قد يُعدّ نوعًا من أنواع الشـرك. أجـل، لا ريب أن الانغماسَ في حبّ الولد ونسـيانَ الله تعالى من الأخطاء الجسـيمة، وأعتقد أنّ هذا هو الحب الممنـوع عنـد الله؛ فإن آثرنا حبّ أيّ فانٍ على حب الله فقد يسـتدعي هذا الحبُّ غيرةَ الله تعالى.

أجل، لا بدّ من الاعتدال في الحبّ لأسباب، هي:

١- أنّ الله هو سلطان القلوب، فيجب ألا تحلّ أيّ محبةٍ محلّ محبته سبحانه وتعالى.

٢- يجب أن نعلم قطعًا أن ما وهبه الله لنا من ولدٍ ما هو إلا أمانة استودعها الله عندنا، وإنّ حبّنا له وتعلّقنا به عبارة عن تشويقٍ ومنحة مسبقة على العناية بهذه الأمانة ورعايتها. أجل، إن حبّنا لهذا الصغير ما هو إلا منحةٌ من الله الرحمن الرحيم لنا، وقد وُهب إلينا حتى لا نقصّر في تلك الأمانة التي أودعها الله عندنا.

و. أسوة حسنة

يجب أن نبتغي من وراء مشاعرنا وأفكارنا وأقوالنا وحياتنا القلبيّة وتصرّفاتنا مع أبنائنا أن نكون قدوةً لهم على الدوام. أجل، إن أردنا تربيتَهم على الوجه الأكمل فعلينا أن نراعي هذا الأمر بدقّة بالغة، فمثلًا إن أردنا أن نجعلهم يحافظون على صلواتهم فلا بدّ أن نؤديها أمام أنظارهم باهتمام بالغ حتى يروا خشيتنا لربّنا وأدبنا معه ﷻ، وإن كنا نرغب في أن يكونوا صادقين فلا بد أن يكون الصدق ديدَنَنا والكذب بمنأى عنّا، وإن أردنا منهم أن يعصموا ألسنتهم من الكلمات النابية فعلينا ألا نردّد هذه الكلمات داخل البيت، وألا نسمح لها أن تأخذ حيّزًا في ذاكرتهم، وإن كنا نودّ أن يكونوا أعزاء يعيشون بشرفٍ ويحافظون على عرض وشرف الآخرين كما يحافظون على عرضهم وشرفهم فلا بدّ أن يعايشوا هذا الوضع في البيت أوّلًا، وأن نكون لهم الأبطال الأوائل في هذا الأمر، وإن كنا نحبّ أن يقرؤوا القرآن ويتعرّفوا على حقائقه فلا بدّ أن نتذاكر القرآنَ صباح مساء في بيوتنا وهم يستمعون إلينا، وأن نحترم هذا الموقع السامي للقرآن الكريم حتى لا ندفعهم إلى التناقض في مشاعرهم.

والحاصل أن الأقوال والأحوال والتصرّفات والانفعالات القلبيّة هي أنجع أسس التعليم في البيت وأكثرها تأثيرًا، فلا بدّ من استغلالها،

وإلا فإننا لو أحلنا أمر التربية والتعليم إلى الآخرين واكتفينا بذلك ما كان بمقدورنا فيما بعد أن نلقّن أولادنا شيئًا.

ز. إكساب الأطفال حبّ الله والعرفان بالجميل

كما هو معلوم فإن الطفل لا يقع عليه تكليفٌ حتى المرحلة الابتدائية، بل إلى مستوى أعلى من ذلك أحيانًا، ومن ثمّ فلا يُحاسب في هذه المرحلة على أخطائه في الصلاة والصوم وسائر التكاليف الشرعية، وليس لنا أن نعاتبه أو نعاقبه ألبتة.

ولكن علينا أن نعلم أن كلّ ما نلقّنه للطفل -في هذه المرحلة التي لم يُكلّف فيها بَعدُ- لا يغيب عن ذاكرته وذهنه وقلبه طوال عمره، ولذا كان من الأمور التي يجب التأكيد عليها بهذه الدرجة في تربية أطفالنا شعورُ العرفان بالجميل. أجل، من الأهمية بمكانٍ أن نُكسِبهم شعور العرفان بالجميل، فعليهم أن يتعرّفوا على النعم التي تُساق إليهم ويشكروا ربَّهم عليها ثم الناسَ، وقد يتعمّق هذا الشعور فيصبح الطفل دائمَ الثناء والحمدِ لله على ما وهبه من نِعَمٍ، كثيرَ الشكر للناس على إحسانهم إليه.

أجل، علينا أن ننمّي مشاعر الإحسان والعرفان بالجميل لدى أطفالنا، ونجعلهم كالصيارفة يعرفون قيمة الجواهر التي تصل إلى أيديهم؛ وبذلك نرسّخ في أذهانهم المعبودَ المطلق بكلّ تجلّيات جلاله وجماله، فيعترفون بالجميل للناس على إحسانهم فيشكرونهم، وإن واجهتهم مصيبةٌ قالوا: "الله المستعانُ"، بل قد تصير مسألة العرفان بالجميل مع الوقت سمةً من سماته، فيشكر الله طواعية وبلا تكلّف على كل نعمةٍ منه ﷻ.

وثمة أمرٌ آخر يتعلّق بهذا الموضوع وهو أن نحدّث أبناءنا عن رأفة الله واهبِ النعم ورحمتِه، علينا أن نُجيّش شعورَ الثقة والحبّ لله لديهم بأن نقول لهم: "هو الرؤوف الرحيم، يحمينا ويقينا ويحفظنا من كلّ البلايا

والمصائب"، بل ونحدّثهم بلغةٍ مناسبةٍ لمستواهم عن الرزق الذي يسوقه الله لأصغر المخلوقات حتى الحشرات شفقةً منه ورأفةً ورحمةً، وبذلك نرسّخ علاقة أبنائنا بربهم ﷻ.

وبهذا يتجسّم الكون كله في ذهن الطفل قارئًا يتلو اسمي الرحمن الرحيم؛ فيشعر حينذاك أن هناك مالكًا لكلّ ما في بيته من نِعَم، فتبدأ النفس التي ما زالت في عملية ارتقاءٍ تجيش بمشاعر الشكر لله على نعمه، ويصير البيت وكأنه آلةٌ تنسج الشكر، غير أنه لا بد من تلقينه كلَّ هذه الأمور بما يتوافق مع عمره، فمثلًا نقول له:

بإحسانه تهبنا شجرةُ الرمان رمانًا
وبرعايته تتدفّق أضرع الحيوانات ألبانًا

وتسقط قطرات المطر من السماء برحمته
وينبت العشب في الأرض برأفته

إن لم يشأ ما نطقنا
وإن لم يُرِنا ما رأينا
وإن لم يُسمِعنا ما سمعنا
وإن لم يشغّل غددنا ما سال لعابنا
ولو شاءَ لتوقّفت كليتانا وما عملت معدتنا

أجل يا ولدي، إنه مالك كل شيء
فالكلُّ منه، وتحت تصرُّفه ورعايته وليس لنا يدٌ في شيء

إذًا يا ولدي: هو الذي أسبغ علينا كلّ هذه النعم
وهيّأها لنا هكذا بعد أن أخرَجَنا من العدم

فإن امتلأت قلوبنا وجاشت بحبّه

زادنا من نعمه وآلائه بُقربه
ولكن إن جحدنا قطع نعمه عنّا
أو سلب من يدنا إمكانية الاستفادة منها

أجل، علينا أن نكون كالخطباء فنحاول أن نبلّغه كلّ هذا بسلوكياتنا وأقوالنا ونظراتنا المليئة بالحماسة.

ح. التعليم بلسان الحال

من أنجع الوسائل في التربية التعليمُ بلسان الحال، لا جدال في أن تنظيم الحياة في البيت بشكلٍ لائقٍ له أهميةٌ عظيمةٌ من حيث تلقيننا لأطفالنا.

فلو صادف قيامنا لصلاة التهجد الساعة التي يكون فيها الطفل متيقّظًا، فشاهَدَنا في هذه الظلمة واقفين أمام المولى المتعال نتقلّب ونتلوّى كالرسول الكريم ﷺ فليس لكم أن تتصوّروا قدر الإلهامات التي تصل الطفل بلا وعيٍ منه بفعل نظراته المتلصّصة علينا، فلو سألكم عن هذا وقال لكم: ما هذا الانكسار، ولِمَ هذا البكاء وانفطار القلب من الحزن؟ فعليكم أن توضّحوا له أن هذا بسبب الخوف والقلق من الحرمان من نعمه والتعرّض لعذابه يوم يقوم الأشهاد، عليكم أن تعبّروا عن هذا التوقير الكبير لربكم ﷻ بنظراتكم المملوءة حبًّا وأملًا، وبحالتكم القلقة المضطربة، ثم تؤكدون أنكم تحت عنايته وتصرّفه.

عليكم أن تُشعروهم بنمط هذه الحياة التي نظّمتموها لأنفسكم، وإن كنتم تحملون أبعادًا معنويّةً فحاولوا أن تُظهروها لهم، وإلّا فإنكم لو حاولتم أن تلقّنوهم أشياء ليست لكم ولا تتبوّأ مكانةً في أرواحكم، فلن يمكنكم أن تُشعروهم بالأمان أو تؤثّروا فيهم أبدًا.

ولـمّا سُـئلت السـيدة عائشـة ﵂ عن خُلق الرسـول الأكرم ﷺ قالت: "كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن، قول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سُورَةُ القَلَمِ: ٤/٦٨)"(٣٥).

ومـن هذا الحديث يمكننا أن نفهم حال رسـول الله ﷺ، فقد كان لهذا الإنسان الكامل طرزُ حياةٍ ومعيشةٌ خاصةٌ يجلّيها القرآنُ الكريم.

أجـل، لقد نقـل النبي ﷺ إلينا القرآنَ بعد أن عايشـه وطبّقه في حياته، وكأن القرآنَ غدا حياته، والحياةَ قرآنه، ومن ثمّ وجدت كل أقواله وأفعاله صداها الطيّب في القلوب والأفئدة النقيّة الطاهرة، فتقبّلها الجميـع، وأبدوا حسنَ قبولهم بها، وحاولوا أن يعايشوها.

ولذا لا بدّ ألا تتناقض تصرّفاتنا مـع أقوالنا، فهذا ما نطلق عليه "النفاق العمليّ"؛ إذ إن ما رآه الأولاد فينا من اختلاف بين الظاهر والباطن يدفعهم إلى الرياء والنفاق، ويحدث عندهم نوعًا من الازدواجية، وبالتعبير القرآني يكونون ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/١٤٣).

كلّما حدّثتم الطفل عن نعم الله سبحانه امتلأ صدره وأُفعم قلبه بشعور الحمـد والشـكر لله تعالى، وعندها يقول: "إن مـا تحدّثني عنه إنما هو الله الـذي خلق الإنسـان وسـوّاه، وأسـبغ عليه نعمـه التي لا تحصـى، وأمدّه بالصحة والعافية، ورزقه أبويه، وأرسـل لـه موائد نعمه المختلفة كلّ يوم، إنه الله الذي خلق الهواء والماء والتراب والشجر وسخّرها لنا، فله مِنّا ألف ألف حمدٍ وثناء".

فـإنْ عملنا على تلقين الطفل هذه الأمـور، وجعلنا أحاديثنا في البيت لا تخرج عن هذا الإطار طُبع كلُّ شيء بجمالٍ خاص.

(٣٥) **صحيح مسلم**، صلاة المسافرين، ١٣٩؛ **سنن أبي داود**، التطوع، ٢٦؛ **مسند الإمام أحمد**، ٤١/١٤٨.

ط. الشفقة

لا ريب أن الشفقة بالأطفال لها مكانةٌ خاصّة في التربية، فقد كان نبيّنا صلوات ربي وسلامه عليه يعاملهم بشفقةٍ لا يجدون نظيرَها عند أبويهم.

يقول أنس بن مالك ﷺ: "خدمتُ رسولَ الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي أفًّا قط، ولا قال لي لشيء لم فعلت كذا؟ وهلّا فعلت كذا؟"(٣٦).

أجل، كان يتعامل ﷺ مع خَدَمه بشفقةٍ تفوق شفقةَ ومعاملة الأب والأم، أما مع أبنائه وأحفاده فكان ﷺ رفيقًا شفوقًا ذا قلبٍ رقيقٍ حتى إنه لا يمكن لأحدٍ غيره أن يصل إلى هذا المستوى من الشفقة.

إن كان الأطفالُ لا بدّ أن يخافوا من شيء فيجب أن يخافوا من أن يفقدوا شفقة أبويهم عليهم لا من العصا والتهديد والتعذيب، فإن أدرك الطفل أو شعر بأن عبوسَ أبيه وامتعاضَ أمه هما أعظم عقوبة؛ فهذا في ظنّي يكفي وزيادة، ومن الأهمية بمكانٍ أن يثق الطفل بكم، وأن يصدّق أنكم تشاركونه آلامه وأحزانه، اجلسوا معه عندما يبكي، وابكوا بصدقٍ لبكائه، وشاركوه على الأقل آلامه، وكما تبكي السماء ويهتز العرش لرحيل بعض الناس أظهِروا أنتم أيضًا تأثّركم بحالهم، وشاركوهم أحزانهم؛ وبذلك ترتقون إلى مرتبة أسمى في عيونهم، وكلّ ما تقولونه لهم وتحدّثونهم به سيؤثر فيهم وينفذ إلى قلوبهم فلا تستطيع أيّ قوةٍ أن تنزع مكانتكم منها، وكل ما تقولونه فيما بعد سيجد دومًا صداه في قلوبهم وضمائرهم.

أجل، لو فكرتم في تنشئة جيلٍ مثاليّ تترقبون منه أن يمثّلكم في المستقبل على أكمل وجهٍ فلا سبيل إلى تحقيق هذه الغاية السامية إلا بهذه الطرق.

(٣٦) صحيح مسلم، الفضائل، ٥١.

ي. الإدارة في البيت

يجب ألا يخلو البيت من الإدارة، فإن خلا من إدارةٍ تحفظ التناغم والتوازن فيه سادت هذا البيتَ الفوضى الإدارية، وما تمكّن الأطفال من التخلّص من الازدواجية.

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٣٤).

إن الرجل في البيت مسؤولٌ في أمور معيّنة عن حفظ النظام والتناغم في البيت، بل يمكن أن يُقال إنه المسؤول الأوّل عن أمورٍ كثيرة، وفي الواقع إن الطفل في حاجةٍ إلى مثل هذا الإنسان المسؤول، فالطفل الذي يشهد الشعور بالمسؤولية داخل البيت لن تسود حياتَه فوضى ولن يتخلّلها عبث، وإلا فإن وجود أبوين غير مسؤولين وتلقّي أوامر مختلفة من جهتين يشتّت أفكار الطفل.

فضلًا عن ذلك ينبغي للطفل عندما يخاف من أحد أبويه أن يلجأ إلى الآخر، فيجد مثلًا عند أبيه مخافةً ومهابةً وعند أمه شفقةً ورحمةً، والعكس صحيح، فبمثل هذه المشاركة والتعاون يعيش الأطفال بين خوفٍ ورجاء، ولن يشعروا بالوحدة قطعًا، فإن لم تقم الحياة الأسرية في البيت على هذه المشاركة والتعاون استمرّ النزاع والخلاف والتناقض، إذ ترى المرأة في نفسها أنها رئيسة البيت، ويرى الرجل أنه رئيس البيت، وعند ذلك ينشأ الأطفال غلاظ الطباع، متبلّدي المشاعر، غير أسوياء.

وقناعتي أن الأجيال المثالية تحتاج بدايةً إلى بيت مثالي. أجل، يجب أن يرتبط البيت بدايةً بالله تعالى، فإن تناول الوالدان أو أحدهما مسألة التربية بشكلٍ يليق بـ"خليفة الله" في الأرض أصبح أهل هذه الأسرة بفضل

هـذه الرابطة أعـزّاءَ كرماء مسـيطرين على زمام الأمور، فـلا مجال حينئذٍ لوقوع المشاكل في مثل هذا البيت.

٥- التخّلق بأخلاق الله

أ. آداب الحديث

إنّ أول مـا نتناوله هنا هو مسـألة التخلّق بأخلاق الله العالية، وإن أوّل ما يجب أن نركّز عليه في جميـع تصرّفاتنا وأفكارنا؛ بل وعند لقائنا برفقاء حياتنـا، وفـي مجالسـنا وعلاقاتنـا المختلفـة هو مـا نأمل ترسـيخه خلال الفترات اللاحقة في أذهان أولادنا.

لا بـدّ أن نتحـدّث فـي بيوتنـا عـن أمورنا الدنيويـة، غيـر أن علينا أن نراعـي وجود الأطفال بيننا عند الحديـث حولَ هذه الأمور، والأفضل أن لا نتحدّث عندهم في الأمور التي لا تهمّهم ولا تمثّل فائدةً لهم، ونتجنّب مطلقًا الأمورَ التي تضيّق الخناق عليهم وتجعلهم في حالةٍ يُرثى لها.

أجـل، علينـا أن نحدّد جيّدًا الأمور التي تخضرّ وتنمو في قلب الطفل وروحه في فترةٍ معيّنة، وألا نعرّضه إلى ما لا طاقة له به ويفوق قدراته.

أجـل، يجب أن نراعـي وجود الطفل في أحاديثنا وحواراتنا في البيت وخارجـه، ولتكـن أحاديثنـا عن الله تعالـى والإيمان به ونعمـه علينا وعن الديـن... وأن يكـون مبدؤنا هو التذاكر والتحـاور حول الأمور التي نرجو أن يتمثّلوهـا فيمـا بعـد؛ حتى ينشـأ لديهم شـعورٌ بـأن هذه المسـائل من الأمور الأساسـية لـدى الأبوين، فإن أخذ الأبوان هـذه النصائح على أنها وصفـة علاجيـة لانحلّ جـزءٌ كبيرٌ من المشـاكل التي سـيواجهها الأولاد في المستقبل، وهذه المشاكل سنقف عندها لاحقًا إن شاء الله تعالى.

ب. التوازن في الرأفة والرحمة

ثمّة مسألةٌ أخرى ننوّه بها هنا وهي: مسألة تنمية مشاعر الرحمة والرأفة والشفقة لدى الأطفال، وتنشئتهم ليكونوا أبطالًا للرحمة، وإنّ أقصر طريق لتحقيق هذا الأمر هو لسان الحال، فمثلًا إن طَرَقَ الباب صاحبُ حاجة فأسرع الأب أو الأم أو كلاهما إليه، فأعطياه ما يحملانه في أيديهما أو حجرهما وأقبلا عليه باهتمامٍ بالغٍ وأصغيا له إصغاءً كاملًا فهذا يُعتبر درسًا عمليًّا لتربية الطفل على الشفقة.

وقد يحصل الشعور بالشفقة لدى الأطفال بالفطرة، فمن الأطفال من هو رقيقُ القلب مغْرَوْرقُ العين، فهذا الحال علامة على أن هؤلاء سيصبحون من ذوي الحسّ والشعور والرقّة في المستقبل، والحقّ أن بعض الأطفال يتظاهرون بالبكاء لاسترعاء انتباه مَن حولهم فحسب أو لإرغامهم على تلبية رغباتهم؛ والفرقُ عظيمٌ بين هذا البكاء والبكاء النابع من الرقة الخالصة، فإن أردنا أن يكون أبناؤنا كرماءَ أرقّاء شفقاء فلا بدّ أن يفوح بيتنا برائحة الشفقة الزكية والرحمة واللِّين.

إنّ نشوء الطفل على البخل وحبّ الدنيا والتّعلق بالمادة يُعدّ من الأسباب الأولية لأن يصبح أنانيًّا انتهازيًّا معتديًا عاصيًا، وإذا لم نُرَبِّ أولادَنا على التخلّق بأخلاق الله تعالى فما أتعسهم من حيث حياتهم الدنيوية وحياتهم الأخروية الأبدية.

أجل، إن الرحمة والشفقة مسألتان مهمتان جدًّا، والسخاء والمروءة مظهرٌ لهذه الحالة الروحيّة، فأبطال الشفقة في مغنمٍ دائم، وغلاظ القلوب في خسرانٍ مبين، فالكريم قد يفوز بالجنة وإن كانَ فاسقًا، أما فوز البخيل بالجنة فالاحتمال فيه ضعيفٌ وإن كان مؤمنًا، ولذا يجب أن ننمّي شعور

الشفقة والرحمة لدى أبنائنا، ونزيد من شعور الإنفاق والإحسان عندهم؛ حتى لا يسيطر الطمع عليهم، ولا يغرقون في ملذّات الدنيا؛ فينسوا الله سبحانه وتعالى.

أجل، علِّم طفلك الإنفاق حتى لا يكون ماديًّا، وحتى ترتبط حياته الروحية والقلبية والشخصية بالله تعالى، لكن لا بدّ أن ننبّه مرة أخرى على أن شعور الإنفاق إن لم يبرز بالفعل مع التدعيم بالقول فلا يكون لهذا أثرٌ في الطفل، فإن طبقنا هذا الشعور بأفعالنا فلا بدّ وأن تؤثّر أقوالنا فيهم وكأنها أنفاس الملائكة.

ج. المكافأة

ثمة مسألة أخرى وهي مكافأة الأطفال على قدرِ نجاحهم، وقد تعمدتُ استخدام كلمة "على قدر نجاحهم" هنا؛ لأنّ قدر المكافأة يجب أن يكون على قدر هذا النجاح صغُر أم كبُر، فإن تحقق هذا فقد رسّخنا شعور العدل لدى الطفل، وهذا يتوافق مع القاعدة القرآنية: ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ۞ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى**﴾ (سُورَةُ النَّجْمِ: ٣٩/٥٣-٤٠).

أجل، إنّ مِن متطلبات الأخلاق الإلهية المكافأة على النجاح سواء في الأمور المتعلقة بالحياة الدينية أو الدنيوية؛ المشروعة منها بالطبع.

وعلى ذلك نقول: إن الآباء والأمهات لهم دور مفكّر وحكيم ومربٍّ -ولو بقدر ما-؛ فلْيتفكروا في تربية أولادهم وليتدبّروا حتى يراعوهم حق رعايتهم.

أجل، لو لمْ يهتمّ الأبوان بأولادهما اهتمامهما بسيارتهما وبستانهما وحديقتهما؛ فبدهيٌّ أن تتبلّد مشاعر الأولاد وأفكارهم فلا تنمو أو ترتقي.

ولا بد من الرجوع إلى المنهل الأساس في كل من مسألة الرأفة والشفقة، والعرفان بالجميل، والانقياد والإذعان لله تعالى على نعمه، وفي مسألة التصرف في شؤون الطفل كلها نيابةً عن مالكهم الحقيقيّ، وهذا المنهل هو أخلاق الله تعالى، فالله تعالى يُثيب مَن يعملون الصالحات بالجنة في الآخرة على أعمالهم، ويجازي مَن يعملون السيئات بالنار على ما اقترفت أيديهم.

والقرآن الكريم يقول: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾ (سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ: ٧/١٤)، إن التخلّق بأخلاق الله يقتضي أن نكون معتدلين في مواقفنا وتصرفاتنا مع أطفالنا؛ حتى لا يكلنا الله إلى أنفسنا.

د. تهيئة الطفل للمستقبل

وهناك مسألة أرى من الفائدة ذكرها في النهاية ألا وهي: الأخذ بعين الاعتبار الوسط الذي ينشأ فيه الأطفال، ومراعاة فئاتهم العمرية ومستوياتهم وأوضاعهم العلمية والثقافية، فإنْ كان الطفل في الخامسة من عمره فلا بدّ أن نتدرّج في تلقين المعلومات له مثل الأسلوب الذي نتبعه في منهج التغذية تمامًا، إذ يجب أن تكون المعلومات التي نلقّنها له في سنّ السابعة غيرَ تلك المعلومات التي نقدّمها له في سنّ العاشرة.

غير أن هناك مسألة أخرى مهمّة وهي: أن يكون ما نلقّنه للطفل يخاطب من ناحيةٍ المرحلةَ التاليةَ من مراحل حياته؛ لأنه يرى ويشعر ويعيش زمنَه على كلّ حال؛ ومن ثمّ فقد يكون كافيًا ما يتعلمه من بيئته أو معلّمه على قدر مستواه، ولكن لا بدّ أن تكون تربيتُنا له مراعيةً المراحلَ التي سيعيشها فيما بعد.

هنـاك مقولـة يعزوها بعضُهم إلى سـيدنا علي كـرم الله وجهه أنه قال: "لا تُكرِهـوا أولادكـم على آثاركم، فإنهم مخلوقون لزمـان غير زمانكم"، فـإن تناولنـا هـذا المبدأ مـن حيث المعرفـة والثقافة العامة سـنجد أنه من قصـور الهمّة أن نكتفي بالثقافة والمعلومات الحالية؛ لأن هذا يعني سـبق الآخرين لكم وتفوّقهم عليكم بمرور الزمن، وإن تناولناه من حيث التربية والتعليم فهذا ييسّر على الطفلِ تجاوُزَ الزمن الذي يعيشه، ولرعايتِه الفترةَ القادمة من عمره، واتّباعِه منهجًا معيّنًا يتوافق معه.

أجل، يجب أن يتربّى طفلُ السادسة على مستوى تربية طفل السابعة، فإن بلـغ السابعة يُطبّق عليه البرنامج التربوي لطفلٍ في الثامنة وهكذا.

والخلاصة أننا لا بدّ وأن نتدرج في تعليمنا لأبنائنا حتى سنّ الخامسة عشرة الذي يعدّ متوسّطًا لسنّ البلوغ، وأن تتناسب التربية مـع عمر الطفل ومسـتواه لا محالة؛ حتى يمكنه أن يستسـيغ ويتقبّل ما يُلقى إليه، فلا يليق أن يـزوّد الشـاب الذي بلـغ العشـرين من عمـره بتربيةٍ دينيّة تتناسـب مـع تربية طفلٍ في الخامسـة عشـرة، وإلا نكون قد أفسـدنا كلّ ما يعرفه الطفل عن الدين والإيمان والأخلاق، فكما يتطلب الجسـد على كلّ المستويات رزقًـا وغـذاءً خاصًّا فكذلـك اللطائف الإلهية مثل الفكـر والعقل والحسّ والشعور والإدراك والقلب تتطلّب تغذيةً معيّنةً بقدر انكشافاتها.

وإنكـم إن حاولتـم تلقين شـيءٍ لمخاطـبٍ أُنيط بكم مسـؤولية تربيته دون أن تراعوا مسـتواه الاجتماعي والفكريّ والعقليّ فقد أبعدتموه عنكم شعوريًّا، فإن كان بعض الشباب ما زالت مشاعرهم وأحاسيسهم وأفكارهم تحتفـظ بسـلامتها حتـى اليوم؛ فهذا يرجـع إلى عنايـة الله وفضله عليهم، أو إلـى أنهـم لـم يتطوّروا بعدُ فكريًّا؛ فرغم أنهم في الخامسـة والعشـرين

مـن عمرهـم إلا أنهـم متخلّفون كثيرًا عن ركب عصرهـم كما لو أنهم في العاشـرة أو الخامسة عشـر من عمرهم، ومثل هذا الشخص إن قابلَتْه يومًا أيُّ نظريـةٍ مختلفـةٍ دينيًّـا وقوميًّا واجتماعيًّا تتجاوز مسـتواه فلا مناص من تزعزُعِ قِيَمِهِ الذاتيّة وربّما يرتدّ عن دينه والعياذ بالله.

ولقـد أوصانـا ديننا ببعـض الوصايا حتى تتلاءم التربيـة والتوجيه مـع مسـتوى المخاطـب وعمـره، أو الدفـع بمسـتواه إلى الأمام قليـلًا، يقول رسـول الله ﷺ: "**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَـبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْـرٍ، وَفَرِّقُـوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**"[٣٧]، إن الدين يفترض علـى الطفل الصلاةَ وهو في الخامسـة عشـر من عمره ويقـول لنا: عوِّدوه على الصلاة وهو في السابعة أو العاشرة من عمره، وهذا يعني أنه لا بد أن نعوّدهم على الصوم أيضًا قبل أن تأتي مرحلة التكليف، ويمكن أن نسـير علـى نفس المنوال في باقي المسـائل؛ وهذا يعنـي ضرورة معالجة الطفل في سنٍّ مبكّرة وتشكيله على حسب عمره.

وهنـا أودّ أن أبيّـن أننا وإنْ كنا قد اسـتخدمنا جمـلًا قاطعة الدلالة في الأحـكام والقيـم فهذا يرجـع إلى أننـا ننظر إلى الأمر مـن منظور الكتاب والسنة، وأن هذا منوطٌ -على الأقل- بظنّنا القويّ في هذا الاتجاه.

إنّنا على يقينٍ من أن تلقين الطفل بما نريد وهو ما زال في سنّ صغيرةٍ سـيكون له بالـغ الأثر في نفسـه، وقناعتنا أننا إنْ أردنا أن يؤدّي الطفلُ ما عليه من فرائض دينيّةٍ في المستقبل فلا بدّ أن يبدأ هذا الأمر وهو في سنٍّ مبكرة، وقد شاهدنا ثمارًا طيبة لهذا الأسلوب طوال حياتنا.

(٣٧) سنن أبي داود، الصلاة، ٢٦؛ سنن الترمذي، الصلاة، ١٨٢؛ مسند الإمام أحمد، ٣٦٩/١١.

وهنا أريد أن أورد قولًا -يُذكر أن قائله الإمام جعفر الصادق- يتحدث عن المراحل العمرية: "دَع ابنَك يلعب سبع سنين، ويؤدّب سبعًا وأَلزِمه نفسَك سبع سنين، فإن فلح وإلا فلا خير فيه".

أي إن مرحلة الطفولة تمتدّ حتى السابعة، وفيها يقلّد الطفل ما يراه، ويشتغل باللهو واللعب، بل إنكم إن لعبتم معه لعب معكم وتعلم ما يراه منكم وقلّدكم، وكأنّ حياته حتى هذه السن لعب وتقليد، ثم تأتي مرحلة التلقين بما يتوافق مع عمره ومستوى إدراكه، وفي هذه المرحلة يخضع الطفل باستمرار لعملية نقاهة تتناسب مع أفق إدراكه ومستوى فهمه، ويتمّ تشويقه فيها إلى قيمنا الدينيّة والمعنويّة، وهذه الفترة هي فترة تعليمه كتاب الله تعالى، وتتطلّب وقتًا مثل سابِقَتِها، وبعد ذلك تأتي مرحلة التعريف بالحلال والحرام عن طريق العقل والمنطق والمحاكمة العقلية، وتستغرق هذه المرحلة نفس الزمن الذي استغرقته المرحلتان السابقتان.

وحسب هذا التقدير في التربية لا بدّ أن يُتمّ الطفل تشكّله الاجتماعيّ والدينيّ بأكمله في سنّ الواحدة والعشرين، وهذا يعني أنه من الصعب أن يتقبّل ما يُقال له بعد هذه السنّ، وهذا يدعونا إلى أن نجعله حتى سن الواحدة والعشرين يتقبّل كلّ القيم الدينية والأخلاقية بشكلٍ لا يستطيع أن يرفضه.

لا بدّ أن يستوعب الطفل حتى هذه السن الحياةَ الدينية بأكملها بعقله ومنطقه ومعايشته النظرية والعملية؛ حتى لا تزعزعه الريح المعاكسة المختلفة، يقول رسول الله ﷺ في حديث أخرجه الترمذي وأبو داود: "**عَلِّمُوا الصَّبِيَّ الصَّلَاةَ ابْنَ سَبْعِ سِنِينَ**"(٣٨).

(٣٨) سنن الترمذي، الصلاة، ١٨٢؛ سنن أبي داود، الصلاة، ٢٦.

أجـل، إن الطفـل حتى تلك السـن يكون قد اسـتوعب كلّ ما تفعلونه بدافعٍ من تطلّعه وحبّ استطلاعه، غير أن ما يبقى عليكم بعد أن تمسكوا بيـده وتبيّنـوا لـه ما اسـتوعبه بسـبب تطلعه هـو التنبيـه أحيانًـا والترغيب والتشـويق أحيانًا أخرى، فإذا كان الشـرح بلسـان الحال هو الأساس حتى سنٍّ معينة فلا بدّ أن يكون ذلك الشرح فيما بعد هذه المرحلة متوافقًا مـع منطقه ومستواه الفكري.

وفي ضوء الأدلة التي عرضناها سلفًا يتبين لنا أنه من الضرورة بمكانٍ عند الحديث عن الله تعالى المعبود المطلق أن نعامل الطفل كإنسـانٍ كبير ونسعى إلى تعزيزه وتنزيله منزلة الكبار وهو ما زال في السادسة من عمره أو الثامنة أو العاشرة على الأكثر، بل ونوضّـح له كلّ شيء بعزمٍ نبوي، وإن الجهود المبذولة في مسألة التدريب على العبادة تتطلّب الجدّية نفسها.

يقول ﷺ: "**اَلْحَيَاءُ شُـعْبَةٌ مِنَ الإِيمَـانِ**"(٣٩)، ويقول ﷺ في حديث آخر: "**إِنَّ الْحَيَـاءَ وَالْإِيمَـانَ فِي قَرْنٍ، فَإِذَا سُـلِبَ أَحَدُهُمَا تَبِعَـهُ الْآخَرُ**"(٤٠)، ومن ثَمّ يجب أن نركّز بكثرةٍ على الأجيال التي نرغب في تنشـئتها على الحياء والأدب وهم ما زالوا صغارًا، ليتسنى لهم التحلّي بتلك الخصال والتخلُّق بأخلاق القرآن إذا ما بلغوا.

(٣٩) صحيح البخاري، الإيمان، ٣؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٥٧، ٥٨.

(٤٠) الطبراني: المعجم الأوسط، ١٧٤/٨؛ البيهقي: شعب الإيمان، ١٦٥/١.

الفصل الرابع:
التربية الدينية للطفل

التربية الدينية للطفل

كما أوضحنا سابقًا فإن الزواج مسألة بالغة الأهمية، ومن ثمّ يجب الوقوف عليها بقدر جدّيتها وأهميتها، ولذا يجب أن يأخذ المقبلون على الزواج في اعتبارهم أنهم سيُصبحون في وضع المعلّم والمعلّمة لأولادهم، لذا فعليهم ألا يفكّروا في الزواج إلا عندما يصلون إلى المستوى والعمر الذي يؤهلهم للقيام بهذه المهمّة الكبيرة.

فها هو الإمام جعفر الصادق يطلب من تلاميذه تأخير زواجهم لمدّةٍ معيّنة، كما يمنع الإمامُ الأعظم أبو حنيفة النعمان طالِبَه الإمام أبا يوسف من الزواج لفترةٍ معيّنة قائلًا له: "عليك أن تُكمل بدايةً مرحلة التربية والتعليم، وتتعلّم ما يجب عليك تعلّمه إلى أن يحين الوقت الذي تتزوج فيه، وإلا ما استطعتَ أن تكمل تحصيلَك العلميّ، زد على ذلك أنه لا بدّ أن يكون لديك عملٌ تنفق منه على أسرتك بالحلال، فإن تجاوزتَ هذه المرحلةَ اتضحت مسيرتك الحياتية".

أجل، إن أبا حنيفة ينصح تلميذه الذي وصل إلى مقام قاضي القضاة في عهد العبّاسيّين بهذه النصائح.

أما ما يجب فهمه من هذه النادرة فهو أن مؤسّسة الزواج مؤسّسة مهمّة جدًّا، ومن ثم تجب العناية بالمقبلين عليها؛ ويا تُرى هل وصلوا إلى المستوى الذي يؤهّلهم ليكونوا معلّمين ومربّين لأطفالهم؟ وهل هم

في مستوى وعمرٍ يسمح لهم بمشاركة إنسان آخر الحياةَ؟ وهل يملكون الأدوات اللازمة لتهيئة أبنائهم وفقًا لعالمنا الفكري؟

فإن أجاب المُقبلون على الزواج بـ"نعم" على هذه الأسئلة وكانت لديهم ثقةٌ في أنفسهم استطاعوا القيام بهذا الأمر بكلّ أريحيّة، ولكن إن كانوا عاجزين عن إدارة أنفسهم ولا يستطيعون أن يتوافقوا مع بضعة أشخاص على بعض المسائل المشتركة، ويثيرون القلاقل كلّ يوم، فلا يمكن أن يُقال إنهم قد وصلوا بعدُ إلى المستوى الذي يؤهّلهم للزواج وتربية الأطفال.

ينبغي لكل فردٍ من أفراد الأمّة أن يكون الإسهامُ في إقامة مستقبل أمّته المثالي أحدَ أهدافه المنشودة، وهذا منوطٌ بوجود الفرد المثالي والأسرة المثالية.

أجل، لن يستطيع تحقيق مثل هذه الغاية إلا الذين هم كالكعبة المشرّفة في طهارة قلوبهم، وكقِمّة "إفرست" في علوّ مقاماتهم الرفيعة، والذين امتدت بنيتهم الشعورية كعمودٍ نورانيّ إلى سدرة المنتهى، فهذا الأمر ليس من شأن النواصي القذرة، والأفئدة الصدِئة، والعاصين لرب العباد ﷻ، أما الأجيال النّيّرة العامرة بالإيمان والتي تكاملت داخليًّا وخارجيًّا فستُحقّق هذه الغايةَ بفضلٍ من الله وعنايته، وأريد أن أكرّر هنا ما قاله سيدنا رسول الله ﷺ لخبّاب بن الأرتّ ﷺ: "**وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**"(٤١).

وما أجمل هذه الأبيات التي ذكرها الشيخ "محمد لطفي أفندي"، والتي تعبّر عمّا نريد أن نقوله:

(٤١) صحيح البخاري، المناقب، ٢٥؛ سنن أبي داود، الجهاد، ٩٧.

لـــــو خـــررتَ خـــــريـــــــرَ الـــمـــــاء...
وانهمرت عيناك مثل أيـوب بالدمـوع والبكـاء...
لـــــو وقـــفـــــتَ لـــه عـــلـــى الـــبـــاب...
وفــديتــه بــالـروح والنـفــس والأحــبــاب...
وعـــــملت بــأمره، أمـا يُـجزل لـك الـثـواب؟

أجل، ثمّة بشـارةٌ جديدة تُزفّ إليك فـي كل منزلٍ خررت خرير الماء فيـه، ثـم اصطدمت رأسـك بالحجـارة هنا وهنالـك فقلتَ: أهنـاك عوالم أخـرى أرحل إليها؟ بل إنك ستستشـعر عنايته مرّةً أخرى، وسـتمضي إليه دون تعثّـرٍ ألبتـة، واعتقادنـا وإيماننا بربّنا يدور في هـذا الإطار، وإننا على قناعةٍ تامّةٍ وإيمانٍ راسخ بأنّ الله تعالى لن يخيّب حسن ظنّنا به.

مـن أجـل ذلك تطرّقنا إلـى هذه المسـائل، وما أردنـا أن نوضِّحه في الأسـاس هو مسـألة تحلّي النشء بروح الأمّة على الصعيد التربوي، وقد أشـرنا فـي فصلٍ سـابق إلى مسـألة أن يتحـوّل البيت إلى مدرسـة ومركز تربويٍّ، وحاولنا أن نؤكد على ضرورة أن يتحلّى الأبوان بالشـفقة والرأفة والرّقّـة، وأن يقومـا بالسـلوكيّات الإنسـانية التـي يرجـون أن يرَوهـا فـي المستقبل لدى صغارهم.

١- تربية الطفل من وجوه متعدّدة

لو أردنا أن يصبح أولادنا من ذوي الجرأة والشجاعة فعلينا ألا نُخيفهم بالحديـث عن مصّاصي الدمـاء والعمالقة والجان والغول، بل يجب علينا أن نقـوّي فيهـم روح المقاومـة الداخليّة التي تمكّنهـم من مواجهة جميـع السلبيّات.

فإذا رغبنا في أن ينشأ أولادنا على الإيمان فلا بدّ أن يتبدّى الإيمان في كل أحوالنا؛ في تصّرفاتنا وحركاتنا وحساسيّتنا إزاء بعض الأمور وبسماتنا وقسماتنا وقيامنا وقعودنا وركوعنا وسجودنا ومُقاساتنا ومُكابداتنا ومراعاة الشفقة لدى الآخرين، كما يجب أن تكون قلوب أطفالنا مفعمةً بكلّ هذه الأمور.

أجل، يجب أن نكون كما يحبّ أطفالنا أن يرونا، وأن نتجنّب التصرّفات التي قد تجعلنا صغارًا في أعينهم.

علينا أن نكون أعزّاء أجلّاء في أنظار أطفالنا؛ حتى تجد أقوالنا صدًى لها في قلوبهم، ولا يتمرّدوا على طلباتنا، ومن هنا يمكن أن نقول: قد يصير الآباء المستهترون رفقاء لأبنائهم فقط لا أكثر، ولكن لا يمكن أن يكونوا مربّين ومعلّمين لهم، ولا يستطيعون تربيَتهم كما يرغبون.

ينبغي أن تكون بيوتنا بمثابة المدرسة ودار العبادة والمركز التربويّ؛ حتى نشبع مشاعر أطفالنا وأرواحهم وقلوبهم؛ فلا نجعلهم عبيدًا لشهواتهم.

٢- تعويد الطفل على المسجد منذ الصغر

كان الأطفال في عصر السعادة يغدون ويروحون إلى المسجد رغم صغر سِنّهم، ولكن للأسف أصبحنا نعتبر الآن اصطحاب الأطفال إلى المسجد متنافيًا مع آداب المسجد، وللأسف أيضًا فإنّ العديد من المساجد نراها تحفل ببعض الشيوخ غلاظِ القلوب الذين يتراءون للطفل وكأنهم زبانية جهنم، الأمر الذي يبعث الخوف والرهبة في نفوس الأطفال، والحال أن هؤلاء الشيوخ ليسوا على القدر المطلوب من المعرفة الدينية، كما أن معلوماتهم الدينية ورؤيتهم العامة وأفكارهم

محدودة -مع الأسف- إلى درجة كبيرة، ومع ذلك يحسبون أن العبس في وجوه الأطفال وتقطيب الوجه لهم يحفظ قدرَ المسجد ومكانتَه، بيد أنهم بأفعالهم هذه يبعثون الخوف والرعب لدى الأطفال من المسجد، كما أنهم يقومون بعملٍ يخالف سنة رسول الله ﷺ، فسنّته ﷺ في تنظيم الصفوف للصلاة في المسجد أن يتقدّم الرجال ويقوموا في الصف الأول خلف الإمام، ثم الصبيان، ثم يأتي من بعد ذلك النساء في الصف الأخير مراعاة للطبيعة البشرية.

وعلى ذلك فإن اصطحبنا الطفل إلى المسجد شعر بشوقٍ روّاد المسجد إلى صلاة الجماعة، ومتعتِهم عند أدائها، وازداد ارتباطه بالحياة الدينية، ومن ثمّ يجب أن نقدّم الهدايا للأطفال وأن نشجّعهم على الصلاة، لا أن نطردهم من المسجد أو نعنّفهم أو نخيفهم، لا بدّ أن نحبّبهم في المسجد وفي حديقة المسجد، ونحافظ على أن تظلّ قدسيّةُ المسجد حيةً في مشاعرهم.

لقد كان رسول الله ﷺ يصلي وهو حاملٌ أمامةَ بنت ابنته زينب ﵄، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها[٤٢]، فهذا هو حال سيدنا رسول الله ﷺ في الصلاة، فلنا فيه أسوة حسنة.

ولم يرِدْ عنه ﷺ أيُّ كلمةٍ نابيةٍ أو فعلٍ يشير إلى إخراج الطفل من المسجد، ولذا غدا من الضروري أن نخصّص زاويةً جميلةً في حيّنا كمصلّى، وموضعًا في بيتنا كمكان خاصّ بالصلاة؛ فكلما نظر الطفل إلى ما حوله شاهد لوحاتٍ تذكّره بالله، ومن ثمّ يحيا حياةً لدنّية، ويحدّد طريقه بإرادته الحرّة ووجدانه الحرّ.

(٤٢) صحيح البخاري، الصلاة، ١٠٦؛ صحيح مسلم، المسجد، ٤١.

فإن تناولنا المسألة من حيث الصلاة فقط نقول: إن الأب إذا أمسك الطفل من يده حين يبلغ السنّ التي يستطيع فيها أداء الصلاة وأوقفه بجوار أمّه على سجّادة الصلاة، واستطاع أن يربط الطفلَ بالمحراب الأبديّ بقدر صدق أحواله لنجح نجاحًا كبيرًا في هذا الأمر العظيم؛ لأن الصلاة مسألةٌ مهمّة للغاية من حيث التوجّه إلى الله ﷻ.

٣- الردّ على الأسئلة وإزالة الشبهات منذ البداية

قد تراود الطفلَ بعضُ الأسئلة والشبهات حول الصلاة وغيرها من القضايا الدينية، لا سيما وأن الأطفال المنغلقين على أنفسهم قد لا يستطيعون في الغالب مصارحة والديهم بما يعتمل في صدورهم من هذه الشبهات الدينية، فمن الأهمّيّة بمكانٍ أن نتّخذ شتّى الوسائل حتى نريح الطفل ونجعله يعبّر عمّا في داخله، فإن كبر ونمت في داخله مثل هذه الأسئلة والشبهات فإن كلّ شبهة أو شكٍّ في أي مسألة دينية لم يقدر على فهمها، أو أي أمر لم يستوعب حكمته أو معناه يتحوّل إلى ثعبانٍ وعقرب يلدغ قلبه.

بل إن هذه الشبهات أحيانًا ما تتعاظم بسرعةٍ في عالمه الداخلي حتى إننا لا نفطن إلى أنها قد تقضي على هذا المسكين في يومٍ من الأيام.

فقد يتظاهر وهو معكم في المسجد بذكر الله وتحميده وتقديسه وتهليله، والحال أنه قد رزح تحت شبهاته ووقع فريسةً لوساوسه، إننا إن لم نعالج هذه الوساوس والشبهات في حينها فلا مناص من أن الطفل عندما يلتحق بالجامعة لِيحرِزَ مكانةً مرموقة في الحياة سيواجهنا بأفعالٍ وأفكارٍ ومشاعرَ لا نوافق عليها مطلقًا نظرًا لما يدور في ذهنه من شبهات وشكوك في الدين، ومن ثمّ علينا ألا ندع قلبه وعقله وروحه في حالةِ خلوّ أبدًا، وأن نغذّيها على الدوام وفقًا لمستواه وعمره.

كان الآباء والأمهات قديمًا يعهدون بأطفالهم للمربّين والمربّيات من بني جلدتنا، فكان هؤلاء المربّون والمربّيات ينفذون إلى عوالم الطفل الداخليّة، ويحاولون أن يجدوا علاجًا لآلامه يتناسب مع عالمه الروحيّ، وفي الواقع الوالدان هما من يجب عليهما أن يقوما بهذه التربية، فإن لم يستطيعا فعليهما أن يجتهدا في البحث عن مربّين مثقّفين يعهدان إليهم بهذا الأمر مثل اجتهادهما في البحث عمّن يعتني بشؤون منزلهما، عليهما أن يفعلا ذلك وألا يسمحا بضياع أبنائهما، إننا لا نستطيع أن نرسّخ في نفس الطفل عقيدةً متينةً وعبوديّةً راسخةً وخُلقًا رفيعًا إلا بهذا القدر من الحساسيّة.

٤- الدعاء وأداء العبادة في مكانٍ يتمكّن الطفل من رؤيتنا فيه

يجب علينا أن نخصّص مكانًا وزمانًا للعبادة داخل البيت، فمثلًا نأخذ الطفل ونصطحبه إلى المسجد لأداء الصلوات الخمس مع الجماعة، وإن لم يتيسر ذلك فنقوم بأدائها -إن أمكن- في جماعةٍ داخل البيت، وأداؤها في المسجد أفضل خاصةً في الأوقات التي لا تستطيع الأم أن تصلّي فيها.

أجل، عندما لا تصلي الأمّ نظرًا لظروفها الخاصّة فقد يقع في نفس الطفل أنه لا حرجَ في ترك الصلاة والدعاء في بعض الأوقات، وحتى لا يقع هذا فإن الذهاب إلى المسجد في هذه الأيام خاصةً قد يُعدّ إعادة تأهيلٍ يتناسب مع جدّية المسألة وأهمّيّتها، وقد يُجبر النقص أيضًا كالآتي: يمكن للمرأة في أوقاتها الخاصّة أن تتوضّأ وتجلس على سجّادتها وترفع يديها متضرّعةً لربها ﷻ، وبهذه الطريقة تُثاب على فعلها وكأنها قد صلّت بالفعل وتُسدّ الثغرة أيضًا، وقد ورد مثل هذا التفسير في كتب الفقه.

إن مسألةً كهذه في غاية الأهمّيّة من حيث تربية الطفل؛ لأنه بهذه الوسيلة لن يرى أبدًا في البيت جبهةً لا تسجد أو عينًا لا تدمع أو يدًا

بالدعاء لا تُرفع، بل سيشاهد في البيت دائمًا حساسيّة مرهفة ودقّةً بالغة وشعورًا عميقًا بالعبوديّة، ولذا حتى يدرك سبب عدم استطاعة أمّه القيام بأداء العبادة في بعض الأوقات، ويستوعب روح المسألة ومكانتها في الدين؛ فمن الأفضل أن نأخذه من يده ونذهب به إلى المسجد.

ولا ريب أنه سيأتي يومٌ يغدو فيه الطفل كالمنبّه بالنسبة لكم إذا ما سمع الأذان، فينبّهكم قائلًا لكم: الصلاة يا أبي، وحتى إن كنتم مشغولين بأعمالكم ولم تسمعوا الأذان، وسمعه هو؛ جاءكم ونبّهكم إلى الصلاة، وهكذا يذكّركم بكل ما كنتم تذكّرونه به خلال فترةٍ سابقة.

فضلًا عن ذلك لا بدّ أن تحدّدوا ساعةً خاصّةً في يومكم لدعاء ربّكم، تعبّرون بها عن مشاعركم وتكشفون فيها عما يدور في صدوركم، وتُظهرون بالفعل أن الله تعالى هو الملجأ الوحيد دائمًا، ومن المفيد أن تجهروا صراحةً بأدعيتكم؛ فقد كان الصحابة ﷺ يسمعون تلك الأدعية المرويّة لنا عن الرسول الأكرم ﷺ، ثم نقلوها إلينا، فكثيرٌ منها روته السيدة عائشة ﷺ، كما كان لسيدنا علي ولابنيه الحسن والحسين ﷺ نصيبٌ في رواية مثل هذه الأدعية.

وعلى ذلك يجوز أن يسمع مَن حولكم ما تدعون به، مع ملاحظة أن يكون هدفُكم هو تعليم ولدكم، فإذا ما رجوتم منهم أن يكون حسّاسًا تأخذه القشعريرة عند ذكر الله تعالى فيتحتّم عليكم أن تكونوا هكذا بدايةً.

ثمّة مشاهدُ لا يتسنّى لي أن أنساها أو لا أشعر بالقشعريرة عندما ترد على خاطري، وقد أحدثت هذه المشاهد التي تعكس ارتباط جدّتي ﷺ بالله تعالى تأثيرًا كبيرًا في نفسي، فقدتُها وأنا ما زلت صغيرًا، كان أبي ﷺ إذا ما تكلّم عن أمور تتعلّق بدين الإسلام أو قرأ القرآن تُراها تنتفض في مكانها، حتى إنك إن ذكرت الله عندها وجاشت مشاعرك بجانبها

سرعان ما يمتقع لونها ويذبل وجهها، وتظلّ رازحةً تحت هذا التأثير أربعًا وعشرين ساعة، فكان لهذا الحال تأثيرٌ كبير في حَالَتِي الروحيّة.

أجل، كانت جدّتي أمّيّةً لا تعرف القراءة ولا الكتابة، ولكنها كانت تحاول أن تعمل بقدر ما تعلم، ومن ثمّ أحدثت أفعالها الصادقة وبكاؤها ونحيبها تأثيرًا كبيرًا في نفسي، كثيرًا ما جلستُ بين يدي مشايخ عظام، واستمعتُ لأحاديثهم المشحونة بالانفعالات، غير أنه يمكنني أن أقول إنّ ما تعلّمتُه من دروسٍ تلقيتها عن أفعال جدتي التربويّة لم أستطع أن أتعلّمها من أحد، ويخيل إليّ أنّني أدين بإسلامي بشكل عام لجدتي وللأفعال الصادقة التي عاينتُها لدى أبي وأمي.

سامحوني إن ابتعدتُ عن موضوعنا، ولنعد إلى ما نحن بصدده...

أجل، من المهمّ جدًّا أن يعدّل الوالدان من أوضاعهما، فكما أسلفنا عليكم أن تحدّدوا ساعةً معيّنةً في اليوم يرى فيها الطفل أنّاتكم وعبراتكم وإسراركم لربكم بما يدور في نفوسكم، وجيشانَكم وغيابكم عن وعيكم ودعاءكم له سبحانه صراحةً فاتحين له قلوبكم، فلا سبيل للطفل أبدًا أن ينسى رؤيتَه لكم وأنتم تنازعون أنفسكم من أجل آخرتكم، وإحساسَه بكم وأنتم تذكرون ربكم، ثم بكاءَكم أمامه سبحانه رجاءَ رحمته.

في الواقع إن علينا أن نراقب الله في أنفسنا ونحن نؤدّي عبادتنا له ﷻ؛ فلا بدّ أن يكون ركوعنا وسجودنا وقيامنا وقومتنا من الركوع على صفةٍ تذكّر به سبحانه على الدوام.

علينا أن نتخيّل حالنا مع ربنا ﷻ على النحو التالي: لنتصور أننا لقينا ربّنا سبحانه فقال: "انهض يا عبدي، واعرض عليّ ما عملتَه في حياتك"، فقمنا ووقفنا أمام عظمته ﷻ معقودي اليدين راجين رحمته.

مـا أعظمه مـن إنذارٍ لِمَن حولنا أن نشـعر حقًّا بكبريائـه وذلّتنا! يقول سـيدنا علي ﷺ فيما أخرجه الترمذي في "الشـمائل": "كان رسـول الله ﷺ إذا أوى إلى منزله جزّأ دخوله ثلاثة أجزاء، جزءًا لله، وجزءًا لأهله، وجزءًا لنفسه، ثم جزّأ جزأه بينه وبين النّاس"(٤٣).

أجل، يجب أن تكون لنا سـاعة معيّنة ووقت نورانيّ مـع ربّنا سـبحانه حتى يجعل الطفلُ من هذه المشـاهد التي يشـاهدها عتادًا لعبادته وذخيرةً لإيمانـه إذا مـا حـان الأوان، فإذا ما واجهتـه فيما بعد مخاطـر الانحراف الفكـريّ والعمليّ وجد هذه اللوحات تُسـعفه وتأخـذ بيده، وكأنها أحزمة أمان.

وهكذا لا بدّ أن تنسـكب العبرات، ويعلو التأوّه والنحيب حتى يعيش الطفل أحوالًا تحول بينه وبين سقوطه وتعثّره، فهذه لوحاتٌ خالدةٌ تستقرّ في بؤرة اللاشـعور لديه، فإذا ما همّ فيما بعد بارتكاب سـيئةٍ لاحت هذه المشـاهد فـي خياله من النافـذة الممتدة إليه وحذّرته قائلـةً: "ماذا تفعل يا بنـيّ!" وهكـذا تصبح تلك المشـاهد مرشـدًا مرافقًا له فـي حياته، وتصير أفعالكـم يـدَ عنايـةٍ تمتدّ لإغاثته في سـقطاته، تأخذ بيده وتنقذه من شـتّى المخاطر.

٥- احترام القرآن الكريم

إن تـلاوة القـرآن الكريم وتعليمـه للأطفال يحوز أهمّيّـة كبيرةً أيضًا، ولكـن ثمّـةَ أمرٌ لا يقـلّ أهمّيّةً عن تلك المسـألة وهو إثارة شـعور الطفل بـأن مـا يُتلى هـو كلام الله، فمن الأمور التي نشـاهدها كثيرًا فـي أيامنا أن بعض الناس يقرؤون القرآن ولا يتجاوز القرآنُ تراقِيَهم مـع الأسف، ولذا

(٤٣) الترمذي: **الشمائل المحمدية**، ص ١٩٢.

إن استطعتم أن تكونوا قدوةً حسنةً لأبنائكم في قراءة القرآن فاقرؤوه وكأنكم تتلونه في حضرة ربّكم ﷻ أو بين يدي سيدنا رسول الله ﷺ، وبذلك تفتحون قلوب مَن حولكم مرّةً أخرى.

أجل، لو أنكم لا تتمالكون عبراتكم عند قراءة القرآن فلا ريب أن أبناءكم سيستوعبون أمورًا كثيرة عندما يرونكم، وأنا على قناعةٍ تامّة بأن مما يجعل إنساننا متبلد الشعور قراءة القرآن بلا روحٍ وبلا خشية.

جاء في حديث شريفٍ قول سيدنا رسول الله ﷺ: "**إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ قِرَاءَةً مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ يَتَحَزَّنُ بِهِ**"(٤٤)، وجاء في حديث آخر: "**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ، فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا**"(٤٥).

فإذا كان القرآن قد تناول الإنسان بكلّ ما يحيط به من أحزان ومشاكل -ولا ريب في ذلك- فعلينا أن نعبّر عن هذا الحزن بأحوالنا، غير أن الوصول إلى هذا المستوى يقتضي معرفة ما بالقرآن، فنحن ربّما نوقّر القرآن ونبدي كلّ تعظيم وإجلالٍ له، إلا أنّ سعينا للوقوف على معانيه على اعتبار أنه كلام الله فيه مزيدٌ من التعظيم والتوقير، فضلًا عن ذلك فإن هذا السعي يُساعد الطفل على أن يشعر بعمقٍ أكبر في قلبه وذهنه بمعاني القرآن الكريم، فتمتلئ روحُه بها، ويرتوي ظمؤه الروحي بشكلٍ يتناسب مع مستواه.

لكن من اكتفى بالوقوف على معاني القرآن الكريم ولم ينفتح للمشاعر الدينية يعدّ ناقصًا، أما من لم يصل إلى هذا القدر على الأقل فهو خائب خاسر، إذ من الضروري أن يتعلّم الإنسان ما في الألفاظ القرآنية

(٤٤) الطبراني: **المعجم الكبير**، ٧/١١؛ أبو نعيم: **حلية الأولياء**، ١٩/٤.

(٤٥) **سنن ابن ماجه**، إقامة الصلاة، ١٧٦؛ أبو يعلى: **المسند**، ٥٠/٢.

من معانٍ مقدّسة حتى يمكنه أن يحظى بما وعد به القرآن الكريم للبشر، وبالتالي نُعلّم ذلك لأطفالنا.

وها هو "الحافظ المناوي" ينقل لنا واقعةً عند شرحه للحديث الشريف الذي ذكرناه آنفًا:

كان طفلٌ يقرأ على بعض الصالحين القرآنَ، فرآه شيخُه مصفرَّ اللَّون، فسأل عنه، فقالوا: إنه يقوم الليل بالقرآن كلّه، فقال له شيخه:

"في هذه الليلة استحضِرْني في قبلتك وكأنّك تقرأ عليّ القرآنَ في صلاتك ولا تغفل عني!".

فلما أصبح قال له: "ختمتَ القرآنَ كالعادة؟".

قال الشابّ: "لم أقدر على أكثر من نصفه".

فقال الشيخ: "في هذه الليلة استحضِر مَن شِئتَ من الصحابة الذين سمعوه من الرسول ﷺ في قبلتك واقرأ عليه".

ففعل، فلم يمكنه إلا قراءة نحو ربعه، فقال له الشيخ في الليلة التي بعدها: "اقرأ الليلةَ على من أُنزل عليه".

ففعلَ، فلم يقدر على أكثر من جزءٍ، فقال له: "الليلة استحضِرْ أنك تقرؤه على جبريل الذي نزل به واعرِف قدرَ من تقرأ عليه".

ففعل، فلم يقدر إلا على سورة، فقال الشيخ: "الليلة تُبْ إلى الله وتأهَّب واعلم أن المصلّي يناجي ربَّه، وقِفْ بين يديه فانظر حظّك من القرآن وتدبّر ما تقرأ، فليس المراد جمع الحروف بل تدبّر المعاني".

ففعل فأصبح مريضًا فعاده أستاذُه، فلمّا أبصره الشابُّ بكى وقال:

"جزاك الله عني خيرًا، ما عرفتُ أني كاذبٌ إلا البارحةَ، لمّا استحضرتُ الحقَّ وأنا بين يديه أتلو عليه كلامَه، ووصلتُ إلى قوله تعالى "**إياك نعبد**" لم أرَ نفسي تصدُق في قولها فاستحييتُ أن أقول "**إياك نعبد**" وهو يعلم كذبي وصرتُ أردّد في القراءة كلامه إلى "**مالك يوم الدين**" حتى طلع الفجر، وقد احترق كبدي، وما أنا إلا راحلٌ له على حالة لا أرضاها من نفسي".

فمات فدُفِن، فأتاه أستاذُه فناداه فأجابه من القبر: "يا أستاذ أنا حيٌّ قدمتُ على حيٍّ فلم يحاسبني في شيء".

فقام أستاذُه مريضًا فلحِقَ به(٤٦).

لا بدّ من التأمّل في معاني القرآن حتى تنفتح قلوبنا له، والوقوف على مفرداته، وتعظيمه لكونه كلام الله تعالى، وقراءته بأسلوبٍ يعبّر عن احترامنا وتقديرنا له، فإنْ فعلنا ذلك جذبَ القرآنُ القارئ والمستمعَ إلى مناخه، وفتح لهما أبوابه السماويّة على مصراعيها.

وإننا لا نقصد من نقل هذه الحادثة سالفةِ الذكر أن نقول: لا تقرؤوا القرآن إلّا بشرط التفكّر والتأمّل هكذا، ولكنني أرى أن الوقوف عند بعض المسائل مثل: القضايا التي يحدّثنا القرآن عنها، والتغيّرات التي يُحدِثُها القرآن في أرواحنا؛ تقتضيها مسؤولية اصطفائنا لأن نكون مخاطبين له، ولا يُتصوّر أن القرآن سيؤثّر في حياتنا الفردية والاجتماعية ما لم يُحدث هزّات روحيّة في كياننا، علينا أن نتغيّر بالقرآن، ونتّجه إلى آفاقه، ونشعر بأعماقه ومعنوياته؛ حتى يكشف لبصائرنا عن أسراره.

لنرجع إلى موضوعنا، ونقول: أجل، إن هذا الفتى لم يمتْ، بل انتقل إلى الرفيق الأعلى؛ لقد توقّف قلبه نتيجة الانفعال الذي قد يُحدثه القرآن

(٤٦) المناوي: **فيض القدير**، ١/١٩٠.

فـي القلوب الطاهـرة، فارتحل إلى ربّه، ولا جرم أنه سـيعيش حياةً أبدية، إنـه لم يسـتطـع أن يتجاوز قول الله تعالى "**إِيَّـاكَ نَعْبُدُ**"، وظلّ حتى الصباح يكرّر ما قبلها.

وشـخصٌ آخر أحسّ بمثل هذه الحالة الروحيّة في الكعبة المشـرفة، عندما وضـع رأسه على جدار الكعبة قال: "يا ربّ"، ثم توقّف وكأنّ لسانه قـد انعقـد، وراودته فكرة: "هل تملك القدرة على قول هذا؟ لماذا ما زلتَ تُرائي؟" لم يستطـع أن يكمل بقيّة كلامه، فإن ما اختلجَه عبارةٌ عن مشاعر لا يُمكن شـرحُها أو إشـعارُها لأحد؛ إنها مشـاعر جيّاشة استغرقت بضـعَ دقائق، وبعد ذلك لم يسـتطـع حتى ذلك الشـخص نفسـه أن يشرح الحال التي كان عليها.

والآن لو أنّنا حافظْنا على هذا المنهج في بيوتنا، وأبدَينا عشقَنا لكتاب ربّنـا مـن خلال تصرفاتنـا، وكأننا بالفعل جلوسٌ في حلقة سـيدنا رسـول الله ﷺ؛ سـرعانَ مـا انبَعثَـت الحيـاة فـي أرواح من حولنا كالعشـب الذي يتهاطل عليه المطر، ولأصبحت حياتنا الاجتماعية في صورةٍ يغبطنا عليها الملائكة والروحانيّون.

أ. لا تنفِّروا

يشـهد تاريخنـا القريب أن أجيالَنا التي نشـأت في بلدنـا وفي البلدان الإسـلامية الأخرى لم تسـتطـع أن تستوعب -بقدر الكفاية- رسائلَ الدين التي تحمل اليسـر والبشـرى في طيّاتها، ولو أننا فَحَصْنا ذلك بقلبٍ سليمٍ وعقـلٍ صحيـحٍ لأدركنا أن السـببَ في هذا هو العجزُ عـن إدراك المعنى وفتورُ الهمّة.

أجـل، لم يسـتطـع المؤمنون في ذلك العهـد أن يُدركوا المعنى الذي تعبّر عنه مقولة "آمنّا بالله"، بل وعجزوا عن الحفاظ على التناغم والتناسق

بيـن العالم الداخليّ والخارجيّ، ولم يفهموا بأعماقهم الوجدانيّة الظواهرَ المتعلّقة بالدين، وللأسف حتى عندما أصبحت التربية الدينية مادةً تُدرّس في المدارس اكتفى بعض معلمي مادة الدين والأخلاق في هذه المدارس بتحفيـظ القرآن الكريـم للأطفال ولم يقتنصوا الفرصـةَ التي أُتيحت لهم، ولـم يقتصـر الأمر على ذلك بـل طبّقوا مناهج تربويّـة خاطئةً على الطفل الـذي ليـس له علاقة قويـة بالدين، وبذلك قضوا حتى على شـعور حرمة الدين الذي كان يحمله هؤلاء الأطفال، لا شكّ أنهم لم يقوموا بذلك بغيةَ قطـع صلة الطفل بالدين، ومـع الأسفِ فإنّ هذا الخطأ الجسيم لم يُتَلافَ بعدُ، بل ما زال يتكرّر منذ عصورٍ مضت.

وحتى الآن لا نستطيـع أن نقول إننا نستغلّ كلّ الإمكانيات التي تفضّل الله تعالـى علينـا بهـا، إنّ بعضَ الشـباب يأتوننا ورؤوسـهم محمّلـة بكثيرٍ من الأسـئلة والشـبهات حول القضايا الدينية، وبدلًا من أن نقوم بوظيفتنا نحوهـم فنحبّبهـم فـي الدين، ونرسّـخ في عقولهـم أن الله هـو المقصود والمطلـوبُ الأوّل، ونـزرع فـي قلوبهم حبّ رسـول الله ﷺ في إطار دائرة العقل والمنطق؛ إذ بنا نُعرض عن هذا كلّه، ونبعث الخوف في نفوسـهم؛ إذ ندين بأن الأمور التي يمكن أن يؤديها الطفل فيما بعد بشـوق واشـتياق في داخله أعظم أهمية من الأمور التي أعرضنا عنها.

أجل، إن كنا نكتفي بتحفيظ الطفل بعضَ الأشـياء وكأنّ مسـألة الدين عبـارةٌ عن شـكليّات ليـس إلا؛ فقد جعلنا من أنفسـنا سـببًا لإعراضه عن الديـن وبغضِه له، ولو التحقَ بدرسٍ دينيّ ما التحق بالآخر، فكيفما يتحتّم علينا ألا نُطعم طفلَ السـتة أشـهر طعامَ البالغين، فكذلك يجب ألا نضغط عليه في مسـألة الحفظ حتى يبلـغَ سـنًّا معيّنة، فلربّما يحاول في المستقبل أن يحفظ بنفسه بعد أن يتذوّق شعور الإيمان.

فتناول هذه المسألةِ يجب أن يتمّ في إطار العملِ على تحبيب الطفل في الدين، وحضّه على التفكير، وحثّه على الإذعان لأمور الدين وتعلّمها، فإن لم نسلك هذا الطريق وأغرقنا هذه العقول البريئة في الأرقام الحسابيّة، ولجأنا إلى منهج تكثيف الواجبات وتحفيظه إياها؛ فقد تسبّبنا -عن قصد أو غير قصدٍ- في نفوره من الدين والمشاعر الدينية، وبذلك نكون قد أسأنا له ظانّين أننا نخدم الدين.

على المؤمنين أن يكونوا في يقظةٍ من هذا الأمر، ويعملوا على تحبيب الطفل في الدين بكلّ جوانبه، وبدلًا من شحن عقله بالمسائل الحسابيّة نحاول فتحَ قلبِهِ وعقلِهِ على الروح والمعنى، ويلزم أن نغرس في قلبه حبّ القرآن الكريم حتى يُصبِحَ تعلُّمُ القرآن واستيعابُ مقاصدِهِ الإلهيّة هدفًا من أهدافه الحياتية الرئيسة، حتى يقول في نفسه: "اللهم أحسن إليّ بفهم دينك، لأتعلم هذه المقاصد السبحانية، ويمتلئ قلبي بحبّ كتابك العظيم".

ب. الحفاظ على أداء الفروض والنوافل بانتظام

يقول الله تعالى: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى**﴾ (سُورَةُ طَهَ: ١٣٢/٢٠).

على الأب والأم ألا يقصّرا في أداء الوظائف الدينيّة، حتى لا يلمح الطفلُ أيَّ قصور لدى الأبوين في هذه المسائل؛ فقد كان سيّد الكونين صلوات ربي وسلامه عليه لا يتهاون في أداء صلاة التهجّد أبدًا، وكانت له أذكارٌ وأورادٌ يردّدها ليلًا ونهارًا، فإن حدث ولم يتمكّن من أداء شيء من هذه الأوراد والأذكار في موعدها أدّاها قضاءً في وقتٍ آخر رغم أنه لا يجب عليه ذلك، وبهذا يبيّن بوضوحٍ ألّا بد من المواظبة على عبادة اعتادها الإنسان.

وقد فهم الصحابة ﷺ ضرورة المواظبة على العبادة التي شرعوا فيها، فها هو عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ من العباد والزهاد في عصر النبوة، كان يريد أن يصوم الأيام كلها، ويصلي حتى الصباح، والأكثر أنه لمّا تزوج لم يقرب زوجته ليالي عدة، فاشتكت زوجته إلى رسول الله ﷺ على لسان أبيها، فدعاه النبي ﷺ، وعاتبه بخصوص زوجتِه، ولندع عبد الله ﷺ يكمل لنا الحديث:

كُنْتُ أَصُومُ الدَّهْرَ وَأَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ، فَإِمَّا ذُكِرْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَإِمَّا أَرْسَلَ إِلَيَّ فَأَتَيْتُهُ، فَقَالَ لِي:

"**أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ الدَّهْرَ وَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ؟**".

فَقُلْتُ: بَلَى، يَا نَبِيَّ اللهِ، وَلَمْ أُرِدْ بِذَلِكَ إِلَّا الْخَيْرَ.

قَالَ: "**فَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ**".

قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ: "**فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَصُمْ صَوْمَ دَاوُدَ نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّهُ كَانَ أَعْبَدَ النَّاسِ**".

قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَمَا صَوْمُ دَاوُدَ؟

قَالَ: "**كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَاقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ**".

قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ: "**فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عِشْرِينَ**".

قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ: "**فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عَشْرٍ**".

قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ: "**فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ سَبْعٍ، وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**".

قال عبد الله ﷺ: فَشَدَّدْتُ، فَشُدِّدَ عَلَيَّ، وَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: "**إِنَّكَ لَا تَدْرِي لَعَلَّكَ يَطُولُ بِكَ عُمْرٌ**".

يقول ﷺ: "فَصِرْتُ إِلَى الَّذِي قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا كَبِرْتُ وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ قَبِلْتُ رُخْصَةَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ"(٤٧).

يقول هذا لأنه من الصعب أن يداوم الإنسان على هذا القدر من العبادة بعدما أسنّ وشَاخَ، وصعبٌ على مثل هذا الصحابي أن يفوته شيءٌ مما اعتاده من العبادات، لأن أهم شيء عنده أن يجده نبيُّه عليه الصلاة والسلام كما تركه.

قصة عبد الله بن عمرو هذه تُعدّ مثالًا جليًّا لموضوعنا، فعلى الإنسان إذا ما همّ بعبادةٍ وجعلَها عادةً له ألا يدعها مطلقًا، جاء في حديث شريف: "**إِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ**"(٤٨)، فإن لم يكن بوسعنا فعل ذلك فعلينا أن نكتفي بالقدر الذي يسعنا فعله -فيما عدا الفرائض- حتى لا نصغر في عين أطفالنا، إن كنا نكتفي بأداء الفرائض والسنن فعلينا ألّا نقصّر فيها، ولو كنّا بدأنا صلاة التهجد فعلينا أن نواظب على أدائها، كما ينبغي إن كنا قد شرعنا في أداء صلاة الأوّابين والإشراق والضحى أن نحافظ على أدائها، لا بدّ من ذلك حتى لا تذهب بالطفل الظنون ويعتقد عدم أهمية المواظبة على مثل هذه الأمور إذا ما شُرع فيها.

(٤٧) صحيح البخاري، الصوم، ٥٤؛ صحيح مسلم، الصيام، ١٨٢.

(٤٨) صحيح البخاري، الرقاق، ١٨؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢١٨.

وهكـذا تصبـح الجدّيّة فـي أداء العبادات جزءًا مـن ذاتيّة الطفل، فإن رأى فيكـم قصـورًا فـي هـذه المسـألة نبّهكم إليهـا وقال لكـم: "أبي إنك لم تصلِّ صلاة الإشراق، ولم تقم لصلاة الضحى"، فضلًا عن ذلك يجب أن تُؤدّى العبادات في خشـوعٍ تام وخشـية بالغة؛ حتى يمتلئ وعي الطفل بهذه المشاعر الإيجابيّة.

وما حاولنا توضيحه حتى الآن إنّما هو لمن يعنيهم الأمر مثلنا. أجل، هـذا هو السـبيل لمَن يرجو أن يكون أبناؤه مـن العقلاء الواعين المتديّنين من ذوي الحسّ والشـعور؛ لأنّ كلّ شـيءٍ له سبيلُه الخاصّ الموصل إليه، وبالسـير فيه تُحصد النتيجة، وبعبارةٍ أخرى نقول إن رجونا أن ينشأ الطفل على الطريق المسـتقيم، وأن يكون له منهجُ حياة فلا بدّ أن يكون لنا أوّلًا طريـقٌ ومنهجٌ فـي الحياة، يجب أن تتّحد أفكارنا وتصرّفاتنا حتى يتشـبّع الطفل بهذه الأشـياء عند رؤيته لها تتحقق أمامه بعينها، فإذا ما فعلنا ذلك انتظمـت حياتنـا وحاز أبناؤنا سـعادة الدنيا والآخرة، وهـذه الأمور تتبدّى كالحِمْيَة أو الوصفة العلاجيّة، ومن ثمّ لا بدّ من عدم التذمّر أو الشـكوى عند القيام بها، إنها تشـبه تناول الأدوية اللازمة صباح مسـاء دونما ارتيابٍ أو انقطاع، فبذلك تتّزن تصرّفاتنا ويسود التناغم والانتظام بيوتَنا.

أجل، يجب أن يشـعر الطفل بالاحترام والخشـية والأدب ومراقبة الله في نظراتنا وبسماتنا وكل أحوالنا؛ حتى تفيض روحُه بهذه المشاعر.

ج. الشعور بتعظيم شعائر الله

ثمّـة ألفاظٌ مقدسـةٌ بالنسـبة لنـا، تكمن وراءهـا معانٍ مقدّسـة، فلفظ الجلالـة "الله" يحمـل مفهومًا ذا قدسـيّةٍ كبرى، والإيمان بـه ركنُ الإيمان الركيـن، فمـن لا يؤمن بـالله لا يُتصوّر أن يعيـش حياةً إسـلاميّةً وإيمانيّةً، وهذا مفهومٌ عظيمٌ، ولذا فعلينا ألا ننسـى مطلقًا أننا مكلّفون بترسـيخ هذا

المفهوم في الأذهان وتأصيله في القلوب وإشغال العالم الخياليّ للطفل به اعتبارًا من سنٍّ معينة، وهي مرحلةٌ تبدأ -كما يرى البعض- في الفترة من السابعة إلى التاسعة من العمر، ولكي يعيشَ النبي ﷺ في خيال الطفل فلا بدّ أن تدور أحاديثنا في البيت عنه ﷺ دائمًا، فلو كانت تدور عن فناني التلفزيون والسينما فحسب، أو لَو شغل التلفزيون والسينما أفقَ المشاهدة لدى الطفل لسيطر على خياله هؤلاء الفنانون والفنانات، فإذا ما سألناه عن الرياضيّين أو الفنانين أو الموسيقيّين تراه يعرفُ العديدَ منهم لكنه لا يكاد يعرف أسماء أربعةٍ من الصحابة ﷺ، ولا ريب أن هذه الأمور لن تعود بالنفع على ذاكرته وعقله الباطن، وسيُحشى ذهنُه بأمورٍ لا طائل منها تؤدّي إلى "فسق الخيال".

يجب أن تكون كل أفكارنا وتصرفاتنا تعبّر عن قدسية ما قدَّسه الدينُ، فمثلًا الكعبة مكانٌ مقدّس، ولذا علينا أن نبدي كلّ احترام وتقديرٍ لها عند التعبير عن مشاعرنا نحوها أمام الطفل، علينا أن نطأ الأرض في احترامٍ وتقديرٍ إذا ما اقتربنا من الكعبة أو المدينة المنورة، بل يمكن أن نذهب بالأمر إلى أبعد من ذلك فنقول: يجب أن يكون مبدؤنا في سَيرِنا في الأماكن التي مشى فيها النبي ﷺ هو مبدأ الإمام مالك ﷺ، حيث كان يكره أن يدوس بحذاءٍ على أرضٍ دُفن فيها رسول الله ﷺ، وأن يركب دابةً تطأ بحافرها موطِئ قدم رسول الله ﷺ، كان ﷺ عند قدومه من مكانٍ بعيدٍ إذا وصل إلى مشارف المدينة وأسوارها ينزل عن دابته ويمشي حافيًا، ولا جرم أن الطفل الذي يرى هذا سيفيضُ قلبه بتوقير الروضة الشريفة وصاحبِها صلوات ربي وسلامه عليه.

وتسري هذه القدسيّة أيضًا على القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿**ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ (سُورَةُ الْحَجِّ: ٣٢/٢٢).

نعم، إن تعظيم الشعائر من تقوى القلوب، وتقوى القلوب تتطلّب معرفةَ القلب بالله وتوقيره والركون إليه وطاعته وإدراك الحقيقة الإلهية تمامًا.

إن تعظيم الشعائر مسألةٌ جدُّ حياتيّة، فمثلًا: المسجد من الشعائر فيجب أن ينظرَ الطفل إليه نظرة تعظيم خاصة؛ حتى يُذعن أن كل الطرق الموصلة إلى الله تمرّ به وتتقاطع معه، فإذا ما ارتفع الصوت اللاهوتي للمؤذّن قائلًا: "الله أكبر" عظم هذا القول في نظر الطفل فكرّره، فإذا ما انتهى المؤذّن من أذانه رفع يديه قائلًا: "**اَللّٰهُمَّ رَبَّ هٰذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ آتِ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ**".

خلاصة القول: إننا إذا آمنا بالله وأحببناه وامتلأت قلوبُنا بمشاعر التقوى والتعظيم لشعائره استطعنا أن نغرز هذه المشاعر في قلب الطفل وأن ندلّه على عظمة ربّنا ونحبّبه فيه، ونغرس في ذاتيّته أنه لا محبوب ولا مقصود ولا مطلوب سوى المعبود المطلق ﷻ، يقول رسول الله ﷺ في حديث رواه الطبراني عن أبي أمامة ﷺ: "**حَبِّبُوا اللهَ إِلَى عِبَادِهِ يُحِبَّكُمُ اللهُ**"(٤٩)، ومحبة الله لا تتأتّى إلا بتمام معرفته؛ لأن الإنسان صديق ما يعرف، وعدوّ ما يجهل، فالملاحدة والزنادقة يعادون الله لأنهم لا يعرفونه ﷻ، فلو أنهم عرفوه لأحبّوه.

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ (سُورَةُ الذَّارِيَاتِ: ٥١/٥٦)، ويفسر ابن عباس ومجاهد ﷺ هذه الكلمة "**لِيَعْبُدُونِ**" بـ"لِيَعْرِفُونِ"(٥٠)، بمعنى أن الإنسان إذا ما عرف الله توجّه إليه بالعبادة، فإن جهله ناصبه الجحود والعداء، من أجل ذلك لا بدّ أن

(٤٩) الطبراني: **المعجم الكبير**، ٨.

(٥٠) البغوي: **معالم التنزيل**، ٤/٢٨٨.

نوضّح للطفل بدايةً كلّ هذه الأمور؛ حتى يعرفه هو أيضًا ويفيض قلبه بهذا الشعور، وبالتالي يتوجّه بكلّ تقدير وتوقيرٍ له، غير أن لكلِّ مستوى أسلوبَ تعريفٍ خاصًّا به، ومسألة التعريف بالله يتحدّد مستواها وفقًا لعمر الطفل ومستواه، فقد يكفي الطفل في سنٍّ معيّنة أن نقول له بأسلوبٍ مجرّد ودون حاجةٍ إلى دليل: إن هذه المائدة التي أمامك قد أحسن الله بها علينا، أما مَن هم في سنٍّ متقدّمةٍ أكثر فعلينا أن نوضّح لهم أن المطر الذي يتوق إليه الإنسان والحيوان والنبات وينهمر فوق رؤوسنا إنما يتنزّل من السماء بفضلٍ من الله وعنايته، ويفيض بمحض رحمة الله تعالى، أما مَن هو في سنّ أكثر تقدّمًا فيستدعي أن نحدّثه مثلًا عن قانون التبخّر الذي وضعه الله تعالى في البحار والأنهار، وقانون تساقط الأمطار على شكل قطرات في الهواء، وأن كل هذا لا يمكن أن يقع على سبيل الصدفة، بل إن كلّ شيء يجري بعناية الله وفضله، أما الأطفال النوابغ فعلينا أن نعرّفهم بالله ونحبّبهم فيه باستخدام البراهين الخاصّة بالعلوم الطبيعية.

يقول رسول الله ﷺ: "**أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللهِ وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبِّي**"(٥١).

ولا تتخلل مسألة تحبيب الطفل في الله أيّ صعوبةٍ إذا ما انتهجنا في سبيل تحقيقها المنهجَ الصحيح، فمثلًا إذا ما وفّرنا للطفل كتب السِّيَرِ بدلًا من الكتب عديمة الفائدة التي تقع عينُه عليها، أو على الأقلّ إن أعطيناه كتابًا يمكن أن يطّلع عليه في كل لحظة مثل كتاب "حياة الصحابة" لمحمد يوسف الكاندهلوي فأغلب الظنّ أن الطفل بذلك سيجد الفرصة للتعرّف على الرسول ﷺ وصحابته ﷺ، وسيملأ كلُّ واحدٍ منهم عينَه وسيتعاظم في

(٥١) سنن الترمذي، المناقب، ٣١.

نظره وكأنّه بطل حياته، ومن ثمّ سيسعى إلى الاقتداء والتشبّه بهم، فيحاول أن يصبح مثل سيدِنا أبي بكر في صدّيقيّته، وسيدِنا عمر الفاروق في بالغِ عدالته، وسيدنا حمزة في شجاعته، وسيدِنا عليّ الكرّار في إقدامه وجرأته، رضي الله تعالى عنهم آلاف المرّات، آمين.

أجل، من الأهمية بمكان أن نضع المصحف الشريف وكتب السير وكتب المغازي التي تدور حول حياة الصحابة ﷺ في ركنٍ أساسي من البيت؛ وأن نعمل على تغذية قلوب أطفالنا بما في هذه الكتب من معلومات، وأن نسعى إلى تحبيب الأجداد إليهم وتعليمهم الافتخار بأبطالنا التاريخيين.

وهنا أريد أن أنوّه بنقطةٍ مهمّةٍ، وهي الرجوع إلى الأدلة المختلفة للردّ على الشبهات والشكوك التي تسلّطت على عقيدتنا من جراء النظريّات الفلسفيّة والقوانين العقليّة، وإن كان ذلك من مقتضيات العقل والمنطق، فإن الاشتغال بالمنطق المجرّد قد يُطفئ أحيانًا الحياة القلبيّة للإنسان ويدفعه إلى اليأس والقنوط، فعلى الإنسان بعد أن يقوم بالوظائف التي يقتضيها عقلُه ومنطقه ويؤدّي ما عليه من مهام تتعلّق بهذا الأمر أن يشرع في البحث عن أمثلةٍ حيّةٍ من الواقع العملي تعكس هذه الأفكار والمشاعر، وعلى ذلك فإن عجزتم عن أن تضربوا للأفكار الدينية التي تلقنونها للطفل أمثلةً حيّةً من الحياة العملية حتى يستوعبها؛ فستظل هذه الأفكارُ مجرّد نظريّاتٍ في ذهنه حتى وإن تحدثتم بلسان الفيزياء والكيمياء والفلك، واستعنتم بالأدلة الأنفسية والآفاقية الدالة على وجود الله تعالى ووحدانيّته، بل حتّى وإن دلّت لكم السماء مصعدًا نورانيًّا تعرجون إليها من خلاله.

فإن لم نستطع أن نُثبِتَ لأطفالنا أن الأحكام الدينيّة والأخلاق العالية التي تحدّثنا لهم عنها قد كان لها وجودٌ في أزمنة معيّنةٍ من التاريخ؛ فقد تبدو هذه الأمور وكأنها نوعٌ من الخيال والطوبيا، ومن ثمّ فنحن مضطرّون إلى أن نوضّح بأمثلةٍ حيّةٍ أن هذه القيم كان لها وجودٌ حقيقي في تاريخنا ويمكن معايشتها مجدَّدًا.

فما زال الكثير من الشبهات يدور في أذهاننا وقلوبنا حول إمكانية معايشة هذه القيم حتى وقتٍ قريبٍ، حتى لقد انتشرت كالوباء فكرةٌ تقول: "ربما وقعت هذه الأحداث، ولكن من المحتمل أن تكون قد وقعت مرّةً واحدةً، أما وقوعُها مرّةً أخرى -لا سيما معايشتها- أمرٌ صعبٌ للغاية، بل قد يبدو هذا الأمر ضربًا من الخيال والطوبيا".

إننا على يقينٍ بأن مَن يعرف الله ونبيه ﷺ عندما يرى هؤلاء الشباب الذين نشؤوا يحبّون ربهم ونبيّهم ﷺ سيدرك إمكانية أن تعيش مجموعة مثل الصحابة فيما بعد.

والحقّ أن لدينا ثقة كبيرة في إمكانيّة وجود هذه المجموعة التي تشبه الصحابة والذين وصفهم النبي ﷺ بقوله "**الغُرَباء**"(٥٢)، وهو يزفّ إلينا إشاراته وبشرياته؛ وأنهم سيرفعون راية الدين المبين إلى أوج الكمالات.

إنَّ ما نحمله في قلوبنا من تقوى وحبٍّ لربنا وتوقيرٍ له وتعظيم للمسجد وغيره من الشعائر يأخذ بقدر اطّلاعنا على الآيات التكوينيّةً شكلَ صروحٍ مقدّسةٍ في نظر الطفل، وكلّ واحدٍ من هذه الصروح يمثّل دعوةً للمثول بين يدي الله، وبالمناسبة نريد أن نذكِّر هنا بأبيات جديرة بالذكر والتقدير للشاعر التركي "يحيى كمال":

(٥٢) وهو حديث "**إِنَّ الإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**". (صحيح مسلم، الإيمان، ٢٣٢؛ سنن الترمذي، الإيمان، ١٣).

أنـت أمرٌ سمـاوي أيّـها الأذان المحمـديّ
لا يكفـي لصـداك العـالَمُ الدنيـويُّ

وتغـرق السمـاواتُ السبـعُ فـي الأنـوار
كلما حلَّق من آلاف المآذن الروحُ المحمديّ

وتشـاهد الأرواحُ كلُّـها حقيقةَ "الله أكبـر"
إذا انعكس علـى العرش الأذانُ المحمـديّ

الأذان هو من أهمّ الرموز في المشـاعر السـامية للإسلام، وهو وسيلةُ تجهيـزٍ معنـويّ قبـل الصلاة، كما أنه فـي الوقت ذاته تعبيـرٌ عن أن عظمة الصلاة تكمُن في أنها عبوديّة لله، كما أنه نداءٌ ودعوةٌ من الله ﷻ، فلو ربّينا أطفالنا على هذه المشـاعر جاشـت قلوبهم عند سماع الأذان، واغرورقت أعيُنهـم، وتدفّقت مشـاعرهم وارتَجّت أوصالهم في خـوفٍ ومحبة، وإننا بمشـيئة الله تعالى سـنعمل علـى إحياء هذه الوظيفة التـي ورثها آباؤنا عن أجدادهم ونقلوها لنا رغم ما تعرّضت له هذه الوظيفة من هزّات وضربات.

أجل، سـنعلن عن شعائر الله، ونعرّف جيل المستقبل بقيمتِها وقدرها، ونحبّب الجميـع في الله ورسوله وكتابه المعجز البيان.

والخلاصة أنه يجب علينا القيام بحياتنا التعبّدية في بيوتنا، وأن نسعى بـلا تضييـعٍ للوقت إلى إزالة الشـكوك والشـبهات التي تـدور حول الدين وما زالت عالقةً في أذهان أطفالنا، كما ينبغي أن تكون لنا ساعاتٌ محدّدةٌ في بيوتنا نتقرّب فيها من ربّنا ﷻ؛ ونستقبل فيها الرحمات الإلهيّة المنهمرة علينـا، وتتجّه أبصارنـا إلى ربّنا في خوفٍ ورجـاء، وتفيض صدورنا حزنًا وأسًى. أجل، يجب أن تكون هناك ساعة نتصوّر فيها وجود رسول الله ﷺ فـي بيتنـا، ولكن لا بدّ أن ينعكس هذا التصوّر بشـكلٍ أو بآخر على الطفل والزوجة.

إنّ هـذه الأمـور التـي تتعلّق بحياتنـا التعبّدية والعقائديّة في الإسـلام لَتُعتبَر قَيّمةً عظيمة، وعندما يراها الطفل ويشـعر بها في المسـتقبل سيدعو لكم اعترافًا بالجميل.

إن تعظيم شـعائر الله يعني التعظيم القوليّ والفعلي للقيم العظيمةِ في نفسها والتي عظّمها الدين وعظمتموها أنتم كذلك. نعم، حينما يتردّد اسم الله العلـيّ العظيـم في الأذان تحلّق حقيقة "الله أكبـر" في الآفاق، وترفرفُ في عالم الأرواح، وتتوشّح القلوبَ، فإذا ما رأى الإنسان هذه الجماليّات تنتابه النشوةُ وتبتسم له الحظوظ.

الفصل الخامس

كيفيّة الشرح والتوضيح

كيفيّة الشرح والتوضيح

كان موضوعُنا الرئيس في الفصل السابق يدور حول تحديث الطفل عن الأمور العقائدية والعملية بما يتوافق مع مراحله العمرية، وذكرنا أنّ إحراز أي نتيجةٍ إيجابيةٍ في هذا الأمر يتوقّف على مدى جدّية ما يبديه الأبوان أو المربّون من تصرفاتٍ وأفعالٍ وتطبيقٍ للأقوال.

أجل، لو كانت الأقوال ترجمانًا للأفعال وللعالم الداخلي للإنسان فإن كلّ ما نشعرُ به ونفكّر فيه ونعمل على إيصاله للآخرين سيجد -حتمًا- صدى كبيرًا له في قلب المخاطب، أما إذا لم تتطابق أقوالُنا مع أفعالنا ولم تؤيّدها؛ وانعدم اليقينُ والإذعان والاعتقاد في القلوب؛ فبدهيّ أن هذه الأقوال لن تجدَ لها التأثير المرجوّ لدى المخاطبين.

وبناءً عليه: فإن تولّيتم وظيفةً في مؤسّسةٍ تعليميّة صغيرةٍ أو كبيرةٍ أو في وحدةٍ أُنيط بكم إدارتُها فلا بدّ أن تعلموا أنكم أنتم منبعُ النظام والانتظام، فإن انحرفتم تبدّى على الفور كلُّ ما في الهيئة من انحرافات وزلل، ولكن إن سلكتم طريق الاستقامة ما وجد الانحرافُ طريقَه إلى النظام أو المجموعة التابعة لكم، وإن حدث فهو ضئيل.

١- كيفية التطبيق

إنّ تحقيـق التأثير المطلوب والوصـولَ إلى الثمرة المرجوّة من كلامنا وأقوالنا مرهونٌ بمراعاة الدقّة والحساسـيّة في التصرّفات والأفعال، فمثلًا: إن كلّ مـا نُبديه من احتـرامٍ بالـغٍ وأدبٍ جمّ لمولانا ﷻ في الصلاة يعكس حالـة مثولنـا بين يدي الله، ومن ثـمّ فإن الركوع والسـجود والقيام في هذا الجوّ هو أجدى نفعًا في ذهن الطفل من قراءة كتابٍ كاملٍ يتحدّث عن هذه الأمور، وقد يكون هذا الفعلُ أبلـغَ ردٍّ على سـؤال الطفل: كيف ينبغي أن نوقّر ربّنا ونعظّمه؟ أما إذا كنّا ننقرُ الصلاةَ كنقرِ الديك كما جاء في حديث شـريف(٥٣)، فـإن تقبّل الطفل لمسـألة الصلاة منكم سـيكون على حسـب الحالة التي تكونون عليها في أثناء الصلاة، ويجب أن نعلم أن صلاةً خالية من الاطمئنان كهذه ليس من شأنها أن تنهى عن الفحشاء والمنكر أو تحضَّ الأولاد على تعظيم الله تعالى أو تتركَ أثرًا إيجابيًّا في أرواحهم.

أجل، الخشوع في الصلاة أمرٌ مهمّ للغاية، وإن ذِلّة الإنسان وخضوعه أمـام ربّـه ومثولَـه بين يديه في خشـوعٍ وأدبٍ يترك تأثيرًا كبيـرًا في أولئك الراصدين الأبرياء.

وكمـا أنّ علينا أن نكـون قدوة في الأمور الإيجابية فكذلك لا بدّ وأن نراعي الدقّة والحذر في الأمور السلبيّة، فقد تداهم الأطفالَ فيروساتٌ من الشـبهات والشـكوك تصيبهم ممّن حولهم في الشارع أو المدرسة، فلا بدّ من إزالة هذه الشبهات والشكوك من أذهانهم دون تضييعٍ للوقت، فمثلًا: علينـا ألا نغـضّ الطرف عن الكتب التي يقرؤها الطفـل وإن كانت روايةً، فـإن توفّـر في بطـون هذه الكتب مـا يمسُّ عقيدَتَنـا ودينَنا ولـم نقمْ بفعل

(٥٣) وهو حديث أبي هريرة ﷺ يقول: "أَمَرَنِي خَلِيلِي ﷺ بِثَلَاثٍ، وَنَهَانِي عَنْ ثَلَاثٍ: أَمَرَنِي بِرَكْعَتَيِ الضُّحَى، وَصَوْمِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنَ الشَّهْرِ، وَالْوِتْرِ قَبْلَ النَّوْمِ وَنَهَانِي عَنْ ثَلَاثٍ: عَنِ الِالْتِفَاتِ فِي الصَّلَاةِ كَالْتِفَاتِ الثَّعْلَبِ، وَإِقْعَاءٍ كَإِقْعَاءِ الْقِرْدِ، وَنَقْرٍ كَنَقْرِ الدِّيكِ" (مسند الإمام أحمد، ١٣/٣٨).

اللازم تجاه ذلك؛ فستأخذُ الشبهات والشكوك تُراودُ ذهنَه دون وعيٍ منه، وعلى ذلك: يجب ألا نكتفي بملاحظة أحوال الطفل في البيت، بل ينبغي أن نراقب جوّه العام، وخاصّةً فيما يتعلّق بتطوّره الفكريّ وبنيته الشعوريّة والفكريّة، فإنَّ اختيارَ الكتب التي يقرؤها الطفل وتحديدَها مسبقًا هو مسألةٌ ضروريّةٌ بالنسبة لمَن ينشد أن يُصبح ابنه رجلًا ذا غايةٍ وهدفٍ.

أجل، إن مما لا سبيل إلى إغفاله في مسألة التربية بعد فترةٍ معيّنة؛ معرفةَ ما يتعاطف الطفل معه وما يستاء منه، والتطلّع إلى ما يسمعه وينصت إليه، والتعرّف على أصدقائه بل وتحديدهم، فضلًا عن معالجة كلِّ مسألةٍ تتعلق به على حِدةٍ كالطبيب الحاذق الذي يعالج مريضَه.

أ. الطالب والمعلّم والأبوان

من أهم مشاكل اليوم الاختلاف الثقافي الواقع بين الآباء والأولاد، أو بعبارة أخرى: بين الجيل القديم والجيل الحديث، وإن هذا الاختلاف الثقافي وما ينجم عنه من نتائج سلبية يجب تدارُكُها بأخذ التدابير التربوية اللازمة، ويمتدّ زمن الأخذ بهذه التدابير حتى سنّ الرشد، فإن تأخّرنا عن ذلك لن يكون لِما نقوم به أيّ تأثير، فمثلًا قد يدرس أبناء الأبوين الأمّيّين في الجامعة، ولا يعجب بعضَهم ما يقوله آباؤهم وأمهاتهم ولا يأبهون له؛ لأنهم يعتبرون أنفسَهم أعلى مقامًا منهم، حتى إن هناك الكثير من المتديّنين يدرس أبناؤهم في التعليم الأساسي أو في الثانوية فيتبنون بعض الأفكار الهدّامة، ويدعون إلى الفسق والفجور، ويتمرّدون على دولتهم وحكومتهم وأمتهم وإدارة مدرستهم، ويشاركون في الحركات الطلابية المهيّأة لأيّ استفزازاتٍ من الداخل والخارج، وفي حركات التمرد المختلفة التي تنادي بـ"المقاطعة"، وهم بذلك يلهثون وراء خيالٍ تدفعهم إليه رغباتهم.

وعند تحليل أسباب هذه الحركات الطلابيّة في الماضي والحاضر وكيف وصلت إلى هذه المرحلة؛ سيتبيّن لنا أن أعظم أخطائنا هو أننا لم نتتبّع تحرّكات أبنائنا ولم نتعهّدهم بالتربية اللازمة، وعلى ذلك فإن التأوّه والأنين على النتائج السلبية التي حصدناها بسبب عيوبنا وأخطائنا والتحسّرَ على ما فات هو أمرٌ لا فائدةَ منه، بل إن عذاب الضمير الذي نشعر به في قرارة أنفسِنا إنما هو همٌّ لا يجدي فتيلًا.

ويحكي القرآن الكريم عن الذين ضُلّلوا، والذين أُهْمِلَتْ تربيتُهم، والذين يُقلّدون غيرهم قائلًا: ﴿**وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا**﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٦٧/٣٣).

إنه بيانٌ قرآنيٌّ مروّعٌ يستدعي تأوّه القلوب وأنينها؛ إذ إنه يحمل عتابًا صريحًا ولاذعًا من الأجيال المسكينة التي لا نصيبَ لها من العبادة والطاعة إلى الآباء والأمهات والأعمام والأخوال والأقرباء والمشايخ والمرشدين والمعلّمين في المدرسة.

أجل، إنّ هذا البيان القرآني يتضمّن عتابًا ولومًا ودعاءً بالشرّ من قِبل الذين خُتم لهم بخاتمة السوء على من كانوا مسؤولين عنهم؛ وكأنهم يقولون: "اللهمّ إنّ هؤلاء أضلّونا، وأغْوَوْنَا، ولم يعتنوا بنا، اللهم زِدهم ضعفًا من العذاب والعنهم لعنًا كبيرًا، واطردْهم من حضرتك الإلهيّة".

ومن ثمّ فإنّ أيّ تصرّفٍ إيجابيّ يقوم به مَن أُنيطت بهم مسؤوليّة التربية والتعليم يكون سببًا في سعادتهم وسعادة أولادهم في الدنيا والآخرة، والعكس صحيحٌ، فإن أيّ إهمالٍ أو تصرّفٍ خاطئٍ من هؤلاء الذين أُنيط بهم تحمّل المسؤولية يؤدّي إلى كارثةٍ عظيمةٍ في الدنيا والآخرة، ليس لهم فحسب، بل لمَن تمّ إهمالهم أيضًا.

ب. صيحة الذين ضُلِّلُوا

إنكم إن أفسحتم المجال لانشغال الطفل بأمورٍ لا تعود بالنفع على حياته المادّيّة والمعنويّة والأخرويّة والدنيويّة ينجم عنه بدايةُ مرحلةٍ جديدةٍ من الصياح والجدال والعتاب والتماس المعاذير، على نحو قوله تعالى: ﴿**قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٧/٣٨-٣٩).

أجل، يمكننا أن نقول وفقًا للبيان القرآنيّ السابق: إن أبناءكم الذين احتضنتموهم وربّيتموهم، وظننتم أنكم قد أحسنتم تربيتهم سيصبّون اللعنات صبًّا على كبارهم الذين أضلّوهم، من أجل ذلك لا بدّ أن يخشى من يُؤمن بالآخرة -ولو بقدرٍ ما- من مثل هذه اللعنات التي يمكن أن تُصبّ عليه في الآخرة، وترتجفَ أوصاله من ذلك، ويستعين بالله ويلجأ إليه، أما سبيل الخلاص من هذا الوعيد وذلك اللوم فهو أن نكون قدوةً حسنة لمَن يحدِّدون أحوالهم وأوضاعهم وفقًا لأوضاعنا وسلوكيّاتنا الفكرية، يجب أن نكون قدوةً حسنةً في كلّ أمر؛ بدايةً من حبّ الله ورسوله وتوقيرِهما حتى الانضباط الخُلُقي.

إن البيت المملوء بحبّ الله ورسوله تكون درجةُ تعلّقِ الطفل بربّه فيه على حسب ما يقرؤه ويراه ويسمعه في هذا البيت عنهما، ونستطيع أن نعتبر هذا مقياسًا، ونقول: إننا نستطيع قياس نسبة ذكر الله في أيّ بيتٍ اعتمادًا على انفعالات الطفل، ويمكننا أن نشعر بعمق هذا الأمر في خَلَجَانِ الطفل ومشاعره، ويمكن في ضوء ذلك أيضًا أن نعرف قدر اجتناب المنكر والإتيان بالمعروف.

أجل، إن الطفل بمثابة شاشة يشاهَد منها ما يدور في البيت، وسمّاعة للأصوات التي تدور داخل البيت، ومن خلال هذه الشاشة أو السماعة يمكننا مشاهدة أكثر المواضع خصوصيةً في البيت، والتعرّف على أخفى همساتِه.

ج. سبيل الجنة والنار

يقول رسول الله ﷺ: "**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**"(٥٤)، أي لا يدخل الجنةَ مَن لم يستطع أن يتجاوز عقبات المكاره أي أن يتحمّل عبءَ العبادة والطاعة، ويقمع شهواته ونزواته، ولم يتخلّص من الخضوع لأيّ غوايةٍ، والتسليم لأي منكرٍ يستوجب اللعن، بل يقترب من النار شيئًا فشيئًا، إذًا هناك وجهتان للسبيلِ الذي أمامنا، وللهدف الذي سنصل إليه، فلا بدّ أن ننتهي وننْهَى عن كل ما نَهى الله عنه، ونأتمر ونأتي بكلّ ما أمرنا الله به بحذرٍ تام ودون تغييرٍ، ونحملَ أبناءنا على الإتيان به؛ حتى نظلّ صامدين بفضل الله، فلا ننجرّ وراء شهوات النفس أو نتعلّقَ بما لا تطيقه النفس.

نحن ثمرة أعمال السابقين، والأجيالُ القادمة ستكون ثمرة أعمالنا، فبدلًا من أن نشكو الزمانَ والعصرَ الذي نعيش فيه علينا أن ننظر إلى ما أُهْمِلنا فيه فنستدرك ذلك في أولادنا ونحاول أن نرى ما الذي سينجم عنه إهمالُنا في المستقبل، حتى نشعر بعمليّة انبعاثٍ قلبيّة وروحيّة وشعوريّة في وظيفتنا ومسؤوليّتنا، ومثل هذا الانبعاث سيكون انبعاثًا لنا ولتاريخنا وللأجيال القادمة بعدنا.

(٥٤) صحيح البخاري، الرقاق، ٢٨؛ صحيح مسلم، الجنة، ١، (واللفظُ لمسلم).

٢- معنى القراءة

من أهم المسائل التي لا بدّ أن نعرّفها للطفل مسألة القراءة والكتابة، فعلى الطفل أن يتعلّم القراءة والكتابة التي توصّله إلى هدفٍ وغايةٍ معيّنةٍ، وينسلخ من التبعيّة ويرتقي إلى المتبوعيّة أي من كونه يسوقه الآخرون ويوجّهونه إلى أن يسوق الآخرين ويوجّههم، ولكن عليه أن يدرك ما الذي تعنيه القراءة والكتابة، يقول الشاعر الصوفي "يونس أمره"(٥٥):

العِلم هو أن تعرف أن تعرِف نفسَك

فإن أنت لا تعرفها فالعفاء على ما قرأت

علينا قبل الشروع في تناول هذا الموضوع أن نحاول إيجاد جوابٍ لهذه الأسئلة: ما العلم؟ وما هدفه؟ ولماذا نقرأ الكتب؟ وما الغاية المنشودة من وراء قراءتها وفهمها؟ غير أنني أرى ضرورةَ التأكيد على ما يلي قبل الجواب على هذه الأسئلة:

فلو أن إنسانًا تعلّم طوال حياته الأصول والقواعد المعقّدة المتشابكة لعلم الحساب ولكن لم يستطع تطبيقها في حياته، أو أنه لم يفكّر في تطوير علمه بالنظريات والفرضيّات الجديدة فهذا يعني أنه لم يبلغ الغاية من العلم، وكذلك مَن تعلّم القواعد الرئيسة لعلم الطبّ ولكنّه لم يمارسها، فلم يقس نبضَ مريضٍ، ولم يسمع نبضاتِ قلبه ولم يُصغِ إلى كبده، فهذا يعني أنه ما انتفع بالعلم الذي حصّله في مجال الطب، فضلًا عن ذلك فثمّة شكٌّ في احتفاظ ذاكرته بما تعلّمه؛ لأن الأصل في تحصيل العلم هو -كما قال يونس أمره- معرفة الإنسان نفسَه، وبدهيّ أن العلم الذي لا نعرف من خلاله أنفسنا لن يفيدنا نحن ولا غيرنا.

(٥٥) يونس أمره (١٢٣٨-١٣٢٠م): من أشهر شعراء التصوّف بين الأتراك، خلّف أثرًا كبيرًا في الأدب التركي، وعاش في عهد سقوط الدولة السلجوية في الأناضول. (المترجم)

أ. القراءة والكتابة

من المسلّم به أن القرآن الكريم يتصدّر مسألة القراءة والكتابة، ونحن نؤكّد هنا على أننا لا نقرّ حشوَ ذاكرة الطفل بالحفظ بعيدًا عن المقاصد الشرعيّة بل يجب علينا أن نأخذ بيده ونغذّي روحه بالقرآن حتى يسعى وحده في المستقبل إلى فهم مقاصد ربّه ﷻ.

إننا نتوهّم -مع الأسف- أننا بإمكاننا حلّ جميع المشاكل بإلزام الطفل بقول "بسم الله"، والواقع أن "بسم الله" كلمةٌ مهمّة للغاية، وتُحلّ بها المشاكل، غير أن هناك مسألةً أهمّ تقف وراء هذا وهي تعليمُ الطفل وإرشاده إلى المقاصد الشرعيّة والإلهية وإن كان إجمالًا، وإنني أرى بقناعتي القاصرة أن هذه مسألة لا بدّ من تعلّمها وتعليمها.

لقد عاش تاريخُنا المنصرم عهودًا مجيدةً في غاية الزهوِ والسؤدُد، إلا أنّ بعضَ حُقُوبِهِ الزمنيّة كانت على النقيض من ذلك، حيثُ اعتلى المناصبَ العِلميّة والإداريّة والشرعيّة في جميع الأقطار الإسلاميّة آنذاك حكّامٌ ووُلاةٌ وقُضاةٌ يحفظون القرآن الكريمَ والعلوم الأخرى حِفظًا حرفيًّا دون فهمٍ واستيعابٍ لجوهر العلوم التي تعلّموها، ممّا جعلَهم مقلّدين عميانًا في الأوامر التكوينيّة والمسائل الشرعيّة، إذ لم تكن لهم أيّ قدرةٍ على الاستنباط والإبداع، ولم يتّخذوا أيّ موقفٍ حيال ما عاصروه من محرّمات وممنوعاتٍ دينيّة، وبالطبع فإنّهم فشِلوا في المحافظةِ على الشرف والكرامة والأمانة التي حمّلها لهم الإسلام.

وقد يبعث هذا الأمر رجفةً في أفئدتنا، ولكنني أقول -بكل أسفٍ- إن هؤلاء قد تلاعبوا بشرف وكرامة ودين الأمم السابقة واللاحقة؛ فما حصّلوه من العلوم لم يترسخ في قلوبهم ولم تذعن له أفئدتهم، يقول

الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿**وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٧٨/٧).

عن حذيفة بن اليمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "**إن ممَّا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى إِذَا رُئِيَتْ بَهْجَتُهُ عَلَيْهِ وَكَانَ رِدْئًا لِلْإِسْلَامِ غَيَّرَهُ إِلَى مَا شَاءَ اللهُ فَانْسَلَخَ مِنْهُ وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَسَعَى عَلَى جَارِهِ بِالسَّيْفِ وَرَمَاهُ بِالشِّرْكِ**، قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَيُّهُمَا أَوْلَى بِالشِّرْكِ الْمَرْمِيُّ أَمِ الرَّامِي؟ قَالَ: "**بَلْ الرَّامِي**"(٥٦).

وإننا اليوم لنرى الكثير ممّن يتسنّمون المناصب الرفيعة يجهلون معرفة الله تعالى ورسوله، ويعيشون في جهلٍ مُطبِق، لا يتأمّلون في آلاف الآيات والدلائل التي تعجّ في الكون، ولا قدرة لهم على التأليف والتوفيق بينها، فهم صمٌّ عميٌ عن الحوادث والموجودات، وإنّهم بذلك -أيًّا كانت أسماؤهم وألقابهم- في جهلٍ مطبِق وفقرٍ فكريّ مدقعٍ؛ لأن العلم في رأينا هو المعرفةُ التي تُضيء مشاعر الإنسان وعقله وعالمه الفكري، وأما غيرُ ذلك فهو عبارة عن حشوٍ في الذاكرة وحمل أسفارٍ ضارّة غير نافعة.

لقد تجلّت أولُ رسالة في القرآن الكريم على هيئة ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**﴾ (سُورَةُ العَلَقِ: ١/٩٦)، وكان أول خطابٍ للرسول ﷺ هو: "**اقْرَأْ**"، لم يقل القرآن الكريم: "اقرإ القرآن"، ولم يقل: "اقرؤوا القرآن المنزّل إليكم"، ولكن القرآن أوضح معنى أمر "اقرأ" بنفسه فقال: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾، وهو بهذا يلفت الأنظار إلى حادثة الخلقِ وما فيها، وعلاوةً على أن الآية تأمر بقراءة القرآن الكريم فهي تُوجّه إلى قراءة ما هو مسطورٌ في صفحات الآيات التكوينيّة؛ ﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**﴾ (سُورَةُ العَلَقِ: ٣/٩٦-٤).

(٥٦) ابن حبان: **الصحيح**، ٢٨٢/١.

وكما رأينا جاء ذِكر عنصرَي القراءة والكتابة تباعًا، فعلى الإنسان أن يقرأ ويكتب، ولكن عليه أن يقرأ ما يُعينه على إدراك الآيات التكوينيّة والتعرّف على عالمه الداخلي وفهم لبّ الألفاظ القرآنية، فينظر تارةً إلى وظائف أعضائه، وتارةً إلى تركيب جسمه وتارةً أخرى إلى صفحة الكون، ويبدأ في مشاركة الدرس الذي تلقّاه والمعرفة التي حصّلها مع أُسْرَتِهِ ثم يتوسّع بعد ذلك إلى الآخرين.

أجل، يُفهم من السياق هنا أن الأمر "اقرأ" ليس المقصود به مجرّد القراءة لألفاظ القرآن الكريم، وإنما قراءة الأوامر الإلهيّة، والآيات التكوينيّة، والقوانين الكونية، ومن ثمّ فعلينا أن نقرأ باسم الله ونتدبّر بإمعانٍ في خلقتنا وفي الكون وفي كتاب الله، والقرآن الكريم هنا يلفت انتباهنا إلى مسألة الخلق بدايةً وكأنه يسأل: كيف خُلقتم؟ وعقب هذا مباشرة يوجّه عقولنا إلى أسرار الخلقة فيبيّن في موضعٍ أننا خُلقنا من عَلَق، وفي موضع آخر أنّنا خُلقنا من ماء.

وثمّة درسٌ يلقّنه الله للإنسان من خلال أمره بقراءة كتاب الكون مع القرآن، وهو أنّ أيَّ طالب مبتدئٍ يستطيع أن ينهل من هذا المنهل العذب مثل أيّ مفكّرٍ عظيمٍ، تمامًا كما كان الحال في عهد رسول الله ﷺ؛ فلقد كان الجميع -الأمّيون والعلماء والمدقّقون- يجلسون بين يدي رسول الله ﷺ فينهلُ منه الجميعُ رغم اختلاف مستويات بعضهم عن بعض، ويأخذ كلّ واحدٍ منهم نصيبَه مما يسمع على حسب أُفُقِ إدراكه.

وفي تعبير القرآن عن الكتابة بالقلم بعضُ الإشارات، فالقرآن بقوله: ﴿**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾ (سُورَةُ القَلَم: ١/٦٨) يؤكد على أهمية القلم، نحن لا نعرف معنى حرف "**ن**" معرفةً تامةً، إلا أن بعض المفسّرين يفسّرونها بمعنى الحوت، وهناك من المفسرين مَن يقول بأنه المحبرة، لكن لندع

المفسرين وتفسيراتهم ونقول: إن استهلالَ السورةِ بـ"نون" والقسمِ بـ"القلم" لَيوضّح مدى أهمّيّة القلم وعظمته عند الله تعالى، ولكنّ هذا القلم هل هو قلم الكرام الكاتبين الذين يكتبون ويسجلون صحائف أعمالنا وسيرة حياتنا؟ أم أنّه قلم ساكني الملإ الأعلى الذين يُسجّلون ويقيدون الأقدار؟ أم أنه هو القلم الذي سجّل أقدارنا أزلًا؟ أو أنّه هو ذلك القلم الذي نستخدمه في المدرسة أو في مجالات أخرى؟... كلّ هذا ليس مناط اختلاف، وإنّما مناطُ الاختلاف محصورٌ فيمن يستخدم هذا القلم، وعلى كلّ حالٍ فإن قَسَمَ الله تعالى بالقلم يتضمّن كلّ ما ذكرناه.

ب. العلم يُفضي إلى خشية الله

وفي آيةٍ أخرى يقول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ (سُورَةُ فَاطِر: ٢٨/٣٥).

أجل، إن العلماء هم أشدّ الناس خشيةً لله تعالى؛ لأن شعورَ التوقير للذات الإلهيّة يعتمد على العلم والمعرفة، وبدهيّ أنّ مَن لا يعرف الله ولا يقف على الأسرار الإلهيّة ليس له نصيبٌ من هذه الخشية والتوقير.

وانطلاقًا من هذه النقطة نقول: إن الخطوة الأخرى التي يجب علينا القيام بها لتنشئة أبنائنا تنشئةً صحيحةً من حيث بنيتهم الداخلية والخارجيّة هي أن نرسِّخ لديهم العقيدة السليمة، فيجب أن نُطلِعَ الأطفال على ما قرأناه واطّلعنا عليه وشاهدناه من أدلةٍ تدور حول وجوبِ وجودِ واجبِ الوجود ﷻ بما يتوافق مع مستوياتهم وثقافاتهم، وقد تنجح أدلة في إزالة الشبهات من أذهانكم، ولكنها قد لا تكون كافيةً ومتناسبةً مع عمر الطفل ومستواه ووضعه الثقافي، وهذا يستدعي إعادة تأهيل الطفل بشكلٍ أكثر دراية وتخصّصًا.

ثمّة أمرٌ آخر وهو: تغذية القلوب بمحبة الرسول الأكرم ﷺ، وإشباعها بالحديث عن حياته المباركة، وفي هذا الصدد يمكن الرجوع إلى بعض المسائل من نوعيّة ما يتناوله كتابُ "النور الخالد"(٥٧).

ج. إزالة الشبهات

يرِد علينا العديدُ من الأسئلة؛ منها: "الله هو مَن خلق الكون، فمَن -حاشا لله- خَلَقَ الله؟".

والحق أن كثرة هذه الأسئلة مؤشّرٌ إلى ضعف وقلّة تزويد الطفل بالأفكار السليمة المستقيمة عن ربّه ﷻ، كما أنّ الدافع الرئيس من وراء طرح سؤالٍ مثل: لماذا تزوّج النبي ﷺ بالعديد من الزوجات؟ يرجع إلى أن الطفل ليس لديه فكرة سليمة ومعرفة تامة بنبيّه ﷺ.

وكذا إن جاء شخص وقال: كان النبي ﷺ يتّصف بذكاء مذهل، وما أحدثه من إجراءات عظيمة وراءها ذكاؤُه الفذّ ودهاؤه النادر، فهذا يعني أن ذلك الشخص يعاني من خواء شديد من حيث معرفة الحقائق الدينية، إذ إنه لا يعرف معنى النبوّة، هذه الأسئلة وغيرها من الأسئلة المشككة ورد جوابها في كتاب الأستاذ فتح الله كولن: الرد على شبهات العصر.

غير أن التدخّل الخاطئ في هذا الأمر -رغم فداحة الجروح وعظمتها- ربما يُعقّد المسألة أكثر، فنحن مضطرّون بدايةً إلى توطيد البنية الفكريّة والروحيّة لدى الطفل، وترسيخ عقيدته بالله ﷻ، فلا بد من رعاية عمره حتى يقتنع بما نحدّثه به، فمثلًا لو عرضنا عليه هذه النظريّة المنطقيّة وقلنا: "لا إبرة بلا صانع، ومن المستحيل أن نعتقد أن إبرة بسيطة قد تشكلت بنفسها دون صانِع، فلا شك أن لهذه الموجودات خالقًا وهو

(٥٧) كتاب "**النور الخالد**" للأستاذ محمد فتح الله كولن، من إصدارات شركة دار النيل، وهو من نوعية كتب فقه السيرة النبوية التي تتناول حياة النبي محمد ﷺ بالشرح والتحليل.

الله ﷻ، فمثلُ هذه النظرية قد يكون جوابًا شافيًا على شبهات الطفل في هذه السنّ، وإنكم إن بادرتم بإعطاء هذه الوصفة العلاجية وأسعفتم هذا الطفل المتردّد في حينه لأَزَلْتُم كلّ الشبهات والشكوك التي تساوره دون أن تُفسحوا مجالًا لتفشيها وتطوّرها.

وعن أبي حنيفة النعمان ﷺ أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى فقال لهم: دعوني فإني مفكّر في أمرٍ قد أُخبرت عنه، ذكروا لي أن سفينةً في البحر مُوَقَّرة (أي: مُحَمَّلة) فيها أنواع من المتاجر، وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلّص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد، فقالوا: هذا شيءٌ لا يقوله عاقل، فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المُحْكَمة ليس لها صانع؟!! فبُهِتَ القوم ورجعوا إلى الحقّ وأسلموا على يديه(٥٨).

هذا خطابٌ يليق بمستوى المخاطب، وهذا الأسلوب مهما كان قدر منطقيته ومعقوليته بسيطًا فهو كافٍ بالنسبة لأشخاصٍ في مستوى معين، ويمكن التأكيد على سلامة هذه الأسس أيضًا لدى مَن هم في مراحل عمريّة متقدّمة بالوقوف على الموضوعات ذات الأبعاد الفكرية العميقة، ولنضرب لهم أمثلةً على ذلك بالكون والإنسان وبنيَتِهِ الداخلية والخارجيّة، فلقد خلق الله تعالى عقل الإنسان وعينه وآليّاته الداخلية وخلاياه وتركيبه الداخلي وفسيولوجيّته بشكلٍ تَحارُ له العقول والألباب، وأظنّ أن تناول كلّ موضوع من هذه الموضوعات على حدة شرحًا وإيضاحًا في إطار الأسس العلمية كافٍ تمامًا لمن هم في مستويات وأعمار مختلفة.

(٥٨) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ١٠٦/١.

كما يمكننا تحديثُ مخاطبٍ آخر عن الهواء والماء والضياء ومختلف الفيتامينات والبروتينات والكربوهيدرات أو ماهيّة الكائنات المجهرية، ربما تختلف طريقة العرض على حسب ما يُطرح من مواضيع، إلا أنّ مادة الدرس والبرنامج تبقى كما هي من حيث بنيتها الأساسية.

وما أجمل أسلوب الأستاذ بديع الزمان سعيد النُّورْسِي ﵀ عندما يتحدّث عن الله تعالى:

> "إنك بلا شكّ تعلم أنه لا قرية بلا مختار، ولا إبرة بلا صانع وبلا مالك، ولا حرف بلا كاتب، فكيف يسوغ لك القول: إنه لا حاكم ولا سلطان لهذه المملكة الرائعة المنتظمة المنسقة؟"(٥٩).

فهل يمكن ألا يكون هناك حاكم لهذا الكون الكبير العظيم، وكيف له أن يسير هكذا بلا تدخّل؟... إن استخدام هذا الأسلوب يُعتبَرُ مثالًا جيّدًا على ما نحن بصدده.

فإذا ما تذكّرنا كلَّ ما أُوردَ من أدلّة في هذا الموضوع وإذا استعرضنا عقلًا كلَّ ما كُتب عنه من مؤلفاتٍ سيتبيّن لنا أننا نملك معدّات مهمّة، وأحسب أنه لن يبقى علينا بعد ذلك إلا بعض الأمور البسيطة كاستغلال هذه المواد التي بحوزتنا في مكانها، وتقديم بعض الموضوعات وتأخير بعضها وهكذا.

٣- التعريف بعصر السعادة النبوي والرسول الأكرم ﷺ

كما أنّ علينا أن نراعي الدقة التامّة عند حديثنا عن النبي ﷺ، وإنني شخصيًّا أعزو عدم حبِّ البعض للنبي ﷺ إلى أن ذويهم لم يلقّنوهم ذلك في مرحلة الطفولة، فمَن خالَطَه ﷺ معرفةً أحبّه، بل وهوِيَه وعشقه، ولقد سُحر الكثيرون به عصورًا، واتبعوه وساروا على دربه؛ حتى إننا لم نر مثل

(٥٩) بديع الزمان سعيد النُّورْسي: الكلمات، الكلمة العاشرة، ص ٤٨.

هذا القدر من التعظيم والتقدير لأحدٍ من البشر على مستوى العالم كما كان للنبي ﷺ، ومع ذلك فليس من الصحيح أن ننتظر حبًّا من الطفل للنبيّ ﷺ دون أن نعرّفه به ونحدّثه عنه، لقد شرفت زمرةٌ سعيدة الحظّ برؤيته ﷺ في فترةٍ ما، ثم أعقبتها زمرة أخرى رأت مَن رأوه، فحاولت هذه الأخرى أن ترى النبيّ بعيون الصحب الكرام ﷺ، ويؤكد هذا قول سيدنا رسول الله ﷺ: "**خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**"(٦٠).

لقد نشأ النبي ﷺ في عهدِ الظلام؛ عهدِ البداوة البشرية، كان الناس فيه يتّصفون بالغلظة والقسوة حتى إن بعضهم كانوا يدسّون بناتهم في التراب وهنّ أحياء، وكان معظمهم يشرب الخمر، وانتشرت في ذلك العهد أيضًا ما يُسمى الآن بالفكر الشيوعي بقدرٍ ما، فلما بُعث سيد البشر ﷺ أصلح الحياة الاجتماعية مرّة واحدة، فكانت إنجازاتُه ﷺ معدومةَ الندّ والنظير كما ذاتُه وصحابتُه.

أجل، كأن الرسول الكريم صلوات ربي وسلامه عليه قد نفذ إلى خلايا المخّ لدى الناس في ذلك العصر، وتربّع على عرش قلوبهم، وعالج أمراضهم المادّية والمعنويّة معًا، وجعلهم أناسًا مثاليّين وارتقى بهم إلى أوج الكمالات، وإنّ هذا ليُعتبَرُ ثورةً عجيبةً ضنّ الزمان بِنِدِّها على مدار التاريخ.

حدثت ثورات وانقلابات في روما واليونان وغيرهما من البلدان، غير أنها لم تعِدْ الإنسان بالكثير من حيث قِيَمه الإنسانية، بل قد أحدثت في هذه المجتمعات أزماتٍ جديدةً، بل ورَجَّعَتْها في بعض الأماكن إلى عهدها القديم، ولم يُخلّف قسمٌ من هذه الانقلابات للإنسانية إلا الدمَ والدموع.

(٦٠) صحيح البخاري، المناقب، ٢٩؛ صحيح مسلم، فضائل الصحابة، ٢١، ٢١٥.

إنّ الانقلاب المنشود هو ما يُحدِثُ تغييراتٍ إيجابيّةً في عقول الناس وقلوبهم وأرواحهم وحياتهم المادّيّة والروحية وأفكارهم ومشاعرهم، ويرقى بهم من أوحال الأهواء النفسية إلى الإنسانية في أعلى عليّين، ثم يتطوّر بعد ذلك فيتحوّل إلى دوائر صالحة، لقد قام الرسول الأكرم والمصلح الاجتماعي الأعظم ﷺ بهذا في إطار النبوّة معتمدًا على هذا الفهم الاجتماعي العميق، ولكن ما قَدْرُ معرفتنا بما حقّقه؟! وما القدر الذي نحدّث به أطفالنا عنه ﷺ مع أنه يمثّل لنا -في كلّ الأمور- القدوةَ الحسنة المعصومةَ عن أيّ نقصٍ أو قصور؟

يقول مهندس الفكر في عصرنا:

"ليأخذوا مائةً من فلاسفتهم وليذهبوا إلى الجزيرة العربيّة، وليعملوا مائة سنة هل يتيسّر لهم أن يفعلوا جزءًا من مائة جزءٍ ممّا فعله الرسول ﷺ في سنةٍ واحدة بالنسبة إلى ذلك الزمان!"

ثم يتناول المسألةَ بشكلٍ أيسر فيقول:

"إن رفعَ عادةٍ صغيرة -كالتدخين مثلًا- من طائفةٍ صغيرةٍ بالكلية، قد يَعْسُرُ على حاكم عظيم، بهمّةٍ عظيمة، مع أنّا نرى هذا النبي الكريم ﷺ قد رفع -بالكلّية- عاداتٍ كثيرة من أقوام عظيمة متعصبين لعاداتهم، معاندين في حسّيّاتهم"(٦١).

ولنا أن نوجز المسألة فنقول: لو أن عشرة أشخاص اجتمعوا حول إنسانٍ مدخّن، وشرحوا له أضرارَ التدخين وأنه يتسبّب في مرض السرطان وما إلى ذلك من أضرار؛ لعجزوا عن إقلاعه عن هذه العادة السيئة، بيد أن الرسول ﷺ قد استطاع في حملةٍ واحدةٍ أن يقتلع جذور الخصال الخبيثة التي سرت في عروق الناس ودمائهم آنذاك، واستطاع أن يبنيَ بدلًا منها صروحَ أرسخ القيم الإنسانية.

(٦١) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، الكلمة التاسعة عشرة، الرشحة الثامنة، ص ٢٥٧.

إن الحساسيّة في مسألة تحريم الخمر لتُشكِّل نموذجًا مهمًّا للقضاء على الخصال الخبيثة دفعةً واحدة: تأمّلوا، مجتمع سكّير، يُصاب بالدوار إن لم يشرب الخمر... لكن لمّا حُرّم الخمر دفعَ قدحَ الشراب عن فمه وطرحه أرضًا دون تردّد... ولا أدري إلام يعزو المربّون الحاليّون لدينا أثرَ هذه التربية الفعالة.

إن ما يقع على عاتقنا هو أن نفهم ونشرح لأبنائنا قدرَ هذه العظمة الباهرة للرسول الأكرم صلوات ربي وسلامه عليه، وأن ننبّه الضمائر إليها، فإن نجحنا في فعل ذلك أخذ أبناؤنا يتحدّثون عنه ﷺ ويفكرون فيه ويشعرون به، وهذه العملية قد نطلق عليها بمعناها الخاص "تلْقينًا وإيحاءً" أو مددًا إلهيًّا بالنبيّ ﷺ لنا، ندعو الله تعالى أن يديم تأييدَنا برسوله ﷺ.

وعلينا أن نقصّ على أبنائنا جميع الحوادث ما وقع منها وما سيقع مما أخبرنا به النبيُّ وكأنه ﷺ يشاهدها أمامه مباشرة عبر شاشة التلفاز؛ وهذا ما يجدد ويقوّي ثقتهم به ﷺ.

ثمّة أخبارٌ صحيحةٌ صريحةٌ وردت في الأحاديث لا تقبل التأويل، أخبرنا فيها رسول الله ﷺ بأهمّ الأحداث التي وقعت من لَدُنْ عصر السعادة النبوي الذي نشأ فيه حتى قيام الساعة، وعدّد لنا أسبابها ونتائجها الواحدة تلو الأخرى، فأنذرَنا ونبّهَنَا، وتضمّنت هذه الأحاديث كثيرًا من الوقائع العظيمة مثل احتلال المغول، وارتفاع قيمة وقدر نهر الفرات، ونفط طالقان وانتشار الفحش في آخر الزمان...[٦٢]، كل هذا نقله لنا النبي ﷺ على هيئة لا يسع من شهدها إلا التصديق والإيمان به.

(٦٢) انظر: صحيح البخاري، الفتن، ٢٤؛ صحيح مسلم، الفتن، ٣٠-٣٢، ١١٠؛ سنن أبي داود، الملاحم، ٩-١٠؛ مسند الإمام أحمد، ٥/٤٠-٤٤.

أجـل، إذا شـرحنا للطفـل كل هـذا على الترتيـب شـعر بالتوقير إزاء عظمتـه ﷺ، ومـا اسـتطاع الآخرون أن ينزعـوا صورة الرسـول الأكرم ﷺ عن ذهنه وعقله.

إن النبي ﷺ لم يجلس بين يدي أحد ويأخذ عنه العلم والفن والتقنية، ولـم يكتـب كتابًـا في حياته، ولـم يتعلّم شـيئًا من أحد سـوى مولاه ﷻ، فـإذا ما علمنا أن النبـي ﷺ كان يعلم علوم الأولين والآخرين؛ فإن تعريف الآخَرين به هو دَينٌ علينا أن نؤدّيه وفاءً منّا له صلوات ربي وسلامه عليه.

ثمّة أمور ذكرها ﷺ تتعلّق بعلم الطبّ لا يتسنى لأحد معرفتها بمستوى العصـر الـذي كان يعيش فيه؛ وهذا يعني أن الله علّمه ما لم يعلم، ونقل لنا بدوره ما علمه الله له. أجل، إنه رسول الله حقًّا وصدقًا.

ولـو حاولنـا أن نكتب حول الإجراءات العظيمـة التي حقّقها النبيّ ﷺ وما أفرَزَتْهُ من تغيّراتٍ في حياة الإنسان الشخصيّة والاجتماعيّة لما وسِعَتْ موضوعَنـا المجلدات العديدة، غير أننا تطرّقنا بإيجازٍ إلى بعض المسـائل هنا لإعطاء فكرةٍ وجيزةٍ عن هذا الموضوع، ومن ثم فإنني أُحيل الحديث عن الطبّ النبويّ وعن الأخبار الغيبية النبويّة وغير ذلك من صفات عظمته إلـى آلاف المجلـدات التي كُتبت حول هـذا الموضوع، ولننتقل الآن إلى موضوع آخر.

٤- التعريف بالقرآن الكريم

إن تحبيبَ القرآن الكريم بكلّ جوانبه إلى الأجيال الجديدة فتقبّلهم له عـن رضـا واقتناع له أهمّيّةٌ كبيرةٌ في إيقـاظ وإحياء العاطفة الدينية لديهم، فـإن قصـرَ القول علـى أنّ القرآنَ الكريـم كتابٌ مقـدّسٌ لا غير؛ لا يكفي مـن ناحيـة القـرآن ولا من ناحيـة الطفـل، وإن كان كافيًا بالجبـر والإلزام

لمَـن هـم في سـنٍّ صغيرة فلا يكفي ألبتّة لمن هم في سـنٍّ متقدّمة، بل قد يعود بالضرر على الطفل؛ إذ إنه سيتسـبّب في تشـكيل حكمٍ سـلبيٍّ مسبقٍ لديـه إزاء مـا يلقَّـن به من أمـور إيجابية فيما بعد، ومن ثمّ علينا أن نشـرح للطفل كيف أن هذا القرآن العظيم منذ نزوله لم يسـتطـع أحدٌ أن يعارضه أو يتحـدّاه، فهـو رسـالة الله الأخيـرة مـن السـماء؛ ولا حـرج إن اعتمدنا في ذلك على القضايا المحكمة التي أثبتها العلم والتكنولوجيا في عصرنا الحاضر.

فـي الحقيقة إن القرآن الكريم يوافـق أحدث المعطيات العلمية حول الخلق والوجود والكون على اتّساعه ولا يناقضها، بل إنه أعطى معلومات إجماليّـة عنها على صورة قواعـد كلّية، وعلى ذلك لا يجانبنا الصواب إن قلنا إن هذا الكتاب الرائـع يوضح ويشرح كلَّ شيء بدايةً من عالم الذرّات حتـى عالـم المجرّات مسـتهدفًا بذلـك توجيه المرء إلى عبـادة ربه، يقول الله تعالـى: ﴿**وَعِنْـدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْـقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَـاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾ (سُـورَةُ الأَنْعَامِ: ٦/٥٩)، فهذه الآية هي أسـطـع برهان سـماوي على هذه الحقيقة.

٥- الحديث عن الحشر

والحديـث عن الحشـر خطوةٌ أخرى متقدّمة، فـلا بدّ أن يذعن الطفل قلبيًّـا إلى أن هنـاك عُقبى بعد الدنيا، وأُخرى بعد الأولى، وعالمًا آخر بعد هذا العالم، فكلٌّ من العلم والحكمة والمصلحة يشير إلى أن الله هو خالق الكون، وهو الذي يديره ويسيّره، وهو سبحانه الذي وضـع الزمان وحدّده، قال تعالى: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (سُورَةُ العَنْكَبوتِ: ٢٩/٢٠).

ومعنى هذا: سيروا في الأرض ودقّقوا في الآيات التكوينيّة وقلّبوا النظر في صفحات الكون مرحلةً بعد أخرى، ثم انظروا وشاهدوا كيف بدأ الله الخلقَ على الأرض، وكيف وُجدت الموجودات ولم تك شيئًا، وكيف ظهرت الإنسانية، وكيف انتهت إلى الكمال.

إن الله تعالى هو الذي خلق العالم من العدم وكذلك سيُنشئه النشأة الآخرة فيما بعد، فمَن وضع هذا النظام ألا يستطيع أن يُنشِئ عالمًا آخر؟ ومَن خلق الكرة الأرضيّة بعظَمتِها هذه أليس قادرًا على أن يخلق غيرها؟ ومَن أسكنكم في هذه الأرض أليس قادرًا على إسكانكم في عالم آخر؟... يخيل إليّ أن هذا القدر من المعلومات يكفي لهذه العقول البسيطة للأطفال.

يكفي أن ننظر بإمعان واعتبارٍ إلى هذا الخلق البديع للسموات والأرض وكيف تسبح الحيتان في البحر وتطير الطيور في الهواء وتجري السُّدُمُ والأنظمة العملاقة في نظامٍ بديعٍ تحار له العقول والألباب، حينذاك ندرك أنه ما من شيءٍ خُلق عبثًا وبلا غاية أو نظام، فضلًا عن ذلك فإن هذا التناغم جليٌّ وواضحٌ للجميع حتى لأبسط العقول الصغيرة.

يوجّه القرآن أنظارنا إلى كلِّ هذا، ويلفت انتباهنا إلى خَلْقِ الإنسان الذي يحوز أهمّيّةً كبيرة بجانب خلق السموات والأرض.

يقول تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ**﴾ (سُورَةُ السَّجْدَةِ: ٤/٣٢).

يقول أيضا: ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۞ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ**﴾ (سُورَةُ السَّجْدَةِ: ٧/٣٢-٩).

فإذا ما قال القرآن لنا: "إن الله تعالى هو مَن خلق هذه الأنظمة الرائعة ونظّمها، وبعد أن يهدمها سيخلق عالمًا آخر غيرها" ثمّ اعترضتم؛ فهذا اعتراضٌ غير منطقي، وأظنّ أنّ مثل هذا الموضوع لن يكون مثار جدَلٍ أو مناطَ خلاف لدى الصغير والكبير إن بيّناه لهما؛ فللقرآن الكريم العديدُ من البيانات السهلة الممتنعة من هذا القبيل.

يقول القرآن الكريم لمن يعترضون على مسألة الحشر والنشر: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (سُورَةُ يس: ٧٩/٣٦).

ويقول في آية أخرى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سُورَةُ الرُّوم: ٥٠/٣٠).

لقد استخدم القرآن الكريم هذا النمط من الأسلوب المبسّط لبيان ما يلزم للطفل ومتوسّط العمر وغيرهما.

إن تناول مسألة الملائكة الكرام والقدر لا بدّ فيه أيضًا من مراعاة أعلى درجات الدقّة، فيجب علينا أن نوضّحَ للطفل أن لكلّ شيءٍ برنامجًا وخطّةً ومنهجًا خاصًّا به؛ وأنّ خلقَ الإنسان والأكوان أيضًا له خطّته الخاصّة به وبرنامجه الذي لا يحيدُ أو يخرج عنه، وهو ما نُطْلِقُ عليه اسمَ "القدر"، كل هذا وغيره نشرحه للطفل بأساليب ومناهج مناسبة.

والخلاصة أننا بتلقيننا كلَّ هذه المعلومات للطفل نكون قد أرشدناه إلى الصراط المستقيم، ودعونا الله فعلًا وحالًا أن: ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (سورةُ الفَاتِحَة: ٦/١)، كما دعوناه قولًا، ولا ريب أن دعاءنا هذا سيترتب عليه -إن شاء الله وبفضل منه ورحمة- ألا تضيع جهودُنا التربويّة سُدى.

من جانبٍ آخر: علينا أن نحدِّث الطفل عن الصلاة والصيام والزكاة والحجّ، وعن الجماليّات التي جاء ذكرها في كتب الصالحين، وأن

نوجّه قلوب أبنائنا في كلِ أمر، بداية من المسائل الاعتقادية حتى القضايا العملية، وألا نُفسح المجال لموتهم أو تلوّثِهم عقليًا وفكريًا وروحيًا.

فمثلًا: علينا أن نوضّح للطفل مدى فظاعة الشرك حتى يعتقد في نفسه أن دخول جهنّم أهون عليه من أن يُشرك، ومدى شناعة الزنا حتى يكون تقبّل الموت بصدر رحبٍ أفضل من التدنّس بهذا الدنس، فإن أقدمَ على مباشرة هذا الأمر بيده أو بلسانه أو بعينه ارتعدت فرائصه من عذاب الضمير وظلّ يبكي طوال عمره، فإن حدثناه عن قباحة القتل والسرقة والكذب حصل لديه اشمئزاز من كل هذه المنكرات ونفورٌ وحذرٌ من الوقوع في شباكها.

علاوة على ذلك علينا أن نحذّر أبناءنا قولًا وفعلًا من الفسق والفجور، ولا نُفسح مجالًا أمام تردّي الطفل في أوحالهما، فإذا ما نشأ الطفل في مناخٍ نظيفٍ أخلاقيًا منذ البداية فلن تتغلّبَ عليه -بمشيئة الله تعالى- الرياحُ المعاكسة التي تهبُّ فيما بعد، ولن تستطيع أن تنال من بنيَتِهِ الداخلية وعالمه الشعوريّ أبدًا، وبذلك نكفل ديمومةَ بقائه في كنفِ الحيويّة والعشق والشوق ورِحاب العبوديّة لله واحترام الإسلام.

الفصل السادس
أبعاد التربية

أبعاد التربية

تطرّقنا في الفصل السابق إلى المسائل التي لا بدّ من تلقينها للطفل بما يتوافق مع عمره ومستواه، إلى جانب الأمور التي يجب على الأبوين والمعلمين والمربّين مراعاة الدقة فيها عند القيام بعملية التربية.

وننبه هنا مجدّدًا إلى أنّ مَن لم يراعِ الدقّة في هذه العمليّة، ولم يحفل بالعمر والمستوى والأفق الفكري ولا البيئة والمستوى العلمي، ولم يُحسن تغذية طفله وسدّ جوعه ونَهَمِهِ على أكمل وجهٍ؛ فلا تأخذه الحيرة عندما يرى ابنَه ذئبًا جائعًا في المرحلة المستقبليّة.

١- الاستعانة بذكر الصالحين في التعريف بالعمل الصالح

إن التعريف بالعمل الصالح عن طريق الاستعانةِ بأبطاله من الصالحين منهجٌ يهمّ المعلّمين والمربّين فضلًا عن الأبوين، ومن ثمّ سنعرض فيما يلي بعض الأفكار المتعلّقة بالسلوك الواجب اتّباعه في هذه المسألة:

أجل، ينبغي للأطفال والشباب أن يتعرّفوا على العمل الصالح، وحتى لا يبقى هذا الأمر مجرّدَ معلوماتٍ نظريّة فمِن الأهمّية بمكان تعريفُهم بالصالحين وبتعبيرٍ آخر تعريفُهم على الأعمال الصالحة عن طريق تعريفهم بأبطالها، فلا بدّ للطفلِ أن يتعرّف على الشخصيات العظيمة المشهورة بتديّنها وورعها حتى يدرك أن الطريق الذي يسير فيه قد سارَ فيه أفذاذٌ وعُظماء من قبله، وبذلك يشعر بلذّة السير في هذا الطريق،

فإذا ما وصل الطفل إلى سنٍّ معيّنةٍ أدرك أن هذه الشخصيات العظيمة التي كانت تصلي كلَّ يوم كذا وكذا ركعة وتصوم كذا وكذا يومًا في السنة دون اعتبارٍ لحرٍّ أو بردٍ إنّما هي شخصيّاتٌ فاضلةٌ عند ربّها ولا نزكّي على الله أحدًا فإننا نحكم بالظاهر، فإذا ما أدرك الطفلُ هذا أدّى ما عليه في سبيل دينه وتديّنه بما يتناسب مع روح الدين ومعناه، فلا يهتزّ -ألبتة- أمام أيّ ريح معاكسة، يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**يأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَسْتَخْفِي الْمُؤْمِنُ فِيهِمْ كَمَا يَسْتَخْفِي الْمُنَافِقُ فِيكُمُ الْيَوْمَ**"(٦٣).

وهكذا يجب تعريف الأجيالِ الشابّة -وهم ما يزالون في سنّ الطفولة- على سبل التغلّبِ على هذا المرض الذي يظهر في بعض الأحيان، والأحرى أن نلقّنهم أن الدين هو سبيل العزة والكرامة؛ حتى تنشأ لديهم حالةٌ روحيّة تسعى بإخلاصٍ إلى التمسّك بأوامر الدين.

وهنا أريد أن أعرض عليكم هذا المثال الحيّ:

حدث أن جاريةً حديثة السنّ نشأت في عائلةٍ أحسنت التخطيط لتربية أبنائها وكانت تتابعهم باستمرار، إلى أن أصبحت هذه الفتاةُ ذات يوم مرشدةً لمعلّمتها في الفصل الدراسي، فرغم ما كانت تتحلّى به المعلّمةً من ظُرفٍ ورقّة كبيرة مع الجميع فإن الإلحاد أخذ مع الزمن يُنهكها، حتى كاد يفتك بها، وذات يوم سُمع صوت البنت وهي تجهش بالبكاء في أحد الصفوف الخلفية واقعةً تحت تأثير حقيقة الدين المتعمّقة في روحها، وعند ذلك جاءتها معلّمتُها الحنون، وسألتها: ما يبكيكِ يا عزيزتي؟ فقالت البنت: أبكي عليكِ، وأردفت قائلةً: إنني أخشى أن يصيبكِ عذاب الله لأنك لم تؤمني، فتجمّدت المعلّمة في مكانها عند سماعها لهذه الكلمات وتراجعت إلى الخلف دون أن تنبس ببنت شفةٍ، وبعد بضعة أيّام جاءت

(٦٣) الطبراني: **مسند الشاميين**، ١٤٨/١.

المعلمة إلى الطالبة المرشدة ووجهُها يُنبئ عن جماليّات إيمانها الذي أنار قلبها، فتقاسمَتا معًا فرحةَ الإيمان وسروره.

فهذه الفتاةُ قد شربَت من معين العزة كما الإيمانِ، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ١٣٩/٤)، ومن الحقائق الدينية: أنّ مَن يعايش مبادئ الدين يعزّه الله، ومَن يُعرض عنها يُذلّه الله.

أجل، على الطفل أن يتيقّن من صحة وسلامة الحقائق التي يؤمن بها والطريقِ الذي يسلكه حتى لا يقع فيما بعد أسيرًا لعقدةِ الدونيّة وينسحق إزاء تيّارات الإلحاد الجارفة، والأحرى: عليه أن يدرك عظمةَ الصلاة والصوم، حتى إذا ما حانت الصلاةُ هرعَ إليها وشرع في التكبير دون تردّد، معلِنًا خضوعَه التام لله تعالى.

إنّ القرآن الكريم -وهو يحدّثنا عمّا يجب أن نفعله ولا نفعله- يدعونا إلى أن نعلن عن رغبتنا وأملنا في الهداية إلى سبيل النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من خلال قوله تعالى: ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (سورةُ الفَاتِحَةِ: ٦/١-٧) الذي نكرّره كلّ يوم أربعين مرّة على الأقل، ومن جانبٍ آخر يلفت انتباهنا إلى السلبيات دون تفصيلٍ أو تصويرٍ للباطل بقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (سورةُ الفَاتِحَةِ: ٧/١)، بل إنه عندما يثير رغبتنا نحو طريقِ الرضا؛ طريقِ الجنة، يشير إلى ضرورة التصدي لسبل الكفر والجحود والضلال.

وهذا الأسلوب يشكّل نموذجًا لهؤلاء الذين نُعنى بتربيتهم، فلا بدّ أن نضع في اعتبارهم المنهجَ والسبيلَ الموصّل لرضا الحقّ ﷻ، وأن نكوّن في أرواحهم ردّ فعلٍ فوريّ إزاء ما لا يحبّه الله تعالى ولا يرضاه، وهذه وظيفةٌ منوطةٌ بنا.

لقد خاب وخسر مَن لا يعرف الله ولا يعترف بأنه ﷻ واحدٌ أحدٌ في ألوهيته وربوبيته، وهو المتحكّم الأوحدُ في حياته؛ لأنه لا خلاص ولا فلاحَ في الدنيا والآخرة لمَن لا يعرف وظيفة الفطرة ولا يستوعب حكمةَ الخلق ولا يدرك العلاقة بين السبب والمسبّب في الكون، وبالأحرى لا يُذعن ولا يؤمن بالله الذي يُشعرنا بوجوده وراء كلّ هذه الحجب من الأسرار، فهؤلاء والذين يخالطونهم ويعاملونهم لا نجاة لهم من الله، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ (سُورَةُ هُودٍ: ١١/١١٣).

٢- الإفادة من العلوم التجريبية في التربية الدينية

ثمّة ضرورةٌ ملحّةٌ في أن يكون الحديث عن العقيدة الإسلامية الحقّة متوازيًا مع ثقافات الأطفال الذين يدرسون الفيزياء والكيمياء والفلك وفيزياء الذرّة وما شابه ذلك من العلوم الطبيعية، فالمادّيّون اعتمدوا على المادّة وربطوا كلّ شيء بها، فكان حريًّا بالمؤمن أن يستغلّ المادّة واضعًا إيّاها في موضعها عند حديثه عن الله تعالى والآخرة والقرآن والإيمان.

أجل، لا بدّ أن يعرف المؤمنون طريقة تحويل مستنقع المادة الذي انغمس فيه جميع المادّيّين التاريخيّين إلى حدائق ذات بهجة، وأن يعتبروا جميع الأشياء والحوادث شواهد على وجود الله تعالى.

فإن لم تكن التربية الدينيّة في البيت والأسرة على قدر ما حصّله الطفل من علومٍ تجريبيّة في تعليمه الأساسي والثانوية والجامعة فلا محالة من انزلاقه وانحرافه، وإنَّ عدمَ المتابعة الحثيثة للمستوى العلمي والثقافي الذي حصّله الطفل في المدرسة أو في بيئته، وعدمَ التدخّل في الوقت المناسب للحدّ من الأفكار الضالة المحتملة يؤدّي إلى احتماليّة تحويل العلوم التي اكتسبها الطفل إلى أسباب للكفر، مع أنه من الواجب أن تكون هذه العلوم أنصعَ أدلةٍ على وجود الله تعالى ووحدانيّته.

أجل، قد يقع الطفل في شكوكٍ وشبهاتٍ بسبب تحصيله للفلسفة، فإن لم نساعده بالعقل والمنطق والاستغلال الإيجابيّ للعلوم لَوَقع في أزماتٍ خطيرة فيما بعد، فمن الضروري تزويده بالأدلة العقلية والمنطقية والبديهية بقدر ما حصّله من علومٍ تجريبية وعقلانية.

لقد نسب المادّيّون ذلك النظامَ الذي يهيمن على الكون إلى الطبيعة، واعتمدوا في ديماغوجيتهم[٦٤] على نظريّاتٍ فلسفيّة، وهذا أمرٌ يحتّم علينا أن نحدّث الطفل عن بعض المسائل مثل: الإبداع في خلق الكون، والتناغم بين الموجودات، وما نشاهده في الكون من قوانين تتحكّم في كلّ شيء، وأن ننقشَ في ذهنه حقيقة أن كلَّ هذا يجري بحكم الله وتصرّفه، وبذلك فقد يمكننا أن نحول بينه وبين الشبهات والشكوك التي تورِثها النظرياتُ المختلفة.

أجل، يجب أن نزوّد ذهنَ الطفل بالمعلومات السليمة بدلًا من المعلومات السقيمة التي يُشحنُ بها ذهنه من خلال تحريفاتٍ غير منطقيّة، وبذلك نكفل عدم وقوعه في أية حيرةٍ مستقبليّة.

إن كلَّ شيءٍ باعتبار ماهيّته مرتبطٌ بالعلم، والجهل هو ألدّ عدوٍّ للدين والمتديّن، ومن ثمّ يجب على المؤمنين تنشئة جيلٍ ينفتحُ على الدين والعلوم والفنون، وأن يُعمّقوا انتماءَه لتاريخه ووطنه؛ وهذا كفيلٌ بدحضِ محاولات الجهلاء إفسادَ النشء بِحِيَلٍ لا تخطر على بال.

٣- إعداد البيئة الصالحة

والآن نريد أن نقف عند مسألة إعداد البيئة الصالحة للطفل، فالعالم المتحضّر يولي أهمّيّةً كبيرةً لحدائق الطفل الموجودة بالقرب من المدارس

(٦٤) **الديماغوجية**: كلامٌ فضفاضٌ لا منطقَ له، يُحاولُ صاحبه أن يستميلَ إليه الجمهور بالإغراء. (المترجم)

أو في أماكن أخرى مناسبة وللحضانات والمؤسسات الاجتماعيّة المختلفة، والحقّ أنّ انقضاءَ الحياة المادّيّة للطفل وعالمه الفيزيائي في بيئةٍ آمنةٍ صحّيةٍ سليمةٍ له أهمّيّةٌ كبرى في راحةِ بال الأسرة، وتنشئةِ طفلٍ مجهّزٍ ومنفتح على ما حوله.

قد تُدرس احتياجات الطفل إلى هذه الناحية الماديّة فتتمّ مراعاة كلِّ المنافع والأضرار التي قد تتأتّى من هذا الإجراء، ولكن كما يحتاج هذا الصغير إلى بيئةٍ مادّيّة هكذا فهو في حاجة أمسّ إلى بيئةٍ سليمة يعيش فيها حياتَه المعنويّة ويطوّرها ويشعر فيها بإنسانيّته، ويؤسّس علاقةً روحيّةً مع ربّه ﷻ، لا بدّ أن نفكّر في هذا الأمر عند الحديث عن بيئة الطفل.

والآن سأعرض عليكم ما يجب مراعاته فيما يتعلّق بهذا الأمر:

أ. اختيار الصديق

من الأهمية بمكان أن نساعد الطفل في اختياره أصدقاءَ يراعون حقّ ربّهم ودينهم، ولا يقتصر الأمر على المساعدة فقط، بل يتعدّاه إلى المتابعة الدائمة للطفل عن طريق الإرشاد والتوجيه لا الضغط والإكراه؛ حتى ينشأ جيلٌ محترِمٌ لدينه وأمّته ووطنه وقِيَمِه الذاتية.

لا ينبغي لنا أن نستأمن أحدًا على قرّة أعيننا وفلذات أكبادنا وأعزّ المخلوقات لدينا، فمثلًا لو جاءك أحدٌ لا تعرفه وقال لك: "أخي، انتبه فقد تُسرق محفظتك، فثمّة كثير من المجرمين في بلدتنا، فأعطني هذه المحفظة أو الحقيبة أحفظها لك..."، فهل ستثق به؟ كلا... فإذا كان الأمر كذلك فكيف لكم أن تستأمنوا شخصًا لا تعرفونه في الشارع أو السوق على ولدكم أو تتهاونوا في متابعته ومراقبته؟ لا بدّ -في رأيي- من عدم التردّي في هذا التناقض.

أجل، إن مسألة اختيار الصديق الحسن تقع على عاتق الأم والأب، وكما يقول الشاعر سعدي[٦٥]: الصديق الطالح أسوأ من الأفعى والحية الرقطاء، فإن حدث واتّخذتم صديقًا كهذا بثّ فيكم سمومه وشغلكم بأشياء لا طائل منها، أما الصديق الصالح فهو أفضل من الملَك، وإذا ما كنتم معه تجوّلتم دائمًا في آفاق الملائكة.

والرسول ﷺ يقول: "**اَلْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**"[٦٦]، ولذا يجب على الأبوين أن يتخيّرا أصدقاء ولدهما؛ فالصديق له دورٌ كبير في تشكيل عقل الطفل وفكره، فإن كانت البيئة التي يعيش فيها الطفل بيئةً سيّئة فعلينا أن ننتزعه منها على وجه السرعة، ونرسله إلى مكانٍ آخر نطمئن له، بل لو قُدِّرَ وأُحيطَ الطفلُ بأصدقاء السوء في المكان الذي ينشأ فيه فلا بدّ من عزلِهِ وفصله عنهم بشتى الطرق والوسائل، فإن لم نستطع ذلك أرسلناه إلى بلدٍ آخر، غير أنه لا بدّ من تأكّدِنا واطمئناننا إلى أن الأصدقاء الذين سيتعرّف بهم الولد في ذلك المكان من المتديّنين الشرفاء الأعفّاء.

فالطفل -أيًّا كان- لا بدّ أن يشعر بالمناخ الدينيّ في البيئة التي يعيش فيها، وأن يجتمع مع الآخرين على الأفكار العالية، وقد يحرِم هذا الأمرُ الأمَّ من ابنها ويتكلّف الأبُ الكثيرَ من المصاريف والنفقات، ولكنه يفعل ذلك خشية أن يأتي يوم يعذّبه الله فيه هو وولده، ولذا فهما يحاولان اليوم وغدًا ألا يكونا أبوين لحيّةٍ أو عقرب.

(٦٥) **سعدي شيرازي** (٦٠٦-٦٩٠ أو ٦٩٤هـ): هو مُشَرِّف الدين بن مصلح الدين من شعراء الصوفية الكبار، ومن أرقّهم تعبيرًا، ولد في مدينة "شيراز" قدم بغداد استكمالًا لدراساته في علوم الدين في المدرسة النظامية، وكان من مريدي الشيخ عبد القادر الكيلاني، قضى ثلاثين سنة من عمره في الأسفار ونظم الشعر، وكِتابه "كلستان (روضة الورد)" مشهور، ترجمه الشاعر "محمد الفراتي" إلى اللغة العربية. (المترجم)

(٦٦) **صحيح البخاري**، الأدب، ٩٦؛ **صحيح مسلم**، البر، ١٦٥.

أحيانًا يذهب الطفل إلى أحدهم لمذاكرة دروسه أو عمل واجبه، وهنا أيضًا يجب ألا يغيبَ نظرُنا عنه مطلقًا.

أجل، من حقّ الطفل أن يذهب إلى بيت أصدقائه، ولكن يجب أن يكون كلّ ما تحتويه هذه البيوت من حجرٍ ومدرٍ وجدران يراعي الله ويترنّم باسم الله، فإن نودي للصلاة فُرشت السجاجيد، واصطفّ أفراد الأسرة في جماعة لأداء الصلاة.

أجل، علينا ألا نمنع الطفل من إقامة صداقةٍ مع أبناءِ مثلِ هذه البيوت والغدوّ والرواح إليهم والمذاكرة معهم، بل علينا أن نشجّعه على ذلك، وإلا فإن كان البيتُ الذي يغدو إليه ويروح منفتحًا على الذنوب التي تُثيرها الأهواء النفسيّة فقد خسرنا فلذة كبدنا وضيّعناه.

ب. تنسّم الجوّ الدينيّ الصادق والبعد عن الرياء

ومن الضروري اصطحاب الأولاد إلى المسجد للصلاة في جماعة وحضور المناسبات الدينيّة التي يُتلى فيها القرآن وتتردّد فيها الابتهالات والمدائح النبوية، وبذلك نكون قد أتحنا لهم فرصة التعرّف على أصول وفروع الحياة الدينيّة؛ حيث ينبغي أن يتشبّعوا بما تقتضيه فطرتهم من مثل هذه الأمور؛ حتى لا يتطلّعوا إلى أي أمور أخرى.

أجل، لا بدّ للموسيقى التي يسمعها الطفل أن تترنّم بدينه ومقدّساته، وأن تعمل على انبساط مشاعره الرفيعة، وأن تأذن بتطوّر شعوره بالله ﷻ.

غير أننا نؤكّد هنا على أن قرّاء القرآن والمبتهلين والمدّاحين في مثل هذه المناسبات الدينيّة إن لم يتجاوز ما يتلفّظون به حدودَ حناجرهم وجرحَ الرياءُ حسَّ الوقار الدينيّ لدى الطفل؛ ففي رأيي أنه من الأولى صرفه عن مثل هذه المناسبات.

الابتهالات والمدائح النبوية هي بمثابة حوضٍ لغسل القلب وتطهيره وتصفية الوجدان وتنقيته، ولكن إن جاء شخص -على سبيل المثال- لا تتحدّر الدمعة من عينه وقال: "كلّما ذكرتك يا ربّي انهمرت دموعي" فهذا القول هو كذبٌ على الله تعالى، وسماعُ الأطفال لمثل هذا الكذب وقاحةٌ كبيرة إزاء مشاعرهم.

لقد كتبتُ في صغري جملةً معناها: "كلّما ذكرتك يا ربي اقشعرّ جلدي"، ولمّا شعَرْتُ بأنّ هذه الكلمات لا تلامس شِغافَ قلبي ارتعدَ جسمي وتركتُ القلم، واعتراني الحياء لأنني أقول: يا رب إنّ جسدي يقشعرّ والحال ليست هكذا، وإنّني ما زلت أحتفظُ بهذه الجملة في دفتري إلى الآن.

أجل، إن رؤية الطفل للمرائي الذي لا يتجاوز قوله حُنْجُرتَه ولا تدمع عيناه، ومع ذلك يرفع يديه إلى السماء قائلًا: "لقد جئناك ربّنا بدموعنا"؛ يتسبّب في انبعاثِ تساؤلاتٍ كثيرةٍ لديه.

إننا نعتبر الابتهالات والمدائح النبويّة عرفًا إسلاميًّا ومصدرًا مهمًّا لرقيّ الحياة الروحيّة لدى الطفل، ومع ذلك فإننا نرى من مقتضى العقل والمنطق والفراسة الدينيّة أن يبتعد الطفل عن السلبيّات التي تعوّده على الكذب والرياء وحبّ الظهور؛ إذ علينا أن نجعله يشعر بنفورٍ واستياءٍ من الرياء قدر نفوره وامتعاضه من الكفر، ويتحرّى الإخلاص لدى مَن يمثّل الدين ويدعو إليه، ويُنصت إلى مَن يترنّم بانفعالات قلبه ونغماتِه لا مَن يصيح بما لا يؤمن به.

هذا هو مقتضى فهمنا الدينيّ الذي نراه في حياة الصحابة ﷺ، بل هو ما كان عليه النبيّ ﷺ، حيثُ لا يُتصوّر أن يُخالفَ الصحابةُ النبيَّ ﷺ،

فإن تقبّلنا هذا المبدأ نكون قد سلّمنا أيضًا بمبدإٍ من مبادئ الدين، وإلا فإن أخطأنا الفهم نكون قد أفسحنا المجال لضلال أبنائنا وأحفادنا.

إنني أحذّر من اصطحاب الأبناء إلى مجالس المرائين واستماعهم للمنشدين منهم، وأوصي بدلًا من ذلك بحضور مجلس مَن يتحدّث عن الدين في جدّيّةٍ ووقار.

إن النقد هنا ليس موجّهًا إلى مسألة السماع أو عدم السماع للابتهالات والمدائح النبويّة، وإنما هو موجّهٌ إلى مَن يشوّهون كيفيّة هذا الأمر. أجل، إنْ أردنا صيانة جيلنا فنحن مضطرّون إلى إبعادهم عن مجالس المرائين.

ج. اختيار الأماكن والشخصيات في علاقات الأطفال

توقّفنا في فصولٍ سابقةٍ عند الأمور التي لا بدّ من مراعاتها لصحّة الأسرة وسلامتها، والواقع أن حسنَ تربية الأبناء وتغذيتهم روحيًّا يحميهم بشكلٍ كبير من الرضوخ تحت التأثيرات السلبية للبيئة التي يعيشون فيها، فالمتابعة الحثيثة لهم مهمّةٌ للغاية، فلا بدّ -مثلًا- أن نوجّههم ونرشدهم حتى عند شراء القلم والدفتر وما شابه ذلك؛ حتى لا يتعرّضوا للكلمات النابية والتأثيرات السلبية.

أجل، ينبغي أن يبتعد الطفل عن الأماكن التي تُعرض وتُباع فيها الكتب المحظورة، حتى لا يتكدّر -ولو بقدرٍ يسير- نظرُه ولا يتعكّر صفوُ عالمه الشعوري؛ إذ إنه من الضروري أن تقع عينه في كلّ مكان يمرّ به على إشارات تشير إلى الله والدين والغايات السامية، وأذكِّر مرّةً أخرى بأن الأب أو وليّ الأمر عليه أن يتخيّر لولده حتى الأماكن التي يشتري منها قلمه ودفتره وكتابه، ولا يسمح بأن ينساق ولدُه -ولو بقدرٍ يسير- إلى الضلال.

فإذا ما توجه مثلًا إلى الخيّاط لحياكة ملابسه فلا بدّ أن يتنسّم نسائم عالمنا الخاص بنا ويسمع أصداء ذاتيّتنا، بل يجب أن يكون مدار الحديث طوال الفترة التي يمكثها عند الخياط عن الدين والتديّن ورفعة الوطن ورقيّه، فإذا ما أعمل الخيّاط إبرته في القماش الذي بين يديه صبغ روحَ المُرْتادين إليه بروحه الدينيّة، وعبّر بمشاعره ولسانه عن الحق والحقيقة، وأن تكون أحاسيسه ترجمانًا للحقيقة، وأن يحلجَ عالمنا الفكريّ وهو يقلّب الألبسة التي بين يديه، وهذه كلّها نماذج لتصوير المتابعة الحثيثة، غير أن ما يجب فعله يفوق ذلك بمراحل.

ولا يُفهم من هذه الدقة العالية عزل الطفل عن الناس، بل إن هذه الدقّة ضرورية لرقيّه في مدارج الكمال، وإذا أردنا تفصيل المسألة أكثر نقول: علينا أن ننتخبَ لابننا حلّاقًا يربط كلّ شيءٍ يفعله باسم الله، فإذا ما حرّك ذراع ماكينته أو فتح الصنبور واغترف منه الماء وقام وقعد سمّى الله تعالى، وعدمُ وجود مثل هذا الحلّاق يعدّ قصورًا تربويًّا يظهر لدى الطفل فيما بعد بشكل مختلفٍ.

وأستميحكم عذرًا في الانتباه إلى هذه النقطة المهمّة:

إن الذهاب إلى الوليمة مسؤوليّة ومهمة دينيّة أمر بها النبي ﷺ بقوله: "**إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إِلَى الوَلِيمَةِ فَلْيَأْتِهَا**"(٦٧)، ولا يجوز مخالفة أمر النبي ﷺ، وعلى كلّ مؤمن أن يقول: سمعنا وأطعنا، ويذعن للأمر النبويّ، غير أن عدم الذهاب إلى العرس الذي يشيع فيه اللهو وتنتشر فيه المعصية وتُرتكب فيه الموبقات والذنوب هو مبدأٌ دينيٌّ آخر؛ لأنّ ما يراه الطفل هناك إذا كان سيبعث على إفساده وتكدير أفكاره فمن المؤكّد أنه لا يجوز لأحدٍ حضور مثل هذا العرس.

(٦٧) صحيح البخاري، الحج، ١٥.

د. اختيار البرامج التلفزيونيّة التي يشاهدُها الطفل

إنّ ممّا يجب على ربّ الأسرة الذي يحتوي بيته على تلفازٍ أن يراعي الدقّة البالغة في انتقاء البرامج التي يشاهدُها أبناؤه، ونحن لا نقول بتحريم التلفاز أو تجريم متابعته، ولا ينبغي أن يُحمل كلامنا على أننا خصومٌ له، ولكن من الضروري في مسألة التربية أن نُحسن انتقاء الأفضل والنافع لأبنائنا من قنوات التلفاز وبرامجه، فضلًا عن ذلك فقد عالجت بعض الدول هذه المسألة على النحو الذي ذكرناه، واتخذت شتّى التدابير؛ للحفاظ على عقليّة الطفل وفكره وأخلاقه على وجه الخصوص.

أجل، لقد فكّرتْ هذه الدول في الفساد الذي يشوب أخلاق الشباب جرّاء بثّ بعض البرامج والأفلام، بَلْه السياسات الإعلامية المنحرفة، فلا يخفى أن بعضَ ما يُبثّ يهزّ الفكر العقدي والأخلاقي للشباب ويروّج للفسق والفجور؛ ومِن ثمّ فإن الإصرار على مشاهدة قناةٍ بعينها في البيت رغم إعلانها الحرب على الأخلاق والقيم من شأنه أن يعمل لا محالة على تفسخ وتشوّه شخصيّة أفراد البيت وخاصة الأطفال.

ولا ينبغي أن يُحمل كلامنا أيضًا على أننا نعادي العلم والتطوّر والتقنية والفنّ؛ فنحن نؤيد دائمًا كلّ تقنيةٍ تعمل على تحقيق الطمأنينة والسعادة للإنسانية وتُسهم في تطوّرها، كما أن علينا أن نستفيد من هذه النعم التي منّ الله علينا بها في المجال الفكري والثقافي والصناعي والصحّي والطبّي... إلخ، إذن لا يُوصف مثلُ هذا الفكر بالرجعية؛ بل ما يوصف بها هو غضُّ الطرفِ عن كلِّ ما تبثه بعضُ القنوات التلفزيونية من شناعاتٍ ودناءاتٍ وأمورٍ غيرِ أخلاقية، والسكوتُ عن تفسّخ الأجيالِ وانحلالها.

هـ. التربية القرآنيّة

معلومٌ أن الطفل سرعان ما ينسجم مع كلّ وسطٍ يعيش فيه؛ ولذا يجب على الأبوين والمعلّمين والمربّين أن يحولوا بينه وبين المعاصي

حتى لا يألفها قلبُه وعقلُه وأذنه وعينه وسائر أحاسيسه، وأن يكفلوا له بيئةً صالحةً نقيّةً ينشأ ويترعرع فيها، فإن حدث ذلك بالفعل انعكسَ الجوّ الديني الذي يشعر به الطفل في أسرته على البيئة الخارجية، فتتوافق البيئة الخارجية مع البيئة الداخليّة.

ومن الأهمّيّة بمكانٍ أن يحافظ الإنسانُ على كرامته وشرفه واستقامة فكره ومشاعره في هذا العصر الذي استُخدِمت فيه كلُّ القوى كعناصرَ للضغط والاضطهاد، وإنني على قناعة بأن تربية النشء تربيةً قرآنيّةً وتخلُّقه بأخلاق القرآن ومناصرته الحقّ دائمًا، ووصوله إلى مستوى وقوّة لا تقوى على مواجهتها القوى التي لا تُقهر هو أهمّ السبل الناجعة بالنسبة لنا كأمّة للحفاظ على وجودنا وبقائنا؛ لأن أنموذج المجتمع المثالي في عالم الحسّ والوجدان أو في عالم الواقع لا يتحقّق إلا في ظلّ القرآن الكريم وقد تحقّق.

لقد نشأ في المناخ النورانيّ للقرآن الكريم هذا المجتمعُ الإسلاميّ الرائع الذي أضاء حقبةً من الزمن تتجاوز الألف سنة، وأبهر الأبصار دائمًا بتجسيد الأيادي الأمينة له، وكان ظهور هذا المجتمع وتغييره مجرى التاريخ هو أكثر الحوادث إثارةً للدهشة والإعجاب في عالم الإنسانية، ولقد استطاع أفراد هذا المجتمع الرائع الذين لم تتكدّر عقولهم بأي تيّار فلسفيّ أن يصِلوا إلى مثل هذا المستوى بفضل ما استقَوْه من المنبع الصافي وما ارتشفوه من معين القرآن النقي.

كان خُلُقه ﷺ القرآن، فمن اقتدى به شعر بالقرآن وعاشه ونما وانتعش به، أما مَن عجزوا عن إدراك مثل هذه الجماليات والروعة -وإن تراءى ارتباطهم بالقرآن- فهم ذَوُو أرواحٍ وأفكارٍ سطحيّة لم ينفذوا إلى روح القرآن.

إنّ فهمَ القرآن والانبعاث به مرتبطٌ بالتعمّق في لبه وجوهره ومكنوناته، ولـذا فإن مَـن يتسـلّون بترديد عبـارات القـرآن وألفاظه -بألسـنتهم دون قلوبهـم- وإن كانـوا ينالون الثواب بقراءتـه إلا أنهم لا قبل لهم أن يكوّنوا مجتمعًـا صالحًـا، والله أعلم، فالأصل في علاقتنا بالقـرآن هو التوجّه إليه بقلبنا وقالبنا وشعورنا وأحاسيسنا وإرادتنا وإدراكنا والشعورُ به بكل أبعاد ذاتيّتنـا، وبفضل هذا التوجّه والشـعور نُحِسُّ بمخاطبـة الله تعالى لنا فننمو وننتعش كالبراعم التي وصلها الضوء والماء، ونبلـغ أعماقًا مختلفةً في كلّ جملةٍ وكلمةٍ من آياته، بل ونصل إلى أفق المشـاهدة لخريطة السـماوات في نفس اللحظة التي نشاهد فيها أطلسَ روحنا.

وأعتقـد أنـه من الممكن أن يتشـكّل جيلٌ جديد في جـوٍّ ملائم كهذا، وعند ذلك تبدأ وتيرة الدائرة الصالحة، ويكشف لنا القرآن عن كلّ أسراره، وكلّما ارتقينا بسبب هذا الثراء المعرفيّ من العلم إلى الإيمان ومن الإيمان إلـى المعرفـة وصلنا -مـع اختلاف مسـتوى الخطاب الموجَّـه إلينا- إلى أعماقٍ داخليّةٍ أخرى، وأدركنا بشكلٍ آخر أبعادَ كلمات الله تعالى.

أجـل، علينـا أن نتّخـذَ القرآن الكريم أسـتاذًا ومربّيًا نَتَتَلْمَـذُ بين يديه، وإن هـذه التلمذة -التي تعطـي أولويّةً للحركيّة وتعتمد على التطبيق- هي السبيل الأمثل لكشف القرآن عن أسراره لنا، وإلا فإن كان احترامُنا للقرآن وارتباطنا به مقصورًا على الشكل ولم نقدِر على سبر أغواره عشنا بعيدين عنه رغم قربنا منه والتصاقنا به، إن البؤسَ والحرمان الحقيقيّ هو الحرمان من روح القرآن ومن الثراء الناتج عن جعل القرآن روحًا للحياة، فالأصل في علاقتنا بالقرآن الكريم هو تحريك الآلية الإنسـانية فضلًا على كسـب المعرفـة، فعلى الإنسـان أن يجعل من معارفه قـوّةً محرّكةً ليُحقّق ما فهمه

مـن القـرآن مراعيًا الظـروف والأحوال والأجواء، فإن تيسّـر ذلك تسـنّم الإنسانُ مكانَه المتوائم مـع غاية خلقه، ونجا من الضياع.

٤- مواصلة الدقّة في التربية

إن إقامةَ فكرةٍ أو حقيقة ما وترسـيخها شيءٌ، والحفاظ على ديمومتها شـيءٌ آخـر، فكم من مؤسّسـةٍ وفكرة أُنشـئت ببالـغ الدقـة والاهتمام غير أنهـا تـردّت بعد ذلـك وتعرّضتْ للركود والتخلّف بسـبب عـدم مراعاتها الدقة اللازمة لبقائها حتى وإن لم يعتر أيُّ قصورٍ عملّيةَ تأسيسِها وظروفَ تشغيلها، بل إن مرحلة الانهيار قد بدأت مباشرةً بعد التأسيس بسبب سوء إدارة البعض من شرِّ الخَلَفِ.

أجـل، إن إقامـة وبناءَ أي شـيءٍ أمـرٌ مهمّ، غير أن الأهـمّ منه الحفاظ علـى ديمومة هذا الشـيء وتطـوّره، لقد راعى المسـلمون الأوائل والذين اتبعوهم بإحسـانٍ الدقّةَ والعنايةَ في مسـألة تبنّي المجتمـع للمقوّمات التي تحافـظ علـى وجوده ورعايته وحمايته، وسـدّوا أيَّ خللٍ عقليٍّ أو منطقيّ أو حسّـيٍّ، ولم يقصّروا ألبتة في تطبيق ما يعرفونه ويؤمنون به، ولا شـك أننـي لا أقصـد القصـور الفـرديّ، بل الأسـس اللازمة لسـلامة المجتمـع والإبقـاء عليه في المسـتقبل، أما بعد ذلـك فقد أصبح بعض الورثة أمثالنا الذيـن لا يدركون روح المسـألة ويتناولون القضايا الإسـلامية من منظورٍ واحدٍ فقط قد أصبحوا يُفسـدون الأمر من الأساس، ولم يُطوّروا الميراث التاريخيّ الذي استُودِعوا إياه، بل واستنزفوه إلى أن جفَّ.

أ. لئلّا نكون شرّ الخلف

وقـد وردت آيات كثيـرةٌ في القرآن الكريم تصـف أحوال العديد من الأنبيـاء وتعدّدهـم لنا تِباعًـا: "**وَاذْكُـرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَـمَ... وَاذْكُـرْ فِي الْكِتَابِ**

إِبْرَاهِيمَ... وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى... وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ... وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ..." (سُورَةُ مَرْيَمَ: ١٦/١٩، ٤١، ٥١، ٥٤، ٥٦)، وبعد أن تكلّم القرآن عن هؤلاء الأنبياء المصطَفَين وخصائصِهم في سورة مريم قال: ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾ (سُورَةُ مَرْيَمَ: ٥٩/١٩).

قد يكون سيدنا آدم ونوح وموسى وعيسى وحتى محمد عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام هم الأوائل في هذا الطريق، ولكن من غير الممكن أن يستفيد من عظمة هؤلاء الأوائل شرُّ الخلف الذين جاؤوا من بعدهم وأضاعوا الصلاة، ونلاحظ أنه قال "أَضَاعُوا" ولم يقل "تركوا" لأنه لا فائدة من صلاتهم رغم أنهم يصلون، فهم قد اتخذوا من وسائل القرب إلى الله أُسُسًا للبعد عنه، وكأنهم لم يكتفوا بذلك بل اتبعوا شهواتهم ورغباتهم الجِسْمانيّة، وطبّقوا دينهم على حسب أهوائهم.

إننا اليوم على خطر الوقوع في ذات الخسارة التي مُنِيَ بها السابقون من قبل؛ مسلمون لا يصلون لأن الصلاة تثقل عليهم! ولا يصومون لأن الصوم يشقّ عليهم! ولا يعرفون حدًّا في اتّباع الشهوات... وهذا هو الحال المشين الذي لوّث ماضينا وحاضرنا أيّما تلويثٍ.

بيد أن المؤمن هو المُجَسِّدُ بكلّ أحواله للإيمان والأمن والاستسلام للحقّ، إنه هو الخاضع المتذلّل بين يدي الله تكتنفه القشعريرة من المحرّمات التي نهى ربّه عن إتيانها.

ب. أهمّيّة الصلاة

يقول رسول الله ﷺ في حديثه الشريف: "**مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ**[٦٨].

(٦٨) صحيح البخاري، الصلاة، ٢٨؛ سنن النسائي، الإيمان، ٩.

ويمكن أن نستنتج من مفهوم المخالفة لهذا الحديث أن مَن ران على قلوبهم فلم يصلّوا وأصبحوا لا يوقّرون الناس ويُثيرون القلاقل ويعادون الدولة ويرهبونها بحِرابتهم ويُثيرون الفتن والاضطرابات هم أبناء الأهواء والرغبات، ومن ثَمَّ فهم ليسوا منا ولسنا منهم، ولكن إن لم نعدّهم منّا فمِمّن؟ أطلقوا لخواطركم العنان واعتقدوا فيهم ما تشاؤون، فلا مكان لهؤلاء في الدائرة القدسيّة التي حدّدها سيدنا رسول الله ﷺ.

الصلاة مسألةٌ مهمّة للغاية، علينا أن نحتاط لها ونراعي الدقة فيها، أوصى رسول الله ﷺ بالصلاة حين حضرته الوفاةُ فقال: "**اتَّقُوا اللهَ فِي الصَّلَاةِ، اتَّقُوا اللهَ فِي الصَّلَاةِ، اتَّقُوا اللهَ فِي الصَّلَاةِ** (ثلاثًا)"(٦٩)، وقال ﷺ في حديث آخر: "**بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ**"(٧٠)، وقال ﷺ: "**مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ وَرَسُولِهِ**"(٧١).

أجل، الصلاة مسألة مهمة جدًّا، ولكن إن كانت المشكلة في الإيمان فالمسألة أعظم أهمّيّةً وأكثر دقةً، فعنْ عَائِشَةَ ﵂ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قِبَلَ بَدْرٍ، فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ(٧٢) أَدْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ، فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ رَأَوْهُ، فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: جِئْتُ لِأَتَّبِعَكَ، وَأُصِيبَ مَعَكَ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**تُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ؟**" قَالَ: لَا، قَالَ ﷺ: "**فَارْجِعْ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**"، قَالَتْ: ثُمَّ مَضَى حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ لَهُ كَمَا

(٦٩) البيهقي: **شعب الإيمان**، ٤٠٤/١٣.

(٧٠) **صحيح مسلم**، الإيمان، ٨٢؛ **سنن أبي داود**، السُّنّة، ١٥.

(٧١) **مسند الإمام أحمد**، ٣٥٧/٤٥.

(٧٢) **حرّة الوبرة**: هي الحرة الغربية من المدينة المنورة، وهي أقل وعورةً من حرّة "واقم" الشرقيّة، تمتدُّ من مسجد "القبلتين" شمالًا إلى محاذاة مسجد "قباء" جنوبًا، وليس لها سوى منافذ قليلة أشهرها منفذُ "ثنية الوداع" الشهير.

قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، قَالَ: "**فَارْجِعْ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**"، قَالَ: ثُمَّ رَجَعَ فَأَدْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ، فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ: "**تُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ؟**" قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**فَانْطَلِقْ**"(٧٣).

أجل، إن الإيمان هو السفينة التي تنقل المؤمنين إلى شاطئ السلامة، والصلاة هي أهمّ عنصر فيه، وكما يقول الشيخ محمد لطفي أفندي:

الصلاة عماد الدين
وهي التي تسيّر سفينة الدين
فهي رأس كُلِّ عبادةٍ
لذا فلا إسلامَ بلا صلاةٍ

ويقول سيدنا رسول الله ﷺ في حديث آخر: "**لَيْسَ صَلَاةٌ أَثْقَلَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مِنَ الفَجْرِ وَالعِشَاءِ**"(٧٤)، والآن يا تُرى! هل نحن نؤدي هذه الصلوات بشوقٍ واشتياقٍ أو لا؟ إنّني أرى أن الشوق والاشتياق للصلاة هما السبيل الأمثل للوقاية من النفاق.

(٧٣) صحيح مسلم، الجهاد، ١٥٠؛ سنن الترمذي، السير، ١٠.

(٧٤) صحيح البخاري، الأذان، ٢٤؛ صحيح مسلم، المساجد، ٢٥٢.

الفصل السابع

مقارنة بين التربية القرآنية والتربية غير القرآنية

مقارنة بين التربية القرآنية والتربية غير القرآنية

في هذا القسم نقسم مسألة التربية من حيث الأساس إلى قسمين: التربية القرآنية والتربية غير القرآنية.

ثمّة احتماليّة أن يكون جيلُ المستقبل ظالماً همجيًّا متبلّد الشعور بسبب اعتناقه للأفكار الفلسفيّة الخاطئة، وانسياقه وراء التيارات الفاسدة السفسطيّة المتطرّفة، أو أن يكون رحيمًا عزيزًا واسع الأفق بسبب ما سيعتنقه من دساتير إلهيّة ومبادئ قرآنيّة سامية.

والحقّ أن الإنسان متى ما ابتعد عن القرآن وركن إلى نفسه تعاملَ بقسوةٍ وظلمٍ ووحشيّةٍ مع الضعفاء والعجزة وقليلي الحيلة، فاستعملهم واستغلّهم بلٍ واستحقرهم واستخفّ بهم، فإن غدا يومًا ذليلًا ضعيفًا تذلّل وقبّل الأيدي والأرجل متذلّلًا، وخرّ على الأرض مقابل أدنى مصلحة يرجوها.

كيف يتناول القرآن الإنسان؟ وكيف يعرّف الفرد؟ وما الذي ينشده فيه؟

إننا سنحاول عند تناول هذه الأمور أن نرسم لوحةً للشخص الذي يصفه القرآن بالمسلم، نوضّح من خلالها بعض المبادئ الخاصّة بهذا الموضوع، فمَن تقبّل هذه المبادئ وعايشها فهو المسلم الكامل، والمجتمع الذي يشكّله هؤلاء المسلمون الكاملون هو المجتمع المثالي.

الفـرد لـه وضعـان: الأوّل: وضعه كفـرد، والثاني: وضعـه كركنٍ في المجتمـع.

وبدهـيٌّ أن صـلاح المجتمـع من صـلاح الفرد، فسـلامة المجتمـع تقتضي سـلامة أفراده مادّيًّا ومعنويًّا، وسـلامة الفرد تُقاس بسلامة عقيدته، ومداومتِه على العمل الصالح، وموافقة معاملته مـع مبادئ الشرع الحنيف.

لنبدأ حديثنا بالتربية غير القرآنية، إذ التخلية قبل التحلية:

١- التربية غير القرآنية

أ. تُفرعِنُ الناسَ

التربية غير القرآنيّة كما شاهدنا على مدى التاريخ تجعل لدى الإنسان استعدادًا لأن يكون فرعونًا ذليلًا.

أجـل، إن للفرعنـة وجهيـن، الأول: القـوّة والتجبّـر؛ وعندهـا يكون الإنسـان متعدّيًا متجبّرًا ظالمًا مفاخرًا أنانيًّا، والثاني: الضعف والوهن؛ فبه يكون الإنسان مسكينًا بائسًا ذليلًا يقبّل أقدام الآخرين، وكما يقول الأستاذ بديـع الزمان رحمه الله رحمة واسعة:

> "التلميـذ المخلـص للفلسـفة الدنيويّة فرعونٌ ولكنـه فرعونٌ ذليلٌ، حيث يعبد أخسَّ شيءٍ لأجل منفعته، ويتّخذ كلّ ما ينفعه ربًّا له، ثم إنه عنودٌ دنيءٌ؛ إذ يتذلّل ويخنـع لأشخاصٍ هم كالشياطين، بل يقبّل أقدامهم!"، أما الروح التي تربّت على القرآن فيقول عنها: "عبدٌ عزيزٌ لا يستذلّ لشيءٍ حتى لأعظم مخلوق"(٧٥).

إن هذا الحال لا ينطبق فقط على فرعون موسى، بل هو قاسمٌ مشتركٌ بيـن ذوي الطبـاع الفرعونيّـة على مدار التاريخ، وأظـنّ أنّ هذا العصر هو العصر الذي يكثر فيه مثل هؤلاء الفراعنة.

(٧٥) بديـع الزمان سعيد النُّورْسي: **الكلمات**، الكلمة الثانية عشر، الأساس الثاني، ص ١٤٢.

فمثلُ هذا الشخص المتفرعِن إن مرّ بضائقةٍ ما وأعْيَتْه الحاجة تذلّلَ في سبيل الحصول على منفعته، وتلوّى وخرّ على الأرض خانعًا، فإذا ما وضع قدمه على أرض صلبةٍ وشعر بالقوّة تحوّل إلى معتدٍ همجيٍّ مغرورٍ مفاخرٍ، وهذه هي أوصاف ذي الوجهين وذي المعايير المزدوجة.

ويرسم القرآن الكريم صورة لهذه النفسيّة الشاذة، فيقول: ﴿**فَحَشَرَ فَنَادَى ۞ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعلى**﴾ (سُورَةُ النَّازِعَاتِ: ٧٩/٢٣-٢٤).

هذه هي اللحظة التي تفرعن فيها وتجبّر، واغترّ فيها بخيله ورَجِلِه.

وأما الحالة الثانية فهي التي أصابه فيها الذلّ والهوان، وجعلت منه أذلَّ الأذلاء وأبأسَ البؤساء، ويصور القرآن الكريم هذه الحالةَ الروحيّة بقوله: ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ (سُورَةُ يُونُسَ: ١٠/٩٠).

وعند إنعام النظر في هذه الآية يتبيّن لنا أن فرعون لم يكن مخلصًا في قوله، بل كان عدم الإخلاص ينبعث من صيحاته، كما لم يكن صادقًا في مشاعره وأفكاره وكلامه، لو كان صادقًا لَقبِلَ الله منه إيمانه، ولكن لمّا جافى الصدقُ كلامه عندما انقطعت به السبل ولجأ إلى الله تعالى بالدعاء لم يقبلِ الله تعالى منه هذه الصيحات المؤلمة، وهذا نوعٌ من الفرعونيّة؛ يمكنكم أن تصادفوا المئات ممّن يتّصفون بها في وقتنا الراهن؛ يأتون حتى أعتاب بيوتكم ويقبّلون أيديكم وأرجلكم من أجل المقام والمنصب، فإن انقضت مصلحتهم انصرفوا عنكم واعتبروكم نسيًا منسيًّا، وجحدوا العرفان بالجميل، والحقّ أنكم إن شاهدتم هؤلاء الناس وهم لا يوجّهون هِمَمَهم لحلّ المشاكل الوطنيّة وخدمة الدين والإيمان وتربية الأجيال،

ويتظاهرون بالعمل النافع على سبيل التضليل، شعرتم بحسرةٍ وضيق واشمئزاز بالغٍ منهم.

قد لا يكون "فرعونًا" تامًّا من تربًّى تربيةً غير قرآنية، لذا نفضّل تسمية السلوكيات التي ذكرناها آنفًا "سلوكيات فرعونية" أو "أخلاقًا فرعونيّة" بدلًا من تسمية أصحابها "فراعنة"، فقد يوجد لدى المؤمن أحيانًا أخلاقٌ فرعونيّة، وقد يتحلّى الكافر بأخلاقٍ مُوسَويّة، فإن استقرّت هذه الأخلاق الفرعونيّة لدى المؤمن وتمكّنت منه غدا -نسأل الله السلامة- فرعونًا في النهاية، أمّا مَن تخلّق بالأخلاق الحميدة الموسويّة فقد يدور يومًا في فلك سيدنا موسى عليه السلام.

أجل، إن الله لا ينظر إلى منظر الناس وهيئاتهم وأعراقهم وطبقاتهم، بل ينظر إلى قلوبهم وحياتهم الروحيّة وتقواهم وزهدهم؛ أي إن معاملة الله مع الناس تكون حسب أوصاف الناس لا حسب أسمائهم.

وفي هذا الصدد يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**"(٧٦).

ب. تدفع الإنسان إلى العناد والتمرّد

العناد والغرور من سمات مَن تربّى تربيةً غير قرآنيّة، ففي سبيل عزّته وشرفه وكرامته يهضم الكثير من الحقوق ويسحق العديدَ من القيم دون رويّة أو تردّد، بيد أن الله تعالى وهب الإنسان هذا العناد حتى يثبُتَ على الحقّ ولا يتراجع عن القضية التي يؤمن بها.

أجل، إن الله تعالى قد أمدّ الإنسان بحسّ العناد حتى لا يتراجع عن القضية التي يعرفها ويؤمن بها ويُدافع عنها حتى وإنْ حُرِمَ من المال

(٧٦) صحيح مسلم، البر، ٣٤.

والمنصب وشتى النعم والآلاء، غير أن سوء استعمال هذا الحسّ ووضعه في غير محلّه قد يحوّله من خلقٍ نافع إلى خلُق ضار، والتمادي في سوء استعماله هو بداية التردّي والهلاك؛ إذ يسوق الإنسانَ إلى الفرعونيّة؛ حتى إن مَن يحمل هذه الصفة لا يقبل الحقَّ وإن شاهده أمامه، ولا يتوانى في إظهار ذُلّه وهوانه من أجل أدنى وأخسّ منفعة.

وحال الأمسِ لم يتغيّر عن حال اليوم. أجل، إن ما أحدثته التربية غير القرآنيّة في النفوس أمسِ لا يختلف عمّا يحصل اليوم، فهناك الكثير من الفراعنة في أيامنا لا يبدؤون كلامهم إلا بقولهم "نحن المثقفين"، وينظرون إلى الناس من برجٍ عاجي، ويرون مَن لا يفكّرون على شاكلتهم في مستوى أدنى من الإنسانيّة، فإذا ما وهنوا وضعفوا تذلّلوا وتمسكنوا، فإن وصلوا للمنصب والسلطة لا يعترفون بحقّ الحياة لغيرهم، وإذا استثنينا بعض الظروف والأحوال سنجد أنه لا خلاف بين هؤلاء وبين الأقدمين من ناحية الطباع والشخصيّة.

إن الإنسان لا يجني من وراء التربية غير القرآنية سوى إشباع البطون وتلبية الرغبات النفسية، فإذا ما ذُكِرَت سعادة الإنسانية لا يخطر ببالهم سوى تلبية الأهواء الجسدية.

قد تعتقد بعض الدول مثل أمريكا وألمانيا وإنجلترا وفرنسا والسويد والنرويج وهولندا أنها قد حقّقت لمجتمعاتها السعادة والأمان بتحسين الأوضاع الاقتصاديّة، ويحسبون أنهم قد أبدعوا عالمًا مثاليًّا كالذي يصوّره كتّاب الطوبيا، لكنّنا نرى السعادة والطمأنينة الحقيقيتين في الإسلام والإيمان، أما هم فيرونهما في ازدهار العمليّة الاقتصاديّة وإزالة كلّ المعوقات الاقتصاديّة، بمعنى أن المجتمع ينعم بالطمأنينة إن كانت صرّته ملأى ودولته قويّة، وإلا فلا.

غير أنّ ازدياد حوادث الانتحار ونشـأة الأنظمة الفلسفيّة المختلفة كلّ يوم، وقيامَ الثورات مختلفة الأزياء والأفكار ومحاولةَ إرضاء النفس ببعض الأفكار لَيوضِّـحُ أنّ ثمّة قلقًا واستياءً خطيرًا في ثنايا هذه المجتمعات، وأن الرفاهية المادّيّة لم تكن في يومٍ من الأيام كافيةً لتحقيق السـعادة المطلقة، وهذا ما يمكن أن نسمّيه بفلسفة التسلية والإلهاء؛ بمعنى أن السعيد هو مَن يطعم جيّدًا ويلبَس جيّدًا.

والواقـع أن هذه الفلسفة تَعتبر أن غاية الفرد هي إشباعُ البطون وتلبية الرغبات النفسيّة فحسب.

ج. المنفعة هدفها

المنفعة هي هدفُ التربية غير القرآنية، بل إن أساسَ جميـع الصراعات هي المنافـع ليس إلا، فإن شرعتم في عملٍ ما بادَرَكم مثل هؤلاء النفعيّين دائمًا بهذا السؤال: ما هي المنافـع المادّيّة لهذا العمل؟...

ونظرًا لأن هؤلاء ينظرون إلى كلّ شيء بنظرةٍ مادّية تراهم يقولون: ما الـذي جنيتموه من عبادتكم؟ هل ارتقـتْ الدولة بصلاتكم؟ وهل تحقّقت الرفاهية للأمّة بصومكم؟...

ولـذا لا يستسـيغ أصحابُ هذه العقليّة مطلقًـا مَن يتحدّث عن الحقّ والحقيقـة ويدافـع عن الإيمان والقـرآن، أو أنهم لا يسـتوعبون ما يُقال، ولكم أن تُطلقوا على هذا الحال اسمَ: فظاظة التربية غير القرآنيّة.

د. تعتمد حياة أتباعها على الكفاح والجدليّة والديماغوجيّة

إنّ أهـم مـا يتميّـز بـه النفعيّون هو الصـراعُ في سـبيل الحصول على المنفعة؛ إذ لا تتّسـع المنفعة لتحقيق كل الرغبات والمتطلّبات، ولذا تسود كلَّ المجتمعـات التـي تتحكّـم فيها المنفعـةُ صراعاتٌ ونزاعـاتٌ متوالية؛

لأن المنافع الموجودة لا تكفي كلّ الرغبات، فالصراع على المنفعة يسيطر على كلّ الأنظمة غير القرآنيّة مثل الاشتراكية والشيوعيّة والرأسماليّة، فمِن الجائز لو اقتضت الضرورة -وفقًا لهذا المنطق- مصادرةُ أموال الغير واتّخاذ كافّة السبل للاستيلاء على كلّ ما هو له.

أجل، إن الصراع على المنفعة هو أهمُّ دستورٍ من أجل الحياة في الأنظمة غير القرآنية التي تأسّست على المنفعة واتّخذت المنفعة لها هدفًا وغاية... ثم محو الفقير وسحقه، حتى يصبح حقُّ الحياة امتيازًا خاصًّا للقادرين فقط.

فإذا ما طبّقنا هذا الأمرَ على علم الأحياء واجهتْنا نظريّات "لامارك" و"داروين"، فهذه النظريات دمّرتْ كلَّ القيم الإنسانيّة الحقيقيّة باعتمادها على مبادئ ملتويةٍ مثل: "إن حقّ الحياة للذين يصمدون ويثبتون أمام حوادث الدهر أو الاصطفاء الطبيعي في نظرية التطوّر ليس إلا"، ويرى مَن يتبنّى هذا المبدأ أن مَن لهم حقّ الحياة هم أصحاب الكلمة في القضايا الدولية والمجتمعيّة، والذين يواجهون الحوادث ولا يقهرهم الكفاح مع الحياة، إن هذا المفهوم الذي يعتبر الحياة صراعًا وجدالًا يرى أن الأساس الذي تقوم عليه علاقة الموجودات ببعضها بدايةً من عالم الحيوانات حتى عالم النباتات هو الصراعُ والمشادّة والنزاع، ويعتبر انقضاضَ البعض على البعض أمرًا مشروعًا.

هـ. ترى العنصرية والشوفينيّة[٧٧] هما الرابطة بين المجتمعات

إن العنصريّة الفظّة والشيوعيّة التي تحمل في الأساس فكرًا اشتراكيًّا هما -كما شاهدنا كثيرًا في هذا العصر- أهمّ رابطةٍ تعترف بها التربية غير

(٧٧) الشوفينية: تزمت وطني وإفراط في الوطنية ينتهي إلى معادات الدول والثقافات الأخرى، واحتقارها، وعدم الاعتراف بها. (المترجم)

القرآنيّة بين الأفراد والمجتمعات، وهذه المفاهيم ترى ضرورة إحكام ربط المجتمعات بهاتين الرابطتين، بيد أن العنصرية والشوفينيّة وما شاكلهما من تيّارات قد قاموا جميعًا على مبدإ الْتهام الآخر وابتلاعه وتصرّفوا على هذا النحو، فمثلًا تأسّست الشيوعيّة على مبدإ الْتهام كلّ النظم التي أمامها، ويبيّن التاريخ القريب أن الفاشيّة والنازيّة يتغذّيان على ابتلاع الأنظمة الأخرى.

ولقد ظهرت العاقبة الوخيمة الشنيعة لهذا المفهوم التربويّ إبان الحربين العالميّتين الأولى والثانية.

و. تعتمد على القوّة

القوّة هي نقطة الارتكاز في الأنظمة الفلسفيّة والاجتماعيّة غير القرآنيّة، فمَن يملك القوّة فهو على حقّ، وهذه أخلاقٌ فرعونيّة إلى حدٍّ بعيدٍ، فالعدوانيّة هي من شأن القوّة التي لا تحترم القيم الإنسانيّة، فمن الصعب على مَن يتناول المسألة بمبدإ القوّة أن يمنع نفسه من التعدّي، ولقد عاشت الإنسانيّة نماذجَ كثيرةً على هذه الشاكلة في القرن العشرين على وجه الخصوص، لِنضربِ الصفحَ عن الاعتداء بين الأفراد، لكن المجتمعات قد بدأت تُحرّكها وتدفعها غريزةُ ابتلاعِ الآخر والقضاء عليه، وكان من أثر الخراب الذي أحدثته الأخلاق غير القرآنية في أرواح هؤلاء ابتداء ظهور سلبيّاتٍ متنوّعة لدى المؤمنين من جرّاء هذا التأثير الإشعاعيّ الذي أحدثته هذه الأخلاقُ.

٢- التربية القرآنيّة

أ. العبوديّة هي الفضيلة المثلى لتلميذ القرآن

تلميذ القرآن ليس بظالمٍ أو غدّارٍ أو مُفاخِر أو أنانيّ أو جبّار، إنه عبدٌ

فقـط، عبـدٌ لله تعالـى، والقرآن الكريم يُنـوّه في كثيرٍ من المناسـبات بهذه الفضيلة، ويؤكّد على أن العبوديّة شـرفٌ وكرامةٌ للإنسـان، فإن اسـتوعب الإنسـانُ فـي ظلّ التربيـة القرآنيّة أنه عبدٌ لله فهذا يعنـي أنه قد أحرز أعظمَ فضيلة، فلقد كانت العبوديّة هي أبرز صفة لدى النبي ﷺ، فنقول في كلمتي الشـهادة: "**أشـهد أن لا إله إلا الله وأشـهد أن محمدًا عبده ورسوله**". نعم، إنه عبد الله ورسـوله، يرى بعض الأئمّة أن الواو للجمع المطلق وليسـت للترتيب، وبعضهم يرون أنها تفيد الترتيب، وإننا إن درسنا الموضوع وفقًا لمَن يقولون بالترتيب فسـيتبيّن من هذه العبارة -أي "عبدُه ورسـولُه"- أن الرسـول الأكرم ﷺ هو عبدٌ لله أوّلًا، وهنا نكتة لطيفةٌ لا بدّ أن نبيّنها وهي: أن سـيدنا رسـول الله ﷺ هو عبدٌ لله قبل أن يُبعث رسـولًا، وحتى بعد أن انتهت رسالته بوفاته ظلّ أشرفَ وأعزَّ عبدٍ عند الله تعالى، فكلّ شيءٍ يزول وتبقى العبوديّة قائمةً.

أجـل، إن النبوة والولاية وما يترتب عليهما من وظائف ينتهي ويفنى، ولا يبقى إلا شيء واحدٌ فقط وهو العبودية لله تعالى سلطانِ الأزل والأبد.

واسـتجابة لأمـر الله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّـاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ**﴾ (سُـورَةُ البَقَرَةِ: ٢١/٢) يقف المؤمن أربعين مرّةً في اليوم أمام ربّه في خضوعٍ وعبوديّة تامّة قائلًا: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ (سـورةُ الفَاتِحَةِ: ٥/١)، والمؤمن الحقيقيّ هو عبدٌ عزيزٌ لا يركـع أمـامَ أحدٍ وإن كان أعظم المخلوقات؛ لأنه عبدٌ لله لا لأحدٍ سـواه، وهو بذلك سلطانٌ بكل ما تعنيه الكلمة من معنى حتى في تلك اللحظات التـي يبـدو فيها ذليلًا خاضعًا، لا يتذلّل ولا يخضـع لأي فرعون أيًّا كان، وحيـاةُ الأنبيـاء ﷺ مليئةٌ بأمثلة مهمّة في هذا الموضـوع، فقد عرفوا ربَّهم الواحدَ الأحدَ المعبودَ المطلقَ والمقصودَ بالاستحقاق، فما استسلموا أمام أيّ تهديد، وما خضعوا لغيرهم أمام أيّ وعيد.

تعالوا نذهب خيالًا إلى عصر النبوّة والسعادة؛ حيث نجدُ سيدَنا عمار ابن ياسر وهو يُصهَر في الشمس بدروع الحديد التي ألبسوها له، ومصعب ابـن عمير وهو ملقى على الأرض بسـبب الهِراوات التي كانت تنزل عليه كلّ يوم، وأمثال سـعد بن أبي وقّاص ﷺ وهم يتلوّون جوعًا وعطشًـا، فإذا مـا شـاهدنا ذلك أخذتنا الحيرة والدهشـة أمام عُمـق عبوديّة هؤلاء لربّهم ﷻ، ومـن الممكـن أن نرى مثل هؤلاء من ذوي القلب العميق في القرون المتوالية؛ مـع الفارق بينهم في الدرجات والمراتب.

أجـل، فـي كل عهد يُقيّض الله تعالى رجالًا يجابهون الظلم والإلحاد، وينتفضون لإحقاق الحقّ كي يعلُوَ ولا يُعلى عليه، وهؤلاء عاشوا حياتهم من أجل القرآن واتخذوه مرشدًا لهم وهاديًا ودليلًا.

وإنّ بعضًا من وسائل إحقاق الحقّ يسهل القيام به، وذلك مثل تشكيل الجمعيّـات وتكويـن الأحزاب وعقـد المؤتمرات، والقيـام بالعمل مقابل الراتب أو الأجر أو التشـوّف لأمور أخرى... أجل، كلّ هذه أمورٌ يسـيرة، ولكـن الأهـمّ مـن ذلك هو التمسّـك بالحـقّ وإعلاؤه دون تشـوّفٍ لأجرٍ دنيـويٍّ أو أخرويٍّ، وتنشـئةُ أجيالٍ نقيّة لا تنشـد غرضًا مـن وراء عبوديّتها لربّهـا، مخلصـةً تفكّر في غيرها، وتواظب علـى أداء وظيفتِها الحياتيّة إلى الأبد، وأعظم لقبٍ يُطلَق على هذا هو التلمذة على يد القرآن الكريم، فهم لا يرغبون أن يُلقّبوا بغير هذا اللقب.

ب. تلميذ القرآن متواضعٌ وفقيرٌ إلى الله تعالى

تلميذُ القرآن إنسـانٌ متواضـع؛ حتى إن البعض يحسـبه بسـبب هيئته الخارجيّة كسـولًا فاترَ الهمّة، مـع أنه ليس كذلك، إنه حليمٌ مسـالِمٌ لأبعد الحـدود، ولكنـه ذو عزّةٍ وعزيمةٍ، لا يتذلّل لغير ربّه سـبحانه، ولا يخضـع

لسواه جلّ شأنه؛ لأنه صاحب ديناميكيّة داخليّة، ولذا فإنه يَعدّ مثلَ هذا التذلّل والخضوع لغير الله شركًا بالله.

قد يبدو تلميذُ القرآن فقيرًا عاجزًا في الظاهر، وهذه ميزةٌ أخرى تُحسب له؛ لأن فقره وعجزه كجناحين يحلّق بهما للوصول إلى الله ﷻ، وكلّما أحسَّ بعجزه وضعفه في نفسه ازدادت ثقته بربّه ﷻ.

ولذا تَراه يردّد دائمًا قول نبيّه ﷺ: "**لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**"(٧٨). وهذا البعد الداخلي للعجز والضعف والفقر مثل جناحين نورانيّين بالنسبة له، فكلّما أدرك عجزه وفقرَه وضعفَه في نفسه هرولَ بجناحَي العجز والفقر لعبودية الحقّ تعالى، ابتغاءَ رضاه.

ج. لا هدف لتلميذ القرآن إلا رضا الرحمن

إن الهدف الأوحد والغاية المثلى لدى تلميذ القرآن الكريم هو إرضاءُ الله تعالى فحسب، وإنه لَينتظر بفارغ الصبر دائمًا ذلك اليوم الذي يخاطبه فيه ربّه قائلًا: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً**﴾ (سُورَةُ الفَجْرِ: ٨٩/٢٧-٢٨).

وقد عبّر سيدنا يوسف عليه السلام عن هذا الأفق المثالي بقوله: ﴿**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾ (سُورَةُ يُوسُفَ: ١٢/١٠١)، فلقد أحرز نبيُّ الله الكريم هذا مكانةً مرموقةً في مصر، وسكنت عبرات أبيه الذي ابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم، وجاءه إخوته الذين أساؤوا إليه قديمًا وأذعنوا له، ورغم هذا كلّه فإننا نراه يتوجّه إلى ربّه تعالى متضرّعًا إليه بهذا الدعاء رغم كلّ ما بلغه من رفاهيةٍ ماديّة وطمأنينةٍ معنويّةٍ، وهذا التوجّه مسألةٌ مهمّة لا بدّ من الوقوف عندها بدقّةٍ وعناية.

(٧٨) سنن أبي داود، الأدب، ١٠١؛ مسند الإمام أحمد، ٤٢/٥.

وهذا يعني أن رضا الله تعالى هو الميزة التي تفوق كلَّ رفاهية وسعادةٍ مادّيّةٍ، وتُشعر الإنسان بأهمّيّتها على الدوام، ويصل بها القلبُ إلى الاطمئنان الكامل.

والمؤمن يرمي من وراء سعيه وجهده رضا الله تعالى، فهو يؤدّي عبادته لأن الله كلّفه بذلك لعلّه يحظى بنيل رضاه ﷻ، ويأمل أن يجني ثمرةَ سعيه في الآخرة، فإذا ما أصابه فضلٌ مِنَ الله في الدنيا توجّه لله بالحمد والثناء، وسجد له امتنانًا وشكرًا.

أجل، إنه لا يفكّر إلا في الرضا الإلهي فحسب، وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرةٌ تؤيّد هذا الأمر مثل قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (سُورَةُالزُّمَرِ: ١١/٣٩).

﴿قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ (سُورَةُ الزُّمَرِ: ١٤/٣٩).

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (سُورَةُ البَيِّنَةِ: ٥/٩٨).

د. دستور الحياة لتلميذ القرآن هو التعاون

جعل القرآنُ الكريم من التعاون والتضامن دستورًا للحياة، يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٢/٥).

أجل، على المؤمنين أن يتعاونوا مع بعضهم البعض في مسألةِ معايشةِ أوامر الدين وإحيائها، ويجب ألا ننسى أن الوجهة الاجتماعيّة للإسلام هي الغالبة، فمن الضروريّ النهوض بهذه الوجهة والمحافظة عليها، ولذا يقول القرآن: "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى".

ولأن الحياة ليست عبارةً عن جدالٍ وصراعٍ، بل تعاونٌ وتضامنٌ، فالذرّات تُعين النباتات، والنباتات تُعين الحيوانات، والحيوانات تمدّنا بالغذاء وهكذا، بل إنّ كلَّ شيءٍ يتبدّى فيه التعاونُ والتضامن؛ حتى إن ذرّات الهواء والتراب والماء وجزيئاتها تعتمد على فكرة التعاون في الحفاظ على وجودها.

وعندما يرى المؤمنُ الكونَ في مثل هذا النظام التعاونيّ يقول: الكون كلُّه عبارةٌ عن تعاونٍ وتضامن، ومن ثمّ فعلى الإنسان أن يتواءم مع هذا النظام العام في الكون، ويُهرع للمساعدة والتعاون دائمًا حتى لا يخلّ بهذه السيمفونيّة المتناغمة وهذه الموسيقى العامة المتوائمة.

هـ. الرابطة بين المؤمنين عند تلميذ القرآن هي الأخوة

أكّد القرآنُ الكريم على أن الرابطة بين المؤمنين هي الأخوّة بقوله: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ (سُورَةُ الْحُجُرَاتِ: ١٠/٤٩)، فيجب أن تكون هذه الرابطة قائمةً بين المسلمين جميعًا، وهذا يستدعي التأكيدَ مرّةً أخرى على شعور الأخوّة، ولا سيّما بين الذين يعايشون الإسلام، فيجب على المؤمن أن ينظر إلى المؤمنين على وجه البسيطة بمنظار الأخوّة، وأن يرى الكون مهدًا لهذه الأخوّة.

و. الحقّ هو المبدأ الأساس عند تلميذ القرآن

والتربية القرآنية تَعتبر الحقّ هو نقطة الارتكاز وليس القوّة، وترى أن المحِقّ هو القوي، فتلميذ القرآن يعيش على عقيدة أن الحقَّ هو الغالب في المستقبل بفضل الله وعنايته وإن بدا ضعيفًا اليوم.

واحترامُ الحقّ في نظر المؤمن كالعبادة، روي أن عمر بن الخطاب ﷺ كان بينه وبين أبيّ بن كعب ﷺ خصومة، فقال عمر لأبيّ: اجعل بيني

وبينك رجلًا، فجعلا بينهما زيد بن ثابت ﷺ، فأتياه فقال عمر: أتيناك لتحكم بيننا، وفي بيته يؤتى الحكم، فلما دخلوا عليه، أَجلس زيدٌ عمرَ معه على صدر فراشه، فقال عمر ﷺ: "هذا أول جورك جرتَ في حكمك، أَجلِسْني وخصمي مجلسًا"، فقصا عليه القصة.

فقال زيد لأبيّ: اليمينُ على أمير المؤمنين، وإن شئتَ أعفيتَه.

فأقسم عمرُ على ذلك، ثم أقسم له:

"لا تدرك بابَ القضاء حتى لا يكون لي عندك على أحدٍ فضيلةٌ"(٧٩).

فالمؤمن الذي لم يخضع لتأثير أنظمة الفلسفة غير القرآنية يعيش مع الحقّ ويوصي به على الدوام كما جاء في قول الله تعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ (سُورَةُ العَصْرِ: ١٠٣/١-٣).

وكما يقول شاعر الإسلام "محمد عاكف":

للَّه أسماءٌ تفوق العددا
على رأسها اسم الحقّ قد تمجّدا

أعظِم بإنسانٍ تمسّكَ جيّدًا
بالحقّ، يعلو صادحًا مغرّدًا

لِمَ كان الصحابةُ الكرام يقرؤون
سورةَ العصر عندما يفترقون؟

لأن هذه السورة تحوي أسرار الفلاح
يأتي الإيمان الحقيقي في البداية ثم الصلاح

(٧٩) البيهقي: السنن الكبرى، ٢٤٣/١٠.

ثـم الحـقّ أيـا عـزيـزي ثــم الـصبـر
وهـذه هـي خصـال الإنسانـيّة الـزُّهْـرُ
فإذا ما اجتمعت هــذه الأربـع خصـال
فــلا مجــال لــلـوهــن والاضمــحلال

إن الأشـياء قائمة بوجود الحقّ تعالى، وللأشياء حقيقة تابعة لاسم الله الحقّ، وهو من أعظم الأسماء الإلهية.

والمؤمـن يعتبـر القـوّة في الحـقّ، فالمُحقّ هـو القـويّ، وكما تقول القاعدة الإسلامية: "الحق يعلو ولا يُعلى عليه"، ومن ثمّ فالحق عالٍ دائمًا وهو أبيض أبلج، لا يستطيـع أيُّ شيءٍ التغلّبَ عليه.

الفصل الثامن

الخاتمة

الخاتمة

لقد حاولنا في هذا الكتاب أن نقول: إننا إن كنّا نأمل أن تقرّ أعينُنا بأبنائنا في المستقبل فعلينا إظهار الدقة والعناية البالغة بإعدادهم منذ البداية... وأوضحنا أن هناك عددًا من العوامل المؤثرة في تربية الطفل، مثل: الأسرة، والوالدين، والمدرسة، ومحيط الأصدقاء.

وبعد أن انتهى موضوعنا أردنا أن نذكِّر هنا في الخاتمة ببعضِ المعايير التي وردت في بعض ما كتبناه سابقًا[٨٠].

الطفل

يمثل الطفل بالنسبة لنسل الإنسان ما تمثّله البذرة بالنسبة لاستمرار نوع ونسل الشجرة، والأمم التي تُهمل أطفالها محكوم عليها بالانقراض، والأمم التي تدع أطفالها في أيدي الأجانب وتحت تأثير الثقافات الأجنبية سرعان ما تفقد هويّتها.

أطفالنا الحاليون سيكونون بعد ثلاثين أو أربعين سنة أكثر شرائح المجتمع تأثيرًا وإنتاجًا وفعالية، وعلى الذين ينظرون إلى الأطفال نظرةَ استصغارٍ واستهانةٍ أن يُدركوا مدى استهانتهم بعنصر مهمٍّ من عناصر الأمة وأن يخجلوا لذلك.

(٨٠) يقصد المؤلف بقوله "بعض ما كتبناه سابقًا" كتابه المترجَم إلى العربية بعنوان "الموازين أو أضواء على الطريق".

إن ما نراه اليوم من سوءٍ في أجيالنا الحالية، وانعدام الكفاءة في بعض الإداريّين عندنا، وما تعيشه أمّتنا من مصاعب... يرجع إلى ما اقترفه المسؤولون قبل ثلاثين سنة، أما المسؤولون الحاليّون عن التربية والتعليم فسيكونون مسؤولين عن كلّ مشكلةٍ أو فاجعةٍ، وكذلك عن كلّ فضيلة وكلّ خيرٍ يحدث بعد ربع قرن من الآن.

على كلّ أمّةٍ تريد ضمان مستقبلها توجيهُ عنايتها إلى تربية وتنشئة أطفالها الذين سيكونون رجالها في المستقبل بَدَلَ تبديد طَاقَاتها وسنواتها هنا وهناك، ومع أن الكثير من الجهود المبذولة هنا وهناك قد ذهبت أدراج الرياح، إلَّا أن أيّ جهد مبذولٍ في سبيل تربية الأجيال سيظلّ مصدرًا من مصادر الخير الذي لا ينضب.

إنّ مَن يُعتَبَرون الآن وصمةَ عار في جبين المجتمع من الأشرار والسكّيرين والفوضويّين ومدمني المخدّرات هم الذين أُهملت تربيتهم وهم أطفالٌ، وإنّنا أمام هذا الإهمال الحالي نتساءل: هل فكرنا في عاقبةِ ذلك؟ وهل أعملنا أذهاننا بالتنبّؤ في نوعية الجيل القادم الذي سيملأ ساحاتنا وشوارعنا غدًا؟...

الزواج

لن تكون الأمم المتقدّمة في التقنيّة وفي التكنولوجيا هي ذاتَها الأمم المسيطرة في المستقبل، بل ستكون هذه السيطرة في يد الأمم التي تهتمّ بمؤسّسة الزواج والتي تنجح في السموّ بأجيالها إلى مستوى الإنسانية الحقّ، أما الأمم التي لا تُعير أهمّيّةً لمؤسّسة الزواج ومرحلة النشأة، ولا تهتمّ بتربية أجيالها حسب فلسفتها في التربية فمحكومٌ عليها بالتحلّل والذوبان بين فكّي الزمان الذي لا يرحَم.

لـم يُشْـرَع الزواج من أجل الحصول على اللـذّة والمتعة فقط، بل هو لتشكيلِ أسرة وتأمينِ بقاء الأمّة ودوامها، وتخليصِ أحاسيس الفرد وأفكاره من التشـتّت، والسـيطرةِ على أهوائه وغرائزه الجسـدية، وكما في مسـائل فطريّة عديدة، فإن اللذات ليست إلَّا جوائز للترغيب.

يجـب ألَّا يكون هـمُّ المقبلين على الـزواج المَظهـرَ الخارجيَّ لرفيق العمر أو ملابسَـه أو ثروتَه أو جمالَه الخارجيَّ، لأنّ هذا الأمر من الجدّيّة والخطـورة بمـكان، فيجب اتخـاذ القرار فيه على أسـاس جمـال الروح، ومفهوم الشرف والأخلاق، وسموّ الفضائل.

إنّ الذيـن لـم يقوموا بالتدقيق والبحث الضـروريّ قبل الزواج، أو لم يجـدوا الفرصـة لذلك، لـن تفيدهم أيُّ معايير أخلاقيّـة عندما يصِل الأمر إلى مرحلة الطلاق.

أجـل، فالمهـمّ هنا ليس إنقاذ الأسـرة من الحريق بأقلّ الخسـائر، بل المهمّ عدم إدخال ما يسبّب الحريق إلى البيت أساسًا.

فكم من أسرة مباركة أُسِّسَت منذ البداية على قاعدة اللجوء إلى الحقّ تعالى وعلى العقل والمنطق، فأصبحت طوال حياتها بمثابة مدرسة تخرّج طلابًا نافعين يُعَدّون ضمانًا لبقاء أمّتهم ودوامها.

أيُّ زواجٍ لا يتـمّ بتفكيـرٍ وتمحيـصٍ لا يخلّـف وراءه سـوى زوجاتٍ باكياتٍ مشـرّدات في الشـوارع، وأطفالٍ في ملاجئ الأيتام، وجرائم تفتّت القلوب والأكباد.

وإن كانـت فائـدةُ الزواج بالنسـبة للفرد فائدةً واحـدةً، ففوائدها للأمّة جمّة؛ لذا فإن أضرار عدم الزواج عديدة، مثله في ذلك مثل الزواج الفاشل حيث تصبح الفتاة بائسةً والشاب ضائعًا، وهو مرضٌ ينخر في جسد الأمة مثل الطاعون.

الأسرة

إنّ الأسـرة المؤسّسـة علـى أُسـسٍ متينةٍ منـذ البداية هي عـشٌّ حنونٌ ترفـرف عليـه السـعادة المادّيّة والمعنويّـة، وهي حجرُ الزاويـة لبقاء الأمة ودوامهـا، ومدرسـةٌ مباركة تخـرّج أفرادًا ذوي أخـلاق فاضلة، وإنّ الأمـم التي جَعلت أُسَرَها بمثابة مدارس مباركةٍ مثمرةٍ، وجعلت مدارسَها دافئةً كبيوتهـا تكون قد أنجـزت أفضل حركاتها الإصلاحية، وضمنت سـعادةَ أجيالِها القادمة وطمأنينتَها.

إنّ الأمة تتشـكّل من أفراد العائلة، فإن صلحت البيوت صلحت الأمّة وإن فسـدت البيوت فسـدت الأمـة، ويا ليت الذين يرومـون صلاح الأمّة يبدؤون بإصلاح الأُسر والبيوت قبل أيّ شيءٍ آخر.

إنّ البيـت ليكـون بيتًا حسـب الأفراد الذين يعيشـون فيه، فإنّ سـعادة أفراد البيت مقرونةٌ بنسبةِ ما يتحلّون به من صفات ومن قِيَم إنسانيّة. أجل، نستطيـع القول بأن المرء بفضل بيته يستطيـع العيش إنسانًا، والبيت يكون بيتًا بالنظر إلى الأفراد الذين يعيشون في ظله.

البيت أمّة صغيرةٌ، والأمةُ بيتٌ كبيرٌ، فمَن ينجح في إدارة بيتٍ -كبيرًا كان أو صغيـرًا- إدارةً صحيحـةً ويرتفـع بأفراد ذلك البيت إلى المسـتوى الإنسـانيّ اللائق يستطيـع -ببذل جهدٍ صغيرٍ- القيامَ بإدارة مؤسّساتٍ أكبر إدارةً ناجحة.

الوالدان

لا يسـتمرّ نسـل الإنسـان إلا بالإنسـان وحـده، فإلى جانب الإنسـان الذي ارتقى إلى حياة القلب والروح، هناك أجيالٌ أُسِـيئت تربيتُها ولم تنمُ ملكاتها الروحيّة فلم تصل إلى مستوى الإنسانية، وهذه الأجيال وإن كانت

من نسل آدم عليه السلام فهي مخلوقات غريبة؛ فما أتعسَ الأمهات والآباء الذين كان من نصيبهم تنشئة مثل هذه المخلوقات الوحشيّة الغريبة.

إن حـقَّ الآباء والأمّهـات أن يقولوا: "هؤلاء أبناؤنا" مقصورٌ على قدرِ الفضائل التي ربَّوا أبناءهم عليها وزيّنوهم بها، لذا فليس من الملائم للآباء والأمّهـات الذين يُهملـون تربية أبنائهم أن يدَّعوا مثل هـذا الادّعاء، فماذا يجـدر أن يقال لآباءٍ يدفعون أبناءَهم إلى طريق الشـرّ والرذيلة ويُبعدونهم عن المستوى اللائق بالإنسان؟!!

إن بقـاءَ أيّ أمّـةٍ ودوامَهـا مرتبطٌ بحُسـن تربيتها لأجيالِها، وبتنشِـئتها أجيـالًا صالحـةً متشـرّبةً بـروح الأمّة... وإنّ الأمم التي تفشـل في تنشـئة أجيالٍ صالحةٍ تسـتطيع أن تستأمنها على مسـتقبلها فمستقبلها مظلم، ولا شـكّ أن المهـامّ الأولى في تنشـئة الأجيال تنشـئةً صالحةً تقـع أوّلًا على عاتق الآباء والأمّهات.

إن قـام الآباء والأمهات بواجبهم علـى أتمّ وجهٍ نحو أبنائهم وربّوهم تربيـةً صالحةً تجعلهم نافعين لأنفسـهم ولمجتمعهـم؛ فإن الأمّة تكون قد ملكت ركنًا ركينًا مهمًّا، أما إن كان العكس -أي أهملوا تهذيبَ المشـاعر الإنسانيّة- فكأنهم بهؤلاء الأولاد يبثُّون في المجتمـع حشراتٍ ضارّةً.

إن أرواح الأطفـال هـي أصفى مرآةٍ، وأسـرع آلة تصوير، والمدرسـة الأولـى لهـم هي بيوتهـم، وأول المربّين لهم هم أمهاتهم؛ لـذا فإن إعداد الأمّهات كمربّيات صالحاتٍ أساسٌ مهمٌّ من أُسُسِ بقاء الأمّة ودوامها.

الأمّ هـي المعلّمة الأولى لمدرسـة الإنسـانيّة؛ فهي التـي تقوم بتعليم الأطفال وتربيتهم وتوفير السعادة والنظام في البيت، وإنني على قناعة تامّةٍ

بـأن تذكيرنـا للمرأة مرّةً أخرى بهذا الموقـع الممتاز الذي أنعمت به عليها يد القدرة الإلهيّة في هذه الأيام التي يتمّ فيها البحث عن مواقـع جديدةٍ لها خارج البيت؛ سيمنعها من التفكير في هذه الأمور التي هي في غِنًى عنها.

إن أيّ امـرأة نضجـت روحهـا تنبعـث مـن بيتهـا روائح زكيّة تشـرح الصـدور؛ بفضـل الخلـف الصالح الـذي ربّتـه وخلّفته وراءهـا، لذا يظلّ بيتهـا -الـذي تنبعث منه هذه الروائح العطرة- دوحةً زكيّةً تفوق الوصف، وروضةً إيمانيّةً تُشبه الجنّةَ في أجوائها وعِطرها وسعادتها.

المـرأة التـي فَتحـت قلبهـا لنـور الإيمـان وعقلَهـا للعلـم وللتربيـة الاجتماعيـة تُضفـي كلّ يـوم جمالًا جديـدًا لبيتها وكأنّها تُنْشِـئُه وتبثُّ فيه الحياةَ من جديد، أما السفيهة الوقِحَةُ فتقوم بهدم البيوت القائمة وتحويلِها إلى خرابٍ، بل إلى مقابر.

التربية والشباب

التربيـة جميلةٌ بحـدّ ذاتِها، ومَن توافرت فيه حـاز كلَّ احترامٍ وتقديرٍ. أجـل، حتـى الجاهل يكون محبوبًـا إن كان مؤدّبًا، والأمـم المحرومة من التربية الدينيّة ومن الثقافة الدينيّة والوطنية تُشبه المتسيّبين الجاهلين الذين لا تتوقّـع منهم وفاءً عند صداقتهم ولا جدّيّةً عند عداوتهم، والذين يثِقون بأمثال هؤلاء يُمنَون دائمًا بالخسـران وخيبة الأمل، والذين يعتمدون على هؤلاء يظلّون دون سندٍ أو معونةٍ.

المربّيات والمربّون الذين لم يتتلمذوا على يد خبير، ولم يتلقّوا التربية من مصدر موثوقٍ يُشبهون العُمْيَ الذين يحملون المصابيح لإنارة الطريق أمـام الآخرين، والوقاحـة والتدلّل عند الصغار يدلّ على عدم صفاء النبـع الـذي يتلقّـون منه التربية، وانعـدام التوازن في العائلة مـن حيث التصرّف

أو الفِكر ينعكس على روح الطفل ويتضاعف، ومنه يسري طبعًا إلى المجتمع.

إن الشاب -حتى اللحظة التي نصل فيها بالتربية إلى إغاثته- نراه في المحيط الذي نشأ فيه يحومُ بجنونٍ حول الأهواء والشهوات بعيدًا عن البصيرة وعن العِلم والمنطق، ولكن إن عهدنا إليه بتربيةٍ تربطه بجذوره وتُهيّئه للمستقبل غدًا من أمثال سيدنا عمر ﷺ في المآل.

إن تقدُّم الأمة أو انحطاطها مُرتبطٌ بالتربية والروح والشعور الذي تتشرّبه أجيالها الشابّة، فطريق التقدّم مفتوحٌ دومًا أمام أمم تُعِدّ أجيالَ الشباب إعدادًا جيّدًا، أما الأمم التي تُهمل الشبابَ فلا مناصَ من تدنّيها وانحطاطها.

على الذين يرغبون في معرفة مستقبلِ أيّ أمّةٍ والتنبؤ به أن ينظروا إلى تربية شباب تلك الأمة ويضعوا ذلك في اعتبار الرؤية المستقبليّة، عند ذلك تكون أحكامهم صائبة مائة بالمائة.

إن إصلاح أيّ أمّة لا يكون بالقضاء على الشرور، بل بتربية الأجيال تربيةً سليمة وبتثقيفها ثقافةً صحيحة، ورفعِها إلى مستوى الإنسانية الحقّة، فإذا لم نبذر في أرجاء الوطن بذورًا مباركةً، والتي هي عبارة عن خليطٍ من الشعور الديني والتاريخي والأعراف؛ فستنبت مكانَ كلّ شرٍّ قضينا عليه نَبتاتُ شرٍّ جديدة.

يجب أن تُولَى أهمّيّة لدروس التربية والثقافة الدينيّة في المدارس بقدر الأهمّيّة المعطاة للدروس الأخرى على الأقل؛ حتى تنشأ أجيالٌ قويّة في خلقِها وسلوكِها وروحِها فيحوّلوا ربوعَ هذا الوطن إلى جنّة، إنّ التعليمَ شيءٌ والتربيةَ شيءٌ آخر، فمن الممكن أن يكون أكثر الناس معلِّمين، ولكن القلّة القليلةَ منهم مَن يستطيع أن يكون مربّيًا.

مع أنَّ دروس التربية الدينيّة والثقافة الدينيّة مهمّةٌ وضروريّةٌ جدًّا، إلَّا أن الأهمّيّة المعطاة لها في المدارس قليلة، فإذا استطعنا يومًا أن نتلافى هذا التقصير ونسدّ هذا النقص نكون قد خطونا خطوةً مهمّةً جدًّا نحو تقدُّم هذه الأمة واتّخذنا أصوبَ قرار على طريق النهضة.

إنّ مستقبلَ كلِّ إنسان متعلّقٌ بما تأثّر به وانطبع عليه في طفولته وشبابه؛ فإن كان قد قضى طفولتَه وشبابَه في جوٍّ إيجابيٍّ تجيش فيه المشاعر العلويّة توقّعنا أن يكون إنسانًا يُحتذى به من الناحية الفكريّة والخلقيّة.

إنّ إنسانيّةَ الإنسانِ مربوطةٌ ومرهونةٌ بقدر بُعده عن الأشياء القذرة، أمّا مَن استكان قلبُه تحت وطأةِ المشاعر الخسيسة، وروحُه تحت قبضة شهواته؛ فهو وإن بدا إنسانًا في مظهره إلا أنّ هناك شكوكًا حول حقيقة إنسانيّته.

يَعرف الجميعُ تقريبًا متعلّقات التربية البدنيّة، ولكن النزرَ القليلَ من يعرف قيمةَ التربية الفكريّة والعاطفيّة التي هي الأصل، فإنّ مَن ينشَأ على التربية الأولى هو إنسانُ الجسد والعضلات، ومن ينشأُ على التربية الثانية هو إنسانُ الروح والمعنى.

الصديق الصالح

لا بدّ من اختيار الصديق، ولكن ليس أيّ صديقٍ، بل الصديق الصالح، وما أبدع قول الرسول ﷺ: "**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ**"(٨١)، وقوله عليه أكمل التحايا: "**مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا**

(٨١) سنن أبي داود، الأدب، ١٩.

طَيِّبَـةً، وَنَافِـخُ الكِيـرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَـكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًـا خَبِيثَةً"[٨٢]، وقول الأقدمين: "قل لي من تُصاحب، أَقُلْ لك من أنت"، وقولهم: "الوردة تنبـتُ بيـن الـورود"، و"الصديـق الصالـح يسـوقك إلى الجنّـة، والصديق الطالـح يسـوقك إلى النار". أجل، لا جرم أن الإنسـان يتأثَّر بصديقه خيرًا كان أو شرًّا.

إننـا لنرى عندمـا تُقلّم الأشـجار، وتُرعى الحيوانـات رعايةً صحيحةً كيف نحصل على ثمرة هذا الاهتمام، وكيف يسـتمرّ نسـل تلك الشـجرة وذلـك الحيـوان، ولكن عندمـا تُترك الأشـجار أو الحيوانـات دون رعايةٍ واهتمـام لا نسـتطيع الاسـتفادة منها بالشـكل المرجـوّ والمطلوب، أفلا يستحقّ الإنسان المرسل إلى الدنيا بكمّ هائلٍ من القابليّات والاستعداداتِ أن يكون له نصيبٌ من الاهتمامِ والرعايةِ التي نُبديها ونبذُلُها لشجرة؟

يـا ابـن آدم! أنت مَن تنجب الطفل، لذا تقـع عليك مسـؤوليّة الارتقاء بهذا الطفل إلى ما وراء السماوات، فكما تهتمّ بصحّة جسمه وتشفقُ عليه من المرض، اهتمّ بحياة قلبِهِ وبروحِهِ وأَشفقْ على ذلك المسكين من النار وأنقذه بحقّ الله، ولا تدعه يخسر الدنيا والآخرة.

(٨٢) صحيح البخاري، الذبائح والصيد، ٣١.

مصادر

أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ)؛ **سنن أبي داود**؛ (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٣) سنن أبي داود؛ دار السلام، الرياض.

أبو يعلى، أبو يعلى أحمد بن علي بن المُثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (ت: ٣٠٧هـ)؛ **المسند**؛ تحقيق: حسين سليم أسد؛ دار المأمون للتراث، دمشق، ١-١٣، ط ٢، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)؛ **حلية الأولياء** وطبقات الأصفياء؛ السعادة - مصر، ١-١٠، ط ١، (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م). [ثم صورتها عدة دور منها: ١- دار الكتاب العربي - بيروت، ٢- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ٣- دار الكتب العلمية - بيروت (طبعة ١٤٠٩هـ) بدون تحقيق)].

ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ التميمي أبو حاتم الدارمي البُستي (ت: ٣٥٤هـ)؛ **صحيح ابن حبان**؛ تحقيق: شعيب الأرنؤوط؛ مؤسسة الرسالة، ١-١٨، بيروت، ط ١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)؛ **تفسير القرآن العظيم**؛ تحقيق: محمد حسين شمس الدين؛ دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت، ١-٩، ط ١، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت: ٢٧٣هـ)؛ **سنن ابن ماجه** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٦)؛ دار السلام، الرياض.

ابن قدامة المقدسي، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي (ت: ٦٢٠هـ)؛ المغني؛ مكتبة القاهرة، ١-١٠، (١٣٨٨هـ/٦٨٨٤م).

أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني؛ **مسند الإمام أحمد** بن حنبل؛ تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون؛ مؤسسة الرسالة، ١-٤٥، ط ١، (١٤٢١هـ/٢٠٠١م).

البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي (ت: ٢٩٢هـ)؛ **مسند البزار**؛ تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله (من ١ إلى ٩) وعادل بن سعد (من ١٠ إلى ١٧) وصبري عبد الخالق الشافعي (١٨)؛ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١-١٨، ط ١، (٢٠٠٩م).

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)؛ **السنن الكبرى**؛ تحقيق: محمد عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط ٣، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

ـــــــ، **شعب الإيمان**؛ تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد؛ مكتبة الرشد، الرياض، ١-١٤، ط ١، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦هـ/٨٧٠م)؛ **صحيح البخاري** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-١)؛ دار السلام، الرياض.

البغوي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت: ٥١٠هـ)؛ **معالم التنزيل** في تفسير القرآن (تفسير البغوي)؛ تحقيق: عبد الرزاق المهدي؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١-٥، ط ١، (١٤٢٠هـ).

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت: ٣٦٠هـ)؛ **المعجم الأوسط**؛ تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني؛ دار الحرمين، القاهرة.

ـــــــ، **المعجم الكبير**؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١-٢٥، ط ١، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

ـــــــ، **مسند الشاميين**؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١-٤، ط ١، (١٤٠٥هـ/١٩٨٤م).

المناوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي (ت: ١٠٣١هـ)؛ **فيض القدير** شرح الجامع الصغير؛ المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١-٦، ط ١، (١٣٥٦هـ).

مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)؛ **صحيح مسلم** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٢)؛ دار السلام، الرياض.

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (ت: ٣٠٣هـ)؛ **سنن النسائي**؛ (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٥) **سنن النسائي**؛ دار السلام، الرياض.

سعيد النُّورْسِي، بديع الزمان (ت: ١٩٦٠م)؛ من كليات رسائل النور: **الكلمات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

عبد الله بن المبارك، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المروزي (ت: ١٨١هـ)؛ **الزهد والرقائق** لابن المبارك؛ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي؛ دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

عبد الرازق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت: ٢١١هـ)؛ **المصنف**؛ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي؛ المكتب الإسلامي، بيروت، ١-١١، ط ٢، (١٤٠٣هـ).

القضاعي، أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري (ت: ٤٥٤هـ)؛ **مسند الشهاب**؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١-٢، ط ١، (١٤٠٧هـ/١٩٨٦م).

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت: ٢٧٩هـ)؛ **جامع الترمذي** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٤)؛ دار السلام، الرياض.

ـــــــ، **الشمائل المحمدية**؛ دار إحياء التراث العربي - بيروت.